




ISSN 1985-8647

ثمن العـدد

البحرين	دينار بحريني
دول مجلس التعاون	٥ دولارات أمريكية أو ما يعادلها
جمهورية مصر العربية	١ دولار أمريكي أو ما يعادله
الدول العربية الأخرى	٨ دولارات أمريكية أو ما يعادلها

قسيمة الاشتراك

تصدر المجلة مرتين في السنة، ويدفع الاشتراك بالدينار البحريني أو ما يعادله

ويرسل إلى:

مجلة العلوم الإنسانية - كلية الآداب - جامعة البحرين - ص.ب: ٣٢٠٣٨

الرجاء اعتماد اشتراكي في المجلة ولمدة:

☐ سنة واحدة ☐ سنتان

للأفـــراد

الـبـحـريـن:	☐ سنة واحدة: ٣ د.ب	☐ سنتان ٦ د.ب
الدول العربية:	☐ سنة واحدة: ٥ د.ب	☐ سنتان: ١٠ د.ب
الـدول الأخـرى:	☐ سنة واحدة: ٧ د.ب	☐ سنتان: ١٤ د.ب

للمؤسسات

البحرين والدول العربية:		
الدول الأخرى:	☐ سنة واحدة: ٤ د.ب	☐ سنتان: ٨ د.ب
	☐ سنة واحدة: ٨ د.ب	☐ سنتان: ١٦ د.ب

تدفع الاشتراكات إما بشيك لأمر مجلة العلوم الإنسانية كلية الآداب - جامعة البحرين على أحد المصارف البحرينية ، أو بتحويل مصرفي إلى حساب رقم (٨٨٥٠٠٨٠٢) لدى بنك البحرين الوطني.

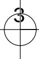
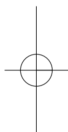
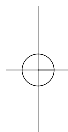
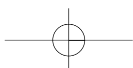
اسم المشترك وعنوانه

الاسم: .... المهنة: ....

العنوان: ....

Human Sciences Arabic 16   8/4/09   9:13 PM   Page 2





إذا كان الباحث يتعاون مع المجلة للمرة الأولى، وعليه أن يشير فيما إذا كان البحث قد قدم إلى مؤتمر، أو ندوة وأنه لم ينشر ضمن أعمال المؤتمر، كما يشار إلى اسم أية جهة علمية، أو غير علمية، قامت بتمويل البحث، أو المساعدة على إعداده.

٤- يمنح الباحث نسختين من العدد الذي يتضمن بحثه بالإضافة إلى خمس (٥) مستلات من المادة، كما يمنح أصحاب المناقشات، والمراجعات والتقارير، وملخصات الرسائل الجامعية نسخة من العدد الذي يتضمن مشاركاتهم.

ثالثاً: المصادر والحواشي:

١- يشار إلى جميع المصادر بأرقام الحواشي التي تنشر في أواخر البحث، ويجب أن تعتمد الأصول العلمية المتعارفة في التوثيق والإشارة بحيث تتضمن: اسم المؤلف، وعنوان الكتاب، أو المقال، واسم الناشر، أو المجلة، ومكان النشر إذا كان كتاباً، وتاريخ النشر، والمجلد، والعدد، وأرقام الصفحات إذا كان مقالاً.

٢- يزود البحث بقائمة للمصادر منفصلة عن الحواشي، وفي حالة وجود مصادر أجنبية تضاف قائمة بها منفصلة عن قائمة المصادر العربية، ويراعى في إعدادها الترتيب الألفبائي لأسماء المؤلفين.

رابعاً إجازة النشر:

يتم إبلاغ أصحاب المساهمات بتسلم المادة خلال أسبوعين من تاريخ التسلم، مع إخطارهم بقبولها للنشر، أو عدم القبول بعد عرضها (في حالة البحوث) على محكمين، تختارهم المجلة على نحو سري. أو بعد عرضها على هيئة التحرير (في حالة المساهمات الأخرى). وللمجلة أن تطلب إجراء تعديلات شكلية، أو شاملة على البحث قبل إجازته.

جميع الأفكار الواردة في المجلة تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.

العنوان: مجلة العلوم الإنسانية، كلية الآداب - جامعة البحرين.
ص. ب: ٣٢٠٣٨ مملكة البحرين.
هاتف: رئيس التحرير ١٧ ٤٣٨٤٢٩ ـ ١٧ ٤٣٨٤٢٣ - فاكس: ١٧ ٤٤٩٦٥٥
البريد الإلكتروني: hssj@admin.uob.bh
الموزع في البحرين والوطن العربي: مؤسسة الأيام للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب: ٣٢٣٢ - المنامة - مملكة البحرين
هاتف: ١٧ ٧٢٥١١١ - فاكس: ١٧ ٧٢٣٧٦٣



قواعد النشر بالمجلة

ترحب مجلة العلوم الإنسانية بنشر الأبحاث والدراسات العلمية المتخصصة ذات الصلة باللغويات، والأدب، والنقد المقارن، والدراسات الفكرية والفلسفية، والاجتماع، والتاريخ، والجغرافيا، والتربية، وعلم النفس، والفنون، والتراث الشعبي والإنثروبولوجيا، والآثار، وذلك وفقاً للقواعد الآتية:

أولاً قواعد عامة:

١- تنشر المجلة الأبحاث والدراسات الأكاديمية الأصيلة، وتقبل للنشر فيها الأبحاث المكتوبة باللغة العربية، أو اللغة الإنجليزية التى لم يسبق نشرها، وفي حالة القبول يجب ألا تنشر المادة في أي دورية أخرى دون إذن كتابي من رئيس التحرير.

٢- تنشر المجلة الترجمات، والقراءات ومراجعات الكتب، والتقارير، والمتابعات العلمية حول المؤتمرات، والندوات، والنشاطات الأكاديمية المتصلة بحقول اختصاصها، كما ترحب بالمناقشات الموضوعية لما ينشر فيها، أو في غيرها من المجلات، والدوريات، ودوائر النشر العلمي.

٣- ترحب المجلة بنشر ما يصل إليها من ملخصات الرسائل الجامعية (التى تمت مناقشتها وإجازتها) في حقول العلوم الإنسانية، شريطة أن يكون الملخص من إعداد صاحب الرسالة.

٤- يلتزم الباحث بإرسال ملخصين أحدهما بالعربية، والأخرى بالإنجليزية للبحوث والدراسات، على ألا يزيد عدد كلمات كل منها على ٢٠٠ كلمة.

٥- ترسل البحوث مطبوعة بنظام Text only . مصححة بصورتها النهائية على CD خاص يتضمن البحث، والملخص باللغتين العربية والإنجليزية. ويمكن إرسالها بصورة ملف مرفق (Attache File). إلى البريد الإلكتروني للمجلة.

٦- توجه جميع المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة العلوم الإنسانية - جامعة البحرين
ص. ب: ٣٢٠٣٨ - فاكس: ١٧ ٤٤٩٦٢٠
هاتف: ١٧ ٤٣٨٤٢٩ - ١٧ ٤٣٨٤٢٣

ثانياً الأبحاث:

١- يقدم الأصل مطبوعاً على الحاسوب على ألا تزيد عدد صفحات البحث على ٤٠ صفحة مطبوعة ومراجعة بدقة، على أن ترقم الصفحات ترقيماً متسلسلاً بما في ذلك الجداول، والأشكال.

٢- تطبع الجداول، والصور، واللوحات على أوراق مستقلة، ويشار في أسفل الشكل إلى مصدره، أو مصادره، مع تحديد أماكن ظهورها في المتن.

٣- يذكر الباحث اسمه وجهة عمله على ورقة مستقلة، ويجب إرفاق نسخة من السيرة العلمية

مجلة العلوم الإنسانية
مجلة دورية محكمة تصدر عن كلية الآداب - جامعة البحرين
العدد 17/16 – 2009

قراءات ومراجعات





المحتـــويـــات

الأبحـــاث

المحـــور:

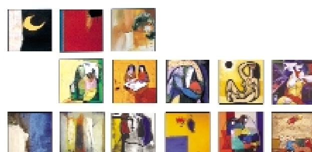
دراسات فلسطينية



مجلة العلوم الإنسانية
مجلة دورية محكمة تصدر عن كلية الآداب - جامعة البحرين

الأبحـــاث

الأبحـــاث





لوحة الغلاف

الفنان: عبد الكريم العريض

فنان تشكيلي بحريني ومن روّاد الحركة التشكيلية في البحرين.

العلوم الإنسانية - العدد 16/17 - 2009

Computers usage in Social Medical work in Kuwait A Field Survey

Dr. Saleh Lairi

Abstract

This study aims at assessing the benefits of using computer technology in enhancing the role of social works. In old days, social workers used to prepare paper files for storing data and keeping track of the information pertinent to the different cases under study. Thank to the computer age, data bases are constructed to store, manipulate, and retrieve massive data easily, effectively and timely making any file a minute part of these data bases. Unfortunately, this galloping from old practices into new computer era is not accepted by many social workers and has frightened others; this is mainly due to fear of change and lack of confidence among old timers. Hence, accepting such a change necessitates spending time and energy to convince many to move from old practices to the new. This research work attempts to explore the existing capabilities of the practitioners in the field of medical social work in using computers in diagnosing patients and recording the different information and statistics of these patients. Other objectives include creating a friendly atmosphere between the computer and the social worker. Above all, creating awareness among medical social works community to the importance of using this new technology.

Key words: Computer, Social works, Awareness, Data bases

* ***Ministry of Public Health - Kuwait.***

دراسة استطلاعية
لواقع استخدام الكمبيوتر في مجال الخدمة الاجتماعية الطبية - دولة الكويت

د. صالح ليري *

الملخص

((ماذا يمكن أن تقدمه الحواسب الآلية؛ للارتقاء بالخدمة الاجتماعية في أداء رسالتها ؟))

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم إجابة عن هذا التساؤل والأسئلة الأخرى التي قد تتفرع منه، والتي تحيط بالمجتمع الصحي لكل طوائفه وقواه العاملة، وواقع الأمر أن أخصائيي الخدمة الاجتماعية القدامى منهم والمحدثون والذين ينتمون جميعا إلى عهد كان فيه الملف (File) يحتل حيزا ضئيلا في الأماكن المخصصة لذلك في غرف الحفظ المظلمة، في حين أصبح الملف بفضل الكمبيوتر جزءًا متناهي الصغر في قاعدة البيانات، وقد لا يحظى ذلك بالقبول والارتياح أحيانا، كما سيقتضي التغير بذل مزيد من الجهد والعمل المتواصل، لا سيما إبان السنوات التي تسير فيها الأنظمة التقليدية فترة الانتقال من القديم إلى الحديث جنبا إلى جنب، ويقدم التعميم والتداول الكثير من عمليات الحاسب الآلي على أسس تنتج بذاتها أو بتأثيراتها شعورا بالنقص لدى القدامى غير المتمكنين من التعلم على عمليات الحاسب الآلي. ومنها كانت هذه الدراسة الاستكشافية، عن الأخصائيين الاجتماعيين العاملين في المجال الطبي؛ لمعرفة مدى إمكاناتهم وقدراتهم على استخدام الحاسب الآلي في مجال عملهم ، وبشكل يخدم العميل (المريض) بنظرة متفحصة بالإضافة إلى الجوانب الأخرى لحياة المريض ، والتي يستخدم فيها فريق العمل الطبي جميعا هذا الجهاز (الكمبيوتر) في متابعة حياة ذلك المريض وهو على سرير العلاج من خلال قراءات الأرقام والإحصائيات والمعدلات المربوطة بجسم المريض.

وهدف هذه الدراسة هو السعي لإزالة مخاوف الأخصائيين الاجتماعيين العاملين في المجال الطبي بدولة الكويت، من خلال إدخال هذا الجهاز (**الكمبيوتر**) إلى أقسام الخدمة الاجتماعية؛ ليعتمدوا عليه في تطبيقات عملهم، وعلى مساعدة الجهاز لهم، وبدء عمل الحكومة الالكترونية في جميع المجالات والتي من ضمنها الخدمة الاجتماعية لتسير خطوة إلى الأمام ، وهذا هو بالضبط ما تتطلع إليه هذه الدراسة.

- المصطلحات العلمية : الكمبيوتر ـ الخدمة الاجتماعية ـ ممارسة مهنية.

*** مدير الخدمة الاجتماعية الصحية - الكويت.**

الطبية وفي مواصلة المعرفة العلمية لبرامج الكمبيوتر (الحاسوب الآلي)؛ لتطوير فنية أداء الأخصائي الاجتماعي بما يتناسب وحجم العمل والخدمة المقدمة ، وحيث بدأ فيه الحاسوب الآلي بأخذ مكانة مرموقة في أمور حياتنا ، ويواجه أسلوب عملنا أحيانا في شتى ميادين المعرفة ، ومن هنا كان لابدّ وأن يقوم مقدمو الخدمة الاجتماعية بالتعرف على هذا الجهاز وتطويع استخداماته في مجال عملهم حتى لا تكون مهنة متأخرة علميًّا في المجتمعات النامية (Hoshino,1979) .[4]

1- مشكلة الدراسة :

تدور مشكلة الدراسة حول مدى فعالية أداء عمل الأخصائيين الاجتماعيين العاملين في المجال الطبي من إمكانية تحويل أدائها ومهامهم إلى استخدام الكمبيوتر في إنجاز أعمالهم مع العملاء داخل المستشفيات مع توضيح مدى إلمامهم بالوعي التكنولوجي لمستخدم هذه الأجهزة وتطويعها بما يتناسب وحجم العمل مع ارتباطهم بالأصول العلمية والمفاهيم الفنية الخاصة بالخدمة الاجتماعية كمهنة.

2- أهمية الدراسة :

ترجع أهمية هذه الدراسة إلى أن التطوير المتواصل في استخدام الحاسب الآلي في جميع مرافق الدولة ، والكثير من المهن التي استخدمتها في أعمالها ، وفي الاعتماد على هذا الجهاز المتكامل الأداء والمسهل لكثير من الأمور العملية والمهنية ، فمن هنا كانت هذه الدراسة لمعرفة مدى أهمية استخدام الحاسوب الآلي (الكمبيوتر) في التطبيقات العملية لمهنة الخدمة الاجتماعية في المجال الطبي لعملها اليومي مع المرضى ومدى الاعتماد الفني على هذا الجهاز لإنجاز الأعمال المهنية ، وكعامل مساعد للأخصائي الاجتماعي الطبي في المستشفيات ، والتي يمكننا منها معرفة مدى جدوى هذا الجهاز في تسهيل عملياتهم المهنية مع مجتمع المستشفى.

المقدمة

قفزت الكلمة المكتوبة من سطح الورق إلى سطح الشاشة ، فبرزت ـ في أقل من عشر سنوات ـ مفاهيم وتطبيقات البريد الالكتروني والتجارة الالكترونية والكتاب الالكتروني، والحكومة الالكترونية ، وكلها مرتبطة ببنائها الأساسي لمفهوم وتطبيقات «الهيبرتكست» (Hypertext) «النص الأعلى» وهو التعبير الوصفي لأحدث أشكال النص «الكتابة الالكترونية» ، وهو يشكل نصا الكترونيا يرتبط بنصوص أخرى عن طريق روابط داخل النص الأصلي ، والكلمة يمكن ترجمتها حرفيا «النص الفائق» وهي ترجمة معبرة عن صفات «الهيبرتكست» ، وقد آثرنا كتابتها بالحروف الغربية كما تنطق في لغتها الأصلية؛ لسهولة تداولها. (سرحان – 1996) [1]

ويثير الانتشار الواسع للكلمة الالكترونية والشاشة الملونة على حساب الكلمة المطبوعة على الورق وقضية النص الالكتروني ، وإمكان اختفاء النص المطبوع بوصفه مرحلة من مراحل تكنولوجيا لا يمكن لها الخلود مثلما كنا نتصور ، أما الخدمة الاجتماعية وانتشارها أصبح لها أدوار مؤثرة ومحددة في بناء المجتمعات وحل مشكلاتها والمساهمة في التنمية بعد أن أصبحت تمارس في جميع المؤسسات الموجودة بالمجتمع ، بل وأصبح للخدمة الاجتماعية ميادين للممارسة ومجالات لأعمال كثيرة ومتعددة، منها المجال الطبي في المؤسسة الصحية (Boyd, 1967).[2]

ومن هنا فإن هدف الدراسة معرفة مدى قدرة هذا الجهاز الجبار على تطوير مهنة الخدمة الاجتماعية الطبية ، وفي أداء مهمتها بشكل علمي سليم من خلال الجهد والوقت ، وفي تسهيل تطبيق الاستمارات والنماذج العلمية المستخدمة في عملهم في المجال الطبي من ناحية ، ومشاركته في أحداث التطور التكنولوجي الذي يعايشه الفرد في هذا العصر من ناحية أخرى.(أبو العطا ، 1993)[3]

كما تهدف هذه الدراسة إلى خلق مجال يساعد في تطوير أداء الخدمة الاجتماعية

- هل يمكن أن يضيف الكمبيوتر معلومات جديدة لعمل الأخصائي الاجتماعي؟
- هل يمكن إزالة مخاوف الأخصائي الاجتماعي من استخدام جهاز الكمبيوتر؟
- هل يمكن إحلال الكمبيوتر مكان ملف المريض (File)؟

والسؤال المطروح في هذه الدراسة : ما الذي يمكن أن يقدمه الحاسوب الآلي(Computer)؛ للارتقاء بالخدمة الاجتماعية الطبية في أداء رسالتها نحو الفرد أو الجماعة داخل المؤسسة الصحية ؟!

5- ا لإجراءات العامة للدراسة الميدانية :

خصص هذا الجزء من الدراسة؛ لبيان الإجراءات العامة للدراسة الميدانية موضحًا أهم المفاهيم المستخدمة مع بيان لنوع الدراسة ، وكذلك المنهج العلمي المتبع مع توضيح خطة العمل ، وإجراءاتها الفعلية ، وأيضًا الأداة المستخدمة في تجميع البيانات للدراسة ، بالإضافة إلى توضيح الخطة العامة لتحليل البيانات ، وذلك على النحو الآتي :

أولا : مفاهيم الدراسة :

(1) التحديد النظري لمفهوم الجهد، نقصد بالجهد تلك الطاقة الذهنية والنفسية؛ لإنجاز العمل المحدد مع جهاز الكمبيوتر، ومدى سرعة إنجازه .

(2) والتحديد النظري لمفهوم الجدوى في فعالية الجهود التي يبذلها الأخصائي الاجتماعي كي يصل إلى أهدافه من خلال استخدام جهاز الكمبيوتر ، ومدى أهمية هذا الجهاز للجدوى والجودة في مكاتب الخدمة الاجتماعية الطبية ، ومنها يمكن تحديد المفاهيم الآتية :

أ- الكمبيوتر (الحاسوب الآلي) :

الحاسوب الآلي عبارة عن آلة الكترونية لها القدرة على معالجة الرموز أو الكلمات

3ـ أهداف الدراسة :

ترتبط اهداف هذه الدراسة بما يمكن أن تقدمه الحاسبات الآلية من مساعدة في عمل الخدمة الاجتماعية في المؤسسة الصحية ، والتي من خلالها يمكن للأخصائي الاجتماعي مشاركة الأنماط الاجتماعية لحياة المريض في المستشفيات، ومع إمكانية ربطها بالحاسبات الآلية في الشبكة الطبية داخل المؤسسة الصحية، والتي من ضمنها برامج وأنشطة الخدمة الاجتماعية الطبية ، والتي تهدف من استخدام الكمبيوتر في مجال عملها إلى تقليل وقت وجهد الأخصائي الاجتماعي، وربط العلاج الطبي والاجتماعي معا من خلال منظومة علمية مترابطة وفق الأهداف الآتية :

1. الحفاظ على جميع بيانات المريض (الصحية و الاجتماعية) في ملف واحد .
2. تسهيل الحصول على البيانات والمعلومات الأولية بالسرعة المناسبة (المطلوبة) من ممثلي الأقسام المختلفة التي تعمل من أجل المريض.
3. النقلة النوعية لمعلومات المؤسسة الصحية بربط مستشفيات الكويت بدائرة صحية موحدة.
4. الاستفادة من التقنيات الحديثة للكمبيوتر في مجال عمل الأخصائيين الاجتماعيين.
5. ربط مكاتب الخدمة الاجتماعية في جميع المستشفيات والمراكز الصحية في دائرة مغلقة في نظام كمبيوتر موحد للخدمة الاجتماعية الطبية .

4ـ تساؤلات الدراسة :

انطلاقا مما سبق فإنه يمكن تحديد التساؤلات ؟

- هل يمكن استخدام التكنولوجيا الحديثة في مجال العمل الاجتماعي؟
- هل يمكن أن تقدم الحاسبات الآلية المساعدة للخدمة الاجتماعية في أداء رسالتها؟

الإرادة.

وهذه المظاهر الثلاثة متصلة ببعضها كل الاتصال. وللشعور مراتب مختلفة هي :

أ- الشعور الظاهر.

ب- اللاشعور (Unconsciousness) ويتضمن الميول والرغبات المكبوتة.

ج- ما قبل الشعور (Pre-consciousness) ، وهو كل ما يمكن وراء الشعور مباشرة، ويمكن للفرد استحضاره من آراء ، ويعتبر مرحلة متوسطة بين الشعور واللاشعور.

ويشير قاموس الخدمة الاجتماعية إلى الوعي بأنه ذلك الإدراك الفكري الذي يتركز في العقل ، ويكون في موقع متوسط بين البيئة (Environment) من جانب ، والمشاعر (Feeling) ، والأفكار (Thoughts) من الجانب الآخر.

ويقرب تحديد الوعي أو الإدراك عند الإمام (الرازي) إلى التحديد العلمي الحديث من حيث الربط بين عملية الإحساس والتعقل ، فهو يقول: « إن العين ترى»، ويقوم العقل بتفسير التأثيرات الحسية ويصدر الحكم ، وأننا ننظر لعمل العين عملا كاملا ، إذا صحبته البصيرة - أي إذا جاء التعقل بعد عمل العين. وهناك علاقة واضحة بين الوعي والمشاركة ، حيث إن ارتفاع مستوى وعي المواطن بظروف المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتكنولوجية، وهي من أهم العوامل التي تدفعه للمشاركة الفعالة. (النماس،2000) [8]

أما عن التكنولوجيا فهي في أبسط تعريفاتها «**النتائج التطبيقية للعلم**»، وهي مجموعة الوسائل المستخدمة لتوفير ما يلزم لمعيشة البشر وراحتهم ، والتكنولوجيا تُعَدُّ نتاجًا اجتماعيًّا ، لا تنقل من مجتمع إلى آخر ، والتكنولوجيا ليست خيرًا خالصًا باستمرار ، وليست شرًّا مستطيرًا على طول الخط ، وإنما يتوقف ذلك على الإنسان صانع هذه التكنولوجيا ومكتشفها ومستخدمها ، فهي في النهاية أداة ، ولكن إن

بشكل سريع ودقيق وصولا إلى أهداف محددة ، ويتم تغذية هذه الأجهزة بتعليمات حول كيفية معالجة تلك الرموز؛ لإخراج النتائج المطلوبة ـ والحاسوب الآلي جهاز ابتكره الإنسان ـ شأنه شأن المخترعات الأخرى ليساعده على أداء بعض الأعمال ، وفي تحسين أدائها بصورة أفضل ، والكمبيوتر ليس عقلا ، كما أنه لا يستطيع أداء أي عملية بدون توجيه من قبل الإنسان. (Abels,1972)[5]

ب- الخدمة الاجتماعية الطبية :

الخدمة الاجتماعية هي مجموعة المجهودات الاجتماعية الموجهة إلى مساعدة الطبيب في تشخيص بعض الحالات المتضمنة للعنصر الاجتماعي والنفسي ، وفي رسم خطة علاجية ، وإلى تمكين المرضى من الاقتناع بالعـــلاج المقدم لهم ، واسترداد وظائفهم الاجتمـــاعية ، وذلك بإزالة العوائق التي تعترض طريق انتفاعهم من الفرص المهيأة ، وتمهيد الظروف للانسجام مع المجتمع بعد الشفـــاء. (Brier, 1974) [6]

ج ـ المؤسسة الصحية :

هي هيئة طبية تهدف إلى تقديم الخدمات الصحية الطبية والرعاية الصحية الأولية والاجتماعية والعلاجية والوقائية لأفراد المجتمع ، من خلال خدماتها في بيئة جغرافية معينة ، ويدير هذه المؤسسات أشخاص متخصصون في عملهم ودرجاتهم العلمية من الأطباء والممرضات والفنيين والأخصائيين في مختلف التخصصات العلاجية .(عثمان ،2001) [7]

د ـ الوعي التكنولوجي :

يشير البعض إلى أن الوعي (Consciousness) يعني إدراك الفرد لذاته ولمصالح طبقته الاجتماعية ، ويرى قاموس المصطلحات الاجتماعية أن الوعي هو إدراك المرء لذاته ، ولما يحيط به إدراكًا مباشرًا وهو أساس كل معرفة ، ويمكن إرجاع مظاهر الوعي والشعور إلى ثلاثة، وهي : (1) الإدراك والمعرفة ، (2) الوجدان ، (3)

والجهد المتواصل، والتقنية الحديثة التي منها الاعتماد على جهاز الكمبيوتر التي تطفر طفرات سريعة قد يتخيل العقل الإنساني أنه لا يمكن ملاحقتها في ثورة تكنولوجيا العصر. (بصبوص،2002) [11]

ومن هنا كان لا بد من الإعداد الجيد والمستمر والمتطور للأخصائيين الاجتماعيين في المجال الطبي؛ لمواكبة العصر من ناحية، ومشاركة أبنائهم من فريق العمل داخل المؤسسة الصحية من ناحية أخرى، ومن ناحية تطور العمل بما يعطي من مردود جيد للوظيفة أولا، وللشخص المستخدم لهذه التكنولوجيا الاحترام، والانفعالية لزمن أصبح يعتمد كليا على تقنيات تكنولوجيا بشكل كلي. (Lamsc,1982) [12]

ثانيا : نوع الدراسة والمنهج المستخدم :

تُعَدُّ هذه الدراسة من الدراسات الاستطلاعية (كشفية) لمجتمع الأخصائيين الاجتماعيين الطبيين العاملين في المؤسسة الصحية ، لمعرفة وتفسير العلاقة بين دور الأخصائي الاجتماعي الطبي، وبين تقنيات وأسرار جهاز الكمبيوتر ، ولقد استخدمنا منهج المسح الاجتماعي الشامل على عينة الدراسة، وعددها (120) من الأخصائيات والأخصائيين الاجتماعيين العاملين في المجال الطبي من خلال المناطق الصحية الست بدولة الكويت.

ثالثا: أدوات الدراسة :

أما أداة الدراسة لجمع البيانات اللازمة للإجابة عن تساؤلات الدراسة فتم استخدام أسلوب الاستبانة التي قام الباحث بتصميمها ، ومن ثم عرضها على عدد من المتخصصين في هذا المجال ، وبعد ذلك تم اختبارها على مجموعة من أفراد العينة من رؤساء أقسام الخدمة الاجتماعية الطبية؛ للتأكد من سلامتها، وسهولة فهمها، وتطبيقها مع أخذ الملاحظة والمقابلة في جميع الأقسام؛ للوقوف على طبيعة

تحولت إلى سيد أو ديكتاتور، وإذا سيطرت التكنولوجيا على الإنسان فإن ذلك يشكل خطراً مستخدمًا عليه وعلى حياته.

ومن خلال ما سبق فإن الباحث يرى أن «**الوعي التكنولوجي**» مصطلح مستحدث ظهر بانتشار نقل التكنولوجيا إلى مختلف بلدان العالم النامي من المجتمعات التي نشأت فيها، والتي لم تصل إليها من فراغ ، وإنما من خلال ركائز أساسية مهمة من بينها الوعي التكنولوجي ، لذا فإن الوصول لتحديد مفهوم واضح للوعي التكنولوجي أصبح ضرورة فرضتها الظروف المعاصرة والتغيرات العالمية الجديدة ، والوعي التكنولوجي في إطار هذا البحث نرى أنه «**حالة من الإدراك الفكري**» تقوم على إحساس الخدمة الاجتماعية بإيجابيات وسلبيات التطور التكنولوجي لجهاز الكمبيوتر ، ومن ثم العمل على تطويع برامج الخدمة الاجتماعية على تقنيات وتطبيقات جهاز الكمبيوتر لمساعدة الأخصائي الاجتماعي على تطبيق نماذجه العملية في المجال الطبي بما يخدم عمله ويربط تطوير العالمي في مجال التقنيات والاتصالات الحديثة بمهنته. (Smith,1980) [9]

هـ ـ الممارسة المهنية :

عبارة عن تكوين الشخصية المهنية للأخصائيين الاجتماعيين ، وذلك بتعليمهم أساسيات المهنة وتدريبهم وإكسابهم لاتجاهات سليمة في مجال التفاعل الوظيفي للمهنة بما يتناسب مع الجديد في مجال العمل ، والاستعداد للمسئوليات التي يقابلها التعليم المهني ومن المسلم به أن أي مهنة لا بد من إعداد ممارسين لها؛ ليؤدوا مسئولياتهم بدقة ومهارة.(Bryan,1985) [10]

والإعداد المهني لا ينتهي بمجرد تسلم العمل ، بل لابد له من استمرارية التطوير لتحقيق مكانة مرموقة بين فئات العاملين في المؤسسات ، ويتضمن الإعداد الجيد

صحي منظم حسب خطة الوزارة ، وتشمل هذه المناطق الست (16) قسمًا من أقسام الخدمة الاجتماعية المنتشرة في هذه المناطق الصحية ، ويعمل بها عدد يبلغ (18) أخصائيا اجتماعيا الى جانب (102) أخصائية اجتماعية ، حيث تبلغ نسبة الإناث 85٪ من النسبة الإجمالية لعددهم ، أما الذكور فتبلغ نسبتهم (15٪) وهي القوى العاملة بهذه المناطق الصحية. ويمكن توضيح ذلك من خلال الجدول الآتي :

الجدول رقم (1)

يوضح مجموع الأخصائيين والأخصائيات الاجتماعيين :

م	العاملين	العدد	النسبة
1	عدد الأخصائيين الاجتماعيين (الرجال)	18	%15
2	عدد الأخصائيات الاجتماعيات (الاناث)	102	%85
	المجمـــــــــــوع	**120**	**%100**

وحسب التوزيع العددي لفئات الأخصائيين الاجتماعيين المختلفة نجد أن (120) أخصائي وأخصائية اجتماعية ، فإن نسبة التوزيع كانت أعلى نسبة وتبلغ حوالي (41٪) في منطقة الصباح التخصصية ، وهذه ترجع إلى كثرة المراكز والمستشفيات التخصصية والتي يصل عددها إلى (10) مراكز صحية متخصصة، وهذه هي التي يزيد فيها أعداد الأخصائيين الاجتماعيين .(إدارة الخدمة، 2002)[13]

أما بالنظر إلى منطقة حولي الصحية ، وهي الثانية في عدد الأخصائيين الاجتماعيين فترجع إلى الكثافة السكانية في هذه المنطقة ، وعلى هذا الأساس من التوزيع تم تطبيق الاستبانة في المناطق الصحية الست لهذه الدراسة (انظر الجدول رقم: 2) لتوضيح الجوانب فيه.

الأداء والوعي العلمي لهذه المجموعة على أجهزة الكمبيوتر ، ثم تحليل البيانات وتبويبها وتقييمها؛ للوصول إلى مصداقية الاستبانة.

■ مجالات الدراسة :

أ. **المجال البشرى : الوحدة** الأساسية للمجتمع الأصلي لهذه الدراسة هي الأخصائي والأخصائية الاجتماعيين العاملين في المجال الطبي، والتي تم تطبيق هذه الدراسة عليهم ، والذين يبلغ عددهم (120) أخصائيا وأخصائية اجتماعيين في المجال الطبي في الكويت، بنماذجهم وتطبيقاتهم العلمية المهنية الموجودة في مكاتب الخدمة الاجتماعية من خلال سجل البيانات التي تخص عمل جميع الأخصائيين الاجتماعيين العاملين في المؤسسة الصحية.

ب - **المجال المكاني : تحدد** المجال المكاني لهذه الدراسة على مستخدمي أجهزة الكمبيوتر في جميع مكاتب الخدمة الاجتماعية الطبية ، العاملين في المؤسسة الصحية في المناطق الصحية الست في دولة الكويت، وهي : (العاصمة ـ حولي ـ الفروانية ـ الأحمدي ـ الجهراء ـ الصباح التخصصية).

ج - **المجال الزمني : تم** أخذ فترة الدراسة خلال الشهور التسعة الأولى من إدخال نظام العمل على الكمبيوتر في أقسام الخدمة الاجتماعية الطبية من 1 / 6 / 2002 م إلى 28 / 2 / 2003 م.

2- مجتمع الدراسة :

قبل البدء بهذه الدراسة تم تحديد عدد المناطق الصحية، أو عدد أقسام الخدمة الاجتماعية فيه التي دخلت ضمن التطبيق الفعلي للدراسة من حيث عددها (6) مناطق صحية تعمل في مجال المؤسسة الصحية ـ في دولة الكويت ، ولها إشراف

الأخصائيين لهم دلالة على الاهتمام والمعرفة المسبقة بأسرار استخدام الجهاز ، ولأن أغلب المواطنين في دولة الكويت يمكنهم بسهولة الحصول على الجهاز، وحسب إحصائية بسيطة فهناك حوالي (25000) جهاز كمبيوتر في الكويت عام (2002م)، وهي (متنوعة من عدة شركات) ، أما نسبة (25٪) من عدم المعرفة والتي تمثل عدد (30) من الذين لم يستخدموا الكمبيوتر ، فذلك يرجع غالبا إلى عدم المعرفة المسبقة بالجهاز، أو الخوف من عدم فهمهم، أو إدراكهم خطوات الجهاز ، أو أنهم لم يبذلوا الجهد؛ للتعرف عليه، أو الدخول إلى عالمه ، على الرغم من وجود دورات مجانية لوزارة الصحة لهذه الأجهزة وأسرارها ، وتعطى لجميع الأخصائيين الاجتماعيين بلا استثناء .

ولكن القدرات العلمية والعملية هي التي تحكم عملية فهم الجهاز . وتم من خلال دراستنا هذه أخذ عينة من (120) من الأخصائيين والأخصائيات الاجتماعيين العاملين في المناطق الصحية المختلفة، وهي تكون النسبة شاملة الجميع في مجتمع الدراسة . (انظر الجدول رقم 3) .

الجدول رقم (3)

السؤال	الإجابة	%
نعم	90	75
لا	30	25
المجموع	120	100

■ **الجدول يوضح عدد الذين لديهم خبرة في استخدام الكمبيوتر**

فقد سبق أنْ قامت الخدمة الاجتماعية بتطبيق النماذج الجديدة للخدمة الاجتماعية منذ عام (1999) وتوحيدها في جميع أقسام الخدمة الاجتماعية الطبية

الجدول رقم : (2)

يبين المناطق الصحية وعدد الأخصائيين الاجتماعيين في المناطق الصحية حسب العدد.

الرقم	المنطقة الصحية	عدد الأخصائيين الاجتماعيين
1	العاصمة	8
2	الجهراء	16
3	الاحمدي	16
4	حولي	18
5	الفروانية	13
6	الصباح	49
	المجمـــــوع	120

يمكننا توضيح هذا الجدول بأعداد الأخصائيين الاجتماعيين العاملين بكل منطقة صحية ، وهذا يعتمد أولا على الكثافة السكانية، وثانيا على مستوى الخدمات الموجودة بها، وثالثا على عدد الأجنحة والعيادات المتخصصة ، والتي كلما زادت أعدادها زاد الأخصائيون الاجتماعيون العاملون بها لتقديم أفضل دور مهني للخدمة الاجتماعية الطبية.(وزارة التخطيط ،2001)[14]

من خلال تحليل نتائج الدراسة فقد وجد أن بيانات الجدول رقم (3) تشير إلى أن هناك معرفة علمية مسبقة بالكمبيوتر في دولة الكويت من خلال توافرها في كل مؤسسات الدولة ، وحاولنا في بدء تطبيق الدراسة العمل على أن يوجد جهاز واحد على الأقل في أي قسم من أقسام الخدمة الاجتماعية الطبية كبداية لتطبيق الدراسة عليهم ، على الرغم من أن أغلب الأخصائيين الاجتماعيين في الكويت لهم معرفة مسبقة باستخدام الأجهزة ، فقد وجد أن (90٪) وهي تمثل نسبة (75٪) من

أما بالنظر إلى حوالي (110) من العاملين الذين اشتركوا في التطبيق، واستخدام البرنامج قبل تطبيق الاستبانة عليهم ، فكانت حوالي (91,07٪). أما حوالي (10٪) من غير المطبقين للاستمارات في المناطق الست ، فكان أغلبهم من الذين كانوا في فترة إجازات سنوية ، أو إجازات مرضية ، أو بعضهن من الأخصائيات الاجتماعيات في حالات (ولادة) أي إجازة وضع ، أما الباقي فقد طبق التعليمات، واشترك في التدريب على جهاز الكمبيوتر، وعلى تطبيقات النماذج الخمسة لمجموعة عمل الخدمة الاجتماعية. انظر الجدول رقم (5)

الجدول رقم (5)

السؤال	الإجابة	%
نعم	110	91.7
لا	10	8.3
المجموع	120	100.0

■ **الجدول يوضح عدد الذين تم تدريبهم على استخدام نماذج التطبيقات على جهاز الكمبيوتر**

كما لوحظ أنه من خلال تطبيقات عمليات الكمبيوتر لنماذج الخدمة الاجتماعية، قد سبق تطبيق الاستبانة لكن دون جهاز الكمبيوتر ، وهذا يعطي دلالة على فهم النماذج مسبقا.

من خلال المقابلة ثبت أن الجميع أخذ دورات تدريبية مكثفة ، ومن هنا فإن نسبة (113) من إجابات الأخصائيين الاجتماعيين، والتي كانت تمثل (94,2٪) من المستخدمين الذين قد سبق أن طبقوا كل النماذج في التدريب ، ومن هنا كانت نسبة الإجابة مرتفعة وسهلة؛ لاستخدامهم النماذج في أعمالهم مسبقا ، وقد وجدنا (10)

واعتمادها في إدارة الصحة الاجتماعية، وطبع منها حوالي (50,000) ألف نموذج، وتم التدريب على هذه النماذج، وهي مستخدمة بشكل متواصل دون الإخلال بها ، وهي ضمن متطلبات العمليات المهنية الملزمة للجميع ، ومتوافرة في جميع أقسام الخدمة الاجتماعية الطبية في وزارة الصحة ، أما بخصوص ما ذكر أن (1,7٪) من عدم معرفتهم فإنها ترجع إلى أن بعض هذه النماذج التي قد لا يستخدمها، أو عدم معرفته لتحديد أهميتها مثل النماذج التي تخص بتحويل الطبيب العميل في حالة استدعاء الأخصائي الاجتماعي، لأنّ أغلبهم يستعجل الاستناد إلى ورقة المريض المحول، دون الرجوع إلى الورقة الخاصة بالأخصائي الاجتماعي الطبي، مما يعطل أحد النماذج المستخدمة للخدمة الاجتماعية الطبية. انظر الجدول رقم (4) .

الجدول رقم (4)

السؤال	الإجابة	%
نعم	118	98.3
لا	2	1.7
المجموع	120	100

■ الجدول يوضح تطبيقاتهم العلمية على أجهزة الكمبيوتر لعمليات الخدمة الاجتماعية

وخلال تحليل نتائج الدراسة استخدام على تطبيقات النماذج، فقد تم إعطاء دورات منظمة لجميع مكاتب الخدمة الاجتماعية الصحية ، وعلى أن يشترك جميع الأخصائيين والأخصائيات في عملية التدريب تحت إشراف متخصص في عملية البرمجة ، وبقرار وزاري لتعليم النماذج، وتطبيقها على الكمبيوتر المتخصص، والتي سبق وأن وضع فيها البرنامج للعمل.

التدريب ، يرجع إلى :

1 ـ عدم الإلمام حتى الآن بموقع أزرار (Key Board) بشكل سليم.

2 ـ عدم سرعة اليد على استخدام الكمبيوتر .

3 ـ الخوف من استخدام زر بالخطأ .

4 ـ الرهبة النفسية من الدخول إلى الجهاز .

أما حوالي (4,2٪) من المستخدمين للجهاز فقد كان الخوف من مواجهة عمل الجهاز ، وعدم معرفة أسراره، وهم من الذين ابتعدوا عن القبول، أو حتى الاستفادة من الجهاز بعملية التكرار في التدريب.

الجدول رقم (7)

السؤال	الإجابة	%
نعم	100	83.3
لا	15	12.5
أحيانا	5	4.2
المجموع	120	100

■ **الجدول يوضح إجابة الذين استفادوا من تطبيقات العمليات المستخدمة في أجهزة الكمبيوتر**

وقد ينشأ كثير من المخاوف بين الأخصائيين الاجتماعيين من استخدام الكمبيوتر؛ لما يقتضيه من حتمية الحاجة إلى مزيد من التعلم والمعرفة، وأخذ نوع من التدريب المتواصل على أسرار الجهاز ، ومن خلال النتائج الموضحة بالجدول، فقد وجد أن الإجابات هي (80٪) منهم، وهذا يعادل حوالي (66,7٪) من المستخدمين لا يشعرون بهذا الخوف ، وعند الاستفسار وجدنا أن أغلبهم قد سبق وأن عمل على الجهاز في تطبيقات حياته اليومية ، ومن ثَمَّ لم يكن هناك خوف من استخدام

من الأخصائيين الاجتماعيين ، والتي تمثل حوالي (8،3٪) هم الذين لم تحالفهم الأوقات المناسبة بعد العودة من الإجازة إلى العمل، ودخول البرنامج لأمور إدارية خاصة ، ولذلك كانت إجابتهم عدم القدرة العملية على التطبيق الفعلي للنماذج على الجهاز ، وحتى يتسنى لهم دخول دورة تدريبية جديدة على البرنامج ومحتوياتها مرة اخرى لزيادة قدرتهم العلمية ومهارتهم العملية.

الجدول رقم (6)

السؤال	الإجابة	%
نعم	113	94.2
لا	7	5.8
المجموع	120	100.0

■ **الجدول يبين عمليات البرامج المطبقة في تفاعيل مهام الأخصائي الاجتماعي الطبي**

أما مدى الاستفادة الواردة من إدخال نماذج عمل الأخصائيين الاجتماعيين في المجال الطبي على أجهزة الكمبيوتر للتطبيقات اليومية ، ومدى استخدامهم لهذه النماذج فإن هناك حوالي (83،3٪) من المستخدمين أجابوا بالفائدة التي يمكن الحصول عليها ، ومن خلال المقابلة على تطبيقات النماذج كانت الملاحظة هي أن وجود أو امتلاك الجهاز في إدخال البيانات في مرحلة التطبيق من برنامج إلى آخر فكانت تتم بسهولة في الأداء ، حتى أنه أمكنهم مراجعة الكلمات والمعلومات المكتوبة بكل بسهولة ويسر، وتم تحصيلها في وقت قياسي ، أما أن حوالي (12،5٪) من الإجابات قالوا (لا) يمكنهم الاستفادة من عمل النماذج ، فقد وجدنا أن صعوبة عدم فهمهم لتطبيقات الجهاز والإدراك والتكرار في استخدام الأزرار (Key Board) ومكانها ، وكان السبب في عدم الاستفادة من أجزاء الجهاز بشكل سليم في عمليات

فأرجعت أنهم لم يحددوا الأوقات المناسبة لاستخدام الجهاز فكانت في أوقات زحمة العمل، أو زيادة أوقات المرور اليومي على الأجنحة .

الجدول رقم (9)

السؤال	الإجابة	%
نعم	95	79.1
لا	20	16.7
أحيانا	5	4.2
المجموع	**120**	**100.0**

■ **الجدول يوضح الرأي بالنسبة لجهاز الكمبيوتر الذي أصبح مكملا لعمل الأخصائي الاجتماعي**

قد يكون من الأهمية بمكان أن يحاول العاملون في مجال الخدمة الاجتماعية الطبية فهم اختيار الحاسب الآلي أنه أصبح جزءا من العمل اليومي ، ومن ثَمَّ يمكنهم التعامل معه كمشغل يومي لهذه الأجهزة ، حتى يكون لموقع الكمبيوتر أهمية في عمله ، ومنها العمل على تقليل نسبة الأخطاء إذا اعتمدنا في فهم الجهاز فهنا سوف تكون الأخطاء قليلة نسبيا ، وقد تكون لأهمية العمل وسهل مستقبلا ، وكما وجدنا في نسبة (62,5٪) من الذين طبقت عليهم الاستبانة ، قد اتضح لهم مكان الأخطاء في عملهم وقد أدركوا مواقعها، ومن ثَمَّ تم تصحيحها ، ولكن نسبة (8,3٪) من الذين قالوا أحيانا هناك أخطاء فإنها ترجع إلى عدم الاهتمام في تحديد الأوقات المناسبة للجلوس إلى الجهاز، والتعامل معه، وتوثيق البيانات التي يستخدمها في عمله بشكل سليم ، كما أن حوالي (29,2٪) قالوا لا يمكن الاستفادة من استخدام هذا الجهاز في عملنا بشكل كلي (انظر الجدول رقم: (10) ، وهذه النسبة ترجع إلى أن هؤلاء لم يبدءوا في تنظيم أوقاتهم، أو رغبتهم في التعلم بشكل

الجهاز ، ولكن وجدنا أن هناك (30) من مجتمع الدراسة، وهذا العدد يمثل حوالي (25٪) من المستخدمين، والمشتغلين لأول مرة على التطبيقات العملية في الوظيفة ، فكان الخوف من أخطاء عدم فهم النماذج، وطريقة استحضاره الملف من قاعدة البيانات داخل الجهاز ، وحوالي (10) من أفراد العينة وتمثل حوالي (3, 8٪) ، فكانت ترجع إلى عدم استخدامهم لأي جهاز مسبق، أو التعرف عليه قبل استخدامهم، وهذا طبيعي جدا، وهذا مما أشعرهم بالخوف والرهبة من معرفة التطبيقات، أو الدخول، أو الخروج من البرامج فكانت المخاوف مسيطرة عليهم (انظر الجدول رقم 8).

الجدول رقم (8)

السؤال	الإجابة	%
نعم	30	25
لا	80	66.7
أحيانا	10	8.3
المجموع	120	100.0

■ **الجدول يوضح مشاعر الخوف من العمليات اليومية من خدمات الجهاز**

كما أن هناك مقولة معروفة في عالم الكمبيوتر، تقول إذا أدخلت في الكمبيوتر نفايات فسوف تخرج لك من الكمبيوتر نفايات أيضا ، وهذه العبارة يمكن ملاحظتها هنا ، وهي هل يمكن أن يكون الجهاز مكملا لعمل الأخصائي الاجتماعي الطبي في المؤسسة الصحية في حالة استخدام النماذج والبيانات العملية والصحية والاستفادة منها، فكان رد حوالي (7, 16٪) أنهم لم يستفيدوا من الشرح ، ولم يدركوا التطور التكنولوجي للجهاز ، وكيفية تطويره الجهاز لخدمة عملهم ، فكانت حوالي (2, 4٪)،

■ **الجدول يوضح نسبة الأخطاء في عمل الأخصائيين الاجتماعيين الطبيين**

■ **نتائج الدراسة :**

من خلال هذه الدراسة، نجد أنّ الخدمة الاجتماعية لها أدواتها المهنية التي تستخدمها في تعاملها مع العميل ، وتلزم التطبيق السليم لهذه العمليات، والتي منها عملية تسجيل النماذج من خلال البيانات الأساسية في عمله المستصغاة من سجل العميل.

من هنا، فإن نتائج الاستمارة والتطبيقات كان هدفها تحقيق معرفة علمية من خلال استخدامات جهاز الكمبيوتر في مجال تطبيق عمل بيانات العملاء ، الخدمة الاجتماعية عن طريق العنصر البشري وهو الأخصائي الاجتماعي ، وكانت النتائج أن التطبيقات العملية لنماذج عمل الخدمة الاجتماعية المرتبطة بإدخال هذه البيانات من ضمن عمل التدخل المهني الذي يحقق بما يتفق ومساعدة العميل لتحقيق عمل الأخصائي الاجتماعي الطبي من خلال المؤسسة الصحية بالنقاط الآتية:

1. استخدام الكمبيوتر كان من التطبيقات السهلة لجميع المستخدمين من الأخصائيين الاجتماعيين ، فقد وجد أن حوالي (75٪) منهم سبق وأن استخدموا أو عملوا على عمليات الأساسية للجهاز ، أما بالنسبة إلى نقاط الربكة والخوف كان بعيدا عنهم نسبيا، وذلك للخبرة السابقة في كيفية معرفة عمل جهاز الكمبيوتر.

2. وجد أن النماذج وتطبيقات عمل الخدمة الاجتماعية الطبية كانت معروفة للغالبية منهم بنسبة (93,3٪) ، حيث سبق تعاملهم وتطبيقاتهم بشكل يومي على استخدام هذه النماذج. ولذلك كانت عملية وجودها على شاشة الكمبيوتر معروفة مسبقا ومدركة لخطواتها وأعدادها وتطبيقاتها بشكل معلوم ومدرك بالنسبة لهم.

3. بخصوص عملية التدريب على كيفية الدخول إلى البرامج ومعرفة أنواع

سليم في أثناء التدريب مع الواقع الفعلي لاستخدامات هذه الأجهزة في مجال عملهم التي تضمنت تصحيح أساس التطبيقات لهذه النماذج العملية ، والتي سوف تعمل على مساعدة الأخصائي الاجتماعي في عمله في المرحلة القادمة بعد ربطها بشكل موحد في جميع أقسام الخدمة الاجتماعية بما يتناسب وحجم العمل ومدركات التعامل مع الجهاز والجمهور ، بما يخدم عمل الأخصائي الاجتماعي في تعامله مع العميل (المريض). وتقديم الخدمات لحل مشكلته ، ومن ثَمَّ مساعدة الجهاز لهذه الأدوار التي يلعبها في المؤسسة الصحية ، مما يعطي جهدًا واضحًا لعمل الأخصائي الاجتماعي في عمله مع العميل وأسرته ، وكذلك يسهل من عدد ملفات وأوراق التسجيل الخاصة لكل حالة ، ومنها يمكنه ترتيب عمله اليومي بشيء من التنسيق والترتيب ، في ملف موحد تحت رقم موحد ، وهذا يسهل كثيرا من عمله ، ومن ثَمَّ ينجز العمل في فترة زمنية مناسبة ومحددة ، حتى يمكننا التحول إلى حالات وصفحات جديدة منظمة في عمله من خلال ما يلي :

1- سجل لكل عميل.
2- البرامج والأنشطة للعمل في القسم.
3- المساعدات العينية.
4- المواعيد والزيارات.

أي جميع الأعمال المنوطة إليه كأخصائي اجتماعي في ملف واحد على شبكة الحاسب الآلي مربوطة في دائرة مغلقة تخدم عمله المهني والمؤسسي.

الجدول رقم (10)

السؤال	الإجابة	%
تصحيح الأخطاء	75	62.5
عدم تصحيح الأخطاء	35	29.2
لم يدركوا الأخطاء	10	8.3
المجموع	120	100.0

الأخصائي الاجتماعي من الأجنحة إلى المكتب الذي يوجد به الجهاز ، وتكرار عملية الذهاب والعودة بين طرقات المستشفى كانت من الأسباب التي أعطيت في عدم الاستفادة، وهم بحاجة إلى تنظيم وقت أكثر على الجهاز وعمل التطبيقات المتكررة وبصفة دائمة.

6. أما مسألة الخوف والارتباك فإن مصدرها عدم الإلمام بالتعليم والمعرفة بأسرار الجهاز بشكل تعطي علاقة ترابطية بين الأخصائي وجهاز الكمبيوتر ، وكذلك تكرار عدم استخدام هذه التطبيقات والمعلومات في فترات متكررة ، فإن الخوف من إعطاء أي إشارة للجهاز قد يترتب عليها مسح جميع البيانات أو تغير مسار البرامج ، كما أن عدم التدريب الكافي يشكل الرهبة جزءا من هذه العملية والتي بينها حوالي (4,2٪) منهم في الاستبانة ، إلى جانب ذلك فقد وجد أن حوالي (12,5٪) منهم أرجعوا الخوف إلى أن تعودهم لتطبيق النماذج العملية بطريقة يدوية ولفترات طويلة فقد كانت أفضل نسبيا للشطب والمسح، وذلك لعدم قدرتهم على التأقلم مع الجهاز في مفرداته ، وقد كان هذا مصدرا للمخاوف من التعامل مع الجهاز بشكل سلبي، ومع عدم التقبل لمعرفة الأسرار والخطوات العملية والتطبيقية لجهاز الكمبيوتر ، ومع هذا فقد وجد أن (66,7٪) منهم كانت المخاوف لا وجود لها في عملية تطبيق البرامج على جهاز الكمبيوتر، بل العكس كانت سهولة الحصول على البيانات ، ومن ثم إدخالها وإعادة برمجتها كان من أسهل الخطوات التي بدأت معهم.

7. أما بخصوص التدريبات العملية ووضع الجهاز في مكتب الخدمة الاجتماعية الطبية، وربطها بدائرة مغلقة ضمن النظام الصحي المعمول به في المؤسسة الصحية بدولة الكويت ، يمكننا أن نقول - من خلال التطبيقات على نماذج عمل الأخصائي الاجتماعي: إنَّ نسبة حوالي (69,1٪) منهم أبدوا تجاوبا ملحوظا مع الجهاز ، وأبدى الكثير منهم من خلال المقابلة أن وجود الجهاز داخل مكتب الخدمة

البرامج المتعلقة بالخدمة الاجتماعية في المجال الطبي ، فقد وجد إنّ حوالي (91,7٪) منهم خضع لعملية التدريب المسبقة في فهم الجوانب المختلفة للبرنامج ، كما وأنّ إعطاءه البيانات تفصيلية بخطوات مكتوبة ومحددة لكيفية الوصول إلى البرامج للمساعدة على تتبع هذه الخطوات ، كما وجد أن نسبة (8,3٪) من الإجابات لم تفهم خطوات التدريب بشكل صحيح؛ لذلك كانت أخطاؤهم كثيرة ، أما الغالبية منهم الذين لم يسعفهم الوقت أو المتابعة في مواصلة البرنامج التدريبي فكانت راجعة لكثرة تغيبهم عن هذه الدورات ، كما وجد أن بعضهم كانوا في إجازات سنوية وقت تطبيق التدريب على هذه الاستمارات ، ولم يعتمدوا كثيرا على هذه التطبيقات بشكل مكثف، وهم يشكلون حوالي (5,8٪) من الإجابات.

4. كما وجد أن حوالي (94,2٪) منهم قبل الدخول إلى التطبيقات الفعلية لهذه البرامج ، قاموا بمحاولات تدريبية مكثفة لهذه النماذج التطبيقية ، وذلك لمعرفة الجوانب التي تتعلق بهذه التطبيقات ، وتحديد العوائق المتعلقة بخطوات الدخول والخروج والى أنماط البرامج والاستخدامات عن طريق تطبيق التعلم بالخطأ والصواب.

5. أما مدة الاستفادة الواردة من إدخال الكمبيوتر في مجال عمل الأخصائيين الاجتماعيين لتطبيقاتهم اليومية ، فكانت الإجابة واضحة بالنسبة لهذا السؤال من خلال نسبة حوالي (83,3٪) منهم، كانت الاستفادة واضحة من خلال اختيار الوقت المناسب ، وكذلك السهولة في إيجاد الوقت الذي يمكن من خلاله استخدام عملية التسجيل (Registration) اليومي ، وفي إدخال البيانات وحفظها بشكل جيد وسهل ، كما أنه سهل عملية حفظ البيانات والرجوع إليها في أي وقت من أوقات الدوام الرسمي، أو اختيار وقت الفراغ عن طريق العودة إلى ملف قاعدة البيانات للعميل بسهولة ، وكما وجد أن حوالي (12,5٪) أعطى عدم الاستفادة من الجهاز، وعند تسجيل هذه الملاحظة وجد أنها ترجع إلى المشوار الطويل الذي يقطعه

ومن خلال هذه الدراسة فإن النتائج العملية لتطبيق النماذج وتطبيقات واستخدامات عمل الخدمة الاجتماعية الطبية من خلال جهاز الكمبيوتر التي أدخلت إلى العمل الفعلي للخدمة الاجتماعية الطبية في وزارة الصحة لدولة الكويت وأدت إلى نجاح التجربة مع تسجيل الملاحظات التي أرفقت خطوات تطبيقها من خلال إعادة تسجيل بعض البيانات والنماذج والخطوات العملية والتي يتطلب زيادة فترات التدريب والتركيز على اختيار البرامج والعمليات المهنية من خلال مواصلة الاستفادة من جهاز الكمبيوتر ، كما أن اختيار الأوقات المناسبة للدخول والخروج من مركز المعلومات مهمة بالنسبة للأخصائي الاجتماعي. وإعادة النظر إلى تسجيل وحفظ الملف الخاص بكل عميل برقم موحد ، كما أن استخدام (ID) لمكتب الخدمة الاجتماعية و(Password) الخاص لكل أخصائي اجتماعي مفيد لعملية الدخول والخروج ، وتغير البيانات والاطلاع على ملف العميل بحيث يوضع في الحسبان قوانين ولوائح الخدمة الاجتماعية ، حتى لا يتم اختراق معلومات الأخصائي الاجتماعي الطبي ، ومن ثَمَّ مكتب الخدمة الاجتماعية الطبية ، وتكون نتائج إدخال الكمبيوتر عاملاً مساعداً لمكتب الخدمة الاجتماعية أدت إلى أنها أصبحت تساير التطور العملي في عملية الاتصال بشكل يتفق والتطور العلمي التكنولوجي في العالم. وتكون الخدمة الاجتماعية الطبية خطت خطوات علمية وفق الحكومة الالكترونية.

انطلاقا مما سبق من تحليل بيانات الاستبانة ، يمكننا أن نقول: إنَّ هذه الدراسة توصلت إلى أن الهدف العام من مدى استفادة الأخصائي الاجتماعي في المجال الطبي من مهام الدور المساعد للحاسب الآلي في عمله ، وقد يحقق وفق الإجابات ، كما أنه يحقق تساؤلات الدراسة من خلال الاستفادة من التكنولوجيا الحديثة في عمل الخدمة الاجتماعية . وفي مدى تحقيق أهداف المهنة والرقي إلى المستويات المتقدمة. ولقد لقي دخول الحاسب الآلي إلى عمل الخدمة الاجتماعية كل الرضا والقبول والإحساس بالانتقال من العمل اليدوي إلى مجاراة النقلة النوعية في حفظ

الاجتماعية يسجل تطورا مهنيا لعملهم وفق المنظور التطوري لخدمات الخدمة الاجتماعية ، وكذلك فإنه يسهل عمل الأخصائي الاجتماعي الطبي في الرجوع إلى ملف العميل (Client) ، كما أنه يحفظ ملف العميل من التلف والضياع ، كما وجد في السؤال أن نسبة (16,7٪) من الإجابات عدم القدرة على التطبيقات ترجع إلى عدم وجود جهاز في الفترات السابقة في مرحلة التدريب ، وهذا يرجع إلى عدم تقبله اعتماده على فهم الجهاز وعدم تطبيق خطوات التدريب واستخدام الجهاز بشكل سليم ، ومن خلال المقابلة ، فإن هذه الفئة تعتقد أن هذا الجهاز غير مفيد لعمل الأخصائي الاجتماعي ، وعدم الرغبة في تعلم الجديد بعد السنوات الطويلة للخبرة العملية السابقة من خلال التسجيل اليدوي وتنظيم الملفات ، كما وجد أن نسبة (4,2٪) يمكن أن يبدأ معهم التدريب المتواصل وعلى فترات متوالية هم فئة من الأخصائيين والأخصائيات الاجتماعيين القدماء ، ولكنهم بحاجة إلى الكثير من الوقت لعدم التعود، وفهم استخدام تقنيات الكمبيوتر ، وهذا يرجع طبقا لمبدأ التقبل (Acceptance).

8. اما في حالات نسبة الأخطاء في عملية إدخال وإخراج وتسجيل البيانات ، فإن النسبة كانت مرتفعة، فهي حوالي (62,5٪) من الإجابات ، فقد وجد أن تلك الأخطاء ترجع إلى مرحلة التطبيق التجريبي لهذه العمليات التعليمية ، وهذه ترجع إلى أنها المرة الأولى التي يهتم فيها تطبيق هذا العمل باستخدام الكمبيوتر في مجال عمل الأخصائيين الاجتماعيين العاملين في المجال الطبي ، ولكن مع تلك الملاحظات فقد وجد أن حوالي (29,2٪) منهم لم توجد عندهم أخطاء إملائية أو أخطاء فنية تقنية ، وهذا راجع إلى مذاكرتهم ورجوعهم إلى البرنامج من خلال الخطوات المسجلة في كتيب العمل المرفق مع البرنامج ، أما نسبية الخطوات المترتبة بشكل علمي سليم كما قلنا ، فإن دخول وخروج واتباع الخطوات المهنية مع الجهاز يتطلب ادراكًا وفهمًا واتباع خطوات منظمة دون إرباك، أو تخطي الأدوار والمهام.

الاجتماعيين تحتاج إلى مهارات ودورات تدريبية متكررة وخاصة ، في حين لا يحتاج تشغيل الكمبيوتر إلا إلى تلقي تدريبات أولية . كما بدأت الخدمة الاجتماعية الطبية في المؤسسة الصحية بدولة الكويت. أما ما يتطلبه الاستخدام العلمي في حل المشكلات الصحية الاجتماعية المرتبطة بالعميل في المؤسسة الصحية فإنه تم أولا مناقشة مدركات ثلاثة أساسية مترابطة، وهي: (الحقيقة، والصلاحية، والاحتمال). أما الأخصائي الاجتماعي في مستويات عمله المختلفة ، فكان يجب أن يعرف احتمالات النجاح عن طريق الأسلوب العلمي، والتي تكون مرتبطة بخطوات البحث العلمي ، ولا يضره الآن أن تكون احتمالات النجاح حوالي (60٪) أو أقل قليلا ، ولكن لو ترك الأمر (للنبوغ و الإلمام و الإدراك) فإنه قد يترتب عليه الهبوط في المستوى المهني على مر الأيام .

أما بخصوص تساؤل حول قبول الرضا فإن روح طبيعة عمل الخدمة الاجتماعية التي ظلت دائما تؤكد أهمية العلاقة المهنية بين الأخصائيين الاجتماعيين والعملاء ، وهل يؤدي التوسع إلى استخدام الكمبيوتر إلى اختفاء مبدأ معاملة كل عميل كحالة خاصة ؟ وإجابات هذه الأسئلة والتي تعتمد على مدى استجابة وتفهم وتعاون الأخصائيين الاجتماعيين لغزو الحاسب الآلي ميدانهم ، وعلى مدى ما يحرزونه من نجاح في استخدام الحاسبات الآلية في أعمالهم . كما يمكننا أن نناقش الرأي القائل بأن الكمبيوتر قد يضيف جهدًا إضافيا يلقى على عاتق الأخصائي الاجتماعي دون أن يضيف جديدا في تسهيل رسالته في العمل الاجتماعي. ولعل السبب الظاهر وراء هذا الاعتقاد هو الاحتمال بأن أنظمة الحاسبات الآلية قد لا يسمح لها بالبقاء دوما على الساحة إلا بعد التأكد من كفاءة أدائها بعد فترة معينة من التشغيل التجريبي ، وتأسيسًا على ذلك ، فإن الأخصائيين الاجتماعيين في المجال الطبي سوف يحرصون على بقاء الأنظمة التقليدية اليدوية جنبا إلى جنب مع أنظمة الحاسب الآلي خلال الفترة الانتقالية التي يتم فيها التأكد من كفاءة أداء الأخصائي الاجتماعي للحاسب

أرشيف ملفات العملاء ، مما أدى إلى تقديم هذه الأجهزة المساعدة الفعالة في أداء رسالة الخدمة الاجتماعية بشكل علمي سليم ، وفي الوقت المناسب لتطور خدمات الدولة في دخول الحكومة الالكترونية. أما بخصوص المخاوف والارباك في خطوات العمل الاجتماعي ، فإن الزمن والتعليم والتدريب كفيل بهذه النقلة المهنية في أداء دور تقدم وتطور الخدمة الاجتماعية من خلال الطرح العملي لجوانب هذه الدراسة وتحليلها. وهذه الدراسة كفيلة بمدى تجاوب الخدمة الاجتماعية في دخول ميدان الحاسب الآلي ، حتى لا تكون منطقتنا ومهنتنا بعيدة عن الواقع العلمي للحاسب الآلي وعصر المعلومات.

■ مقترحات الدراسة :

تبين من خلال هذه الدراسة أن الحاسب الآلي يعمل بأشكال مختلفة وعلى أسس علمية واقعية ، كما أن تطبيقاته التي تم تطبيقها على برامج ونماذج الخدمة الاجتماعية الطبية في وزارة الصحة في دولة الكويت قد سهلت عمليات مهنية كثيرة للأخصائي الاجتماعي. ويمكننا القول إن التعامل مع الحاسبات الآلية كمشغل لتلك البيانات والمعلومات والنماذج التي تم تطبيقها من خلال هذه الدراسة ، والتي ساهمت بشكل بارز على الجوانب المختلفة التي برزت من خلال هذه الدراسة المطبقة على إدخال الكمبيوتر في عمل الأخصائيين الاجتماعيين ، ومنها يمكننا تلخيص المقترحات والعقبات التي وجدت في هذه الدراسة في عقبتين هما :

- ■ **العقبة الأولى:** في الغموض الذي يحيط بالحاسب الآلي بالنسبة إلى عمل الأخصائيين الاجتماعيين مستقبلا.
- ■ **العقبة الثانية:** مخاوف كثيرة مرتبطة بالأخصائيين الاجتماعيين العاملين في المجال الطبي والمستخدمين للكمبيوتر من الدخيل الجديد إلى عملهم.

ومن هنا فإن الفرق بين تعميم برامج بالكمبيوتر في عمل الأخصائيين الاجتماعيين وبين مجرد تشغيل الكمبيوتر ، وتصميم برامج عمل الأخصائيين

المراجع العربية والأجنبية :

1- عبادة سرحان . أساسيات الحاسبات الالكترونية . مكتبة عين شمس . القاهرة . (1997) . ص 14 ، 16.

2- Boyd, L.H., Hylton, J.H. and Price, S.V. Computers in Social Work Practice: A Review , Social Work, Vol. 23, September. (1978).

3- مجدي محمد أبو العطا . المرجع الأساسي لقاعدة البيانات . دار الحرمين للطباعة . القاهرة . (1993) ص 56.

4- Hoshino, H. and McDonald, T.P. Computer Age, Social Work, , London , 20 January (1979) , P68.

5- Abels, P. Can Computers do Social Work, Vol.2 , American Journal of Social Work. 17 September (1972).

6- Brier, A. and Robinson, I. ,Computers and the Social Sciences, London, Hutchison. (1974).

7- عبدالفتاح عثمان . الخدمة الاجتماعية في المجال الطبي . مؤسسة نبيل للطباعة والنشر . القاهرة . (2001) ، ص 57.

8- أحمد فايز النماس . الخدمة الاجتماعية الطبية . دار النهضة العربية . بيروت . (2000) ص 68.

9- Smith, N.J., Parmar, G. and Paget, N. Computer Simulation and Social Work Education, British Journal of Social Work, vol. 10, (1980) , P. 4.

10- Bryan, Glaston Bury, Computers in Social Work , Macmillan Publishers LTD , London , (1985) , P. P 55 - 63.

11- محمد حسين بصبوص . مهارات الحاسوب ودار اليازوري . عمان الأردن ، (2002م) ، ص 20.

12- Lamsac, Survey of Local Authority Social Services Computer Applications. (1982).

13- إدارة الخدمة الاجتماعية . التقرير السنوي . وزارة الصحة . دولة الكويت . (2002) ، ص 27.

14. وزارة التخطيط . التقرير السنوي . إدارة المعلومات . (2001م) ص 12.

الآلي، وإحلال الجهاز محل الملف (Fail) والأنظمة التقليدية. ولعل من أبرز عيوب هذه المرحلة الانتقالية في عمل الأخصائيين الاجتماعيين هي شيوع ظاهرة ازدواجية الأداء (بين الأنظمة القديمة التقليدية والحديثة المتطورة من خلال الحاسب الآلي). وتبقى بعد ذلك في هذه الدراسة زاوية أخرى ينبغي اعتبارها ركنا في العمل الاجتماعي ، **وهي هل سيتخذ الأخصائيون الاجتماعيون الكمبيوتر ذريعة للهبوط بالعمل الاجتماعي ومن ثَمَّ تخفيض عدد العاملين منهم ؟ أو بمعنى آخر هل سيتم استخدام الحاسب الآلي كأداة لرفع الإنتاجية بغض النظر عن قضية نوعية الأداء في العمل الاجتماعي ؟**

كما أن هناك مجموعة من التكهنات التي تسجلها الدراسة عن الخدمة الاجتماعية الطبية في الفترة المستقبلية ، وهي أن الكمبيوتر لن يكون العامل المساعد الرئيس في التغيرات التي تطرأ على العمل الاجتماعي ، فلا ننسى أن القرارات السياسية المؤثرة في شكل المجتمع ، والتي هي ركن أساسيّ في مهام العمل الاجتماعي.

العلوم الإنسانية - العدد 17/16 - 2009

Edward AL Kharrat and Issues of the Genres of Narrative Texts

Dr. Abdelmalek Achahboune

Abstract

This paper deals with issues of literary genre in modern critical studies. It particularly observes the problems in "new sensitivity" novels through the numerous and different gere questions which such novels raise. In this regard, the paper selects, as a specimen for study, the novels of one of the pioneers of the "new wensitivity" current in the Arab novel, namely Edward Al Kharrat.

The paper has stopped at the nature of the genre limitations which Mr AL Kharrat fixes on the covers of his literary texts heat have a narrative character, whether the matter concerns fixing and specifying the kind of literary text as (novel/ non-norel), (novel/ autobiography), or introducing genre labels that are different from current ones such as narrative collage / narrative succession.

In the end, it has been firmly established for us that the central purpose of these characterizations, stamped by ambiguity and confusion, is the realization of the bets of "intra-genre" writing, thus creating a vivacious textual dynamism that protects narrative creation from the malady of stagnation and regurgitation and grants narrative writing rich and fertile creative p erspectives and this is embodied in what is termed the "open text".

إدوار الخراط
وقضايا تجنيس النصوص السردية

د. عبد المالك أشهبون *

الملخص

يتناول هذا البحث قضايا الجنس الأدبي في الدراسات النقدية الحديثة. ويرصد هذه الإشكالات في روايات «**الحساسية الجديدة**» بصفة خاصة، من خلال ما تثيره هذه الروايات من أسئلة تجنيسية متعددة ومتباينة بصفة خاصة. وفي هذا الصدد، ينتخب البحث، كنموذج للدراسة، روايات أحد رواد تيار «**الحساسية الجديدة**» في الرواية العربية، ألا وهو : إدوار الخراط .

ولقد توقف البحث عند طبيعة التحديدات الجنسية التي يعمد الخراط إلى إثباتها على أغلفة نصوصه الأدبية ذات الطابع السردي. سواء تعلق الأمر بإثبات وتعيين نوع النص الأدبي بوصفه (**رواية/ لا رواية**)، (**رواية/سيرة ذاتية ...**) أو باستحداث توصيفات تجنيسية مغايرة لما هو سائد (**كولاج قصصي/ متتاليات قصصية ...**).

هكذا ترسخ لدينا في الأخير أن الهدف المركزي من هذه التعيينات، والتي يطبعها الغموض ويسمها التشويش، هو تحقيق رهانات «**الكتابة عبر النوعية**». خالقة بذلك دينامية نصية حيوية، تحمي الإبداع السردي من آفة الجمود والاجترار، وتمنح الكتابة السردية آفاقاً إبداعية غنية وخصيبة، وذلك ما يتجسد فيما يسمى بـ «**النص المفتوح**».

---

* ***أستاذ اللغة العربية وآدابها بفاس وناقد من المغرب.***

له أكثر من صلة بـ «**القراءة وقضايا التلقي**» وأما الثالث: فمرتبط بقضايا التلقي أو ما يصطلح عليه: «**أفق الانتظار الجنسي**».

١ ـ قواعد الجنس الأدبي

تجدر الإشارة إلى أن موضوع الجنس الأدبي كان الشغل الشاغل في النقد التقليدي، الذي ظل يكرس أطروحة نقدية مفادها: أن هذا الجنس الأدبي هو تنميط مفهومي نظري، يقوم على معايير ثابتة، منها يكتسب قوته وفرادته. إلا أن هذا الجنس الأدبي قد يصاب بالتفسخ والهجانة، وتلحقه عناصر الرداءة كلما امتزج بعناصر من أجناس أدبية مغايرة.

تأسيساً على هذا التصور القاعدي الصارم، يتحول الجنس الأدبي إلى مؤسسة لها مواصفاتها ومعاييرها وضوابطها، لدرجة أن بعضهم شبهها بالمؤسسة الاجتماعية التي «تحكم الممارسات الفردية في مختلف وجوه الحياة بما تمثله من أعراف وتقاليد وقوانين ومقاييس ومعايير وقيم ولوائح (بعضها معاصر؛ حديث العهد، وبعضها الآخر عريق يضرب في أعماق التاريخ) يشكل مجموعها رقيبا داخليا يدفع الكاتب إلى الشطب والمحو والحذف والإضافة والتغيير والتنقيح والتصحيح، وربما إعادة الكتابة الجذرية للعمل الأدبي كله». [٢]

ولكي نزداد وعياً بما نقوله، فإنه لا يحق أن تنعت رواية ما بـ «الرومانسية» إلا متى توافر فيها شرط حل العقدة، والذي يقوم على زواج البطل بالبطلة، ومتى كوفئت الفضيلة وعوقبت الرذيلة. ينسحب الأمر ذاته، كذلك، على الرواية الواقعية التي أقامت مشروعها الروائي على مداميك أدبية خاصة. حيث إنه لا يمكن أن تصير الرواية واقعية إلا متى ما تم استحضار تلك الأسس والتقاليد واحترامها، وكذلك الأمر بالنسبة للرواية الحداثية فيما درجت عليه من تقاليد كتابية متفردة.

وبمعنى آخر، فإن كل دراسة لهذا الموضوع لا يجب أن تلغي النسق الثقافي، ونعني

المقدمة

يَعْتَبِر الدرس النقدي التقليدي أن الجنس الأدبي هو مجموعة من القواعد الشكلية والطيمية (Thématique) البانية لكل نص أدبي، فهو خزّان هائل من التقاليد الأدبية والسجلات الأسلوبية الضرورية في التعبير. ولكي يصبح هذا النص الأدبي واقعة أدبية حقيقية، ويتأتى له أن يندرج في هذا الصنف الأدبي أو ذاك، لابد من أن يستحضر هذه القواعد التي يقوم عليها مفهوم الجنس الأدبي؛ إذ إن لكل جنس أدبي معاييره وقواعده المفترضة التي تميزه من غيره، سواء أكان شعراً أم رواية أم مسرحية...إلخ. ذلك أنه لا مجال للحديث عن وجود «نص عار، ولا لدرجة الصفر في الكتابة...». [1]

فالجنس الأدبي، بصفة عامة، هو ميثاق للتواصل، يوجه اختيار القارئ ويبرمج القراءة، ويضفي على النصوص «**شرعية أدبية**» ما في الحقل الثقافي العام، ويدرجها ضمن سلسلة أدبية معينة.

هذا ما يدفعنا إلى الخوض بتفصيل فيما تثيره هذه العتبة (عتبة التعيين الجنسي) من قضايا وإشكالات، لها أكثر من علاقة، سواء بمفهوم الجنس الأدبي أو بأفق انتظار القارئ والقراءة بصفة عامة، دون أن يغيب عن بالنا بحث علاقة هذا التعيين الجنسي بالنص الذي يعيِّنُه.

أولاً: قضايا الجنس الأدبي في الدراسات النقدية الحديثة

بالعودة إلى الموروث النقدي الغربي، سيجد الباحث أن أسئلة الجنس الأدبي أثارت جدلاً كبيراً في الأزمنة النقدية الماضية ولا زالت. كما سيدرك أن قضايا هذا الجدل تتراوح ما بين ثلاثة محاور أساسية: أولها: يتعلق بـ «**قواعد الجنس الأدبي**»، والثاني:

«قواعد اللعب» التي تجلي للقارئ الطريقة التي هي أنجع لفهم النص الأدبي، من وجهة نظر تركيبه ومضمونه. [٥]

هكذا يصبح القارئ العنصر الأساس الذي يحسم الفعالية التجنيسية ويعطيها تأويلا محددًا، ولا يمكن تفعيل البعد التجنيسي بدون الاعتماد إلى القارئ الذي يتدخل بما له من خبرة قرائية، وما يمتلكه من مواقف، استنادًا إلى خلفيات ثقافية معينة تضفي على العلامات التجنيسية دلالات تتلاءم مع أفق انتظاره، ذلك ما يسميه ياوس بـ «أفق الانتظار الجنسي» (Horizon d'attente générique) وهو بطبيعته أفق سياقي تداولي بالدرجة الأولى. فهاجس الجنس الأدبي حاضر في كل فعل استقبال، ويقتضي تأويلاً ما، وهذا الأخير لا يمكن أن يحصل خارج الأفق الجنسي. [٦]

إن فعل قراءة رواية ما، يقتضي، مسبقًا، التسليم القبلي بالقوانين الناظمة لهذا الجنس الأدبي [٧] ، كما أن كل رواية تفترض قارئاً ضمنيًّا سبق لإيزر أن ركز على أهميته، ذلك أن كل أثر أدبي يفترض أفق انتظار معين (وهو مجموع القواعد الموجودة سلفًا) لتوجيه فهم القارئ(أو الجمهور). وتلك القواعد في مجموعها هي التي تسمح له بتلقٍ تقديري للأثر المقروء.

بناء على ما سبق، يصبح المعطى التداولي هو الذي يحدد - في الغالب - مضمون الجنس الأدبي، ذلك ما يذهب إليه **جون ماري شيفر** (Jean - Marie Schaffer) لدى قوله: «إن تجنيس نص ما، بالرغم من كونه نتيجة خيارات قصدية، إلا أنه لا يتوقف عند تلك الخيارات وكفى، وإنما يعتمد أيضاً على الوضعية السياقية التي يرى فيها العمل الأدبي النور، أو التي يُعاد فيها تحيينه» .[٨] كما يعتبر كذلك أن المؤلِّف الأدبي، شأنه في ذلك شأن كل فعل خطابي، هو «واقعة سيميائية معقدة، ومتعددة الأبعاد «Pluridimensionnelle». من هنا، فإن السؤال حول هويته (المؤلِّف الأدبي) لا يمكن أن يمتلك إجابة وحيدة، ذلك أن الهوية ترتبط دائمًا بالبعد الذي نُدرِكها من خلاله.

بالنسق الثقافي بكل بساطة كل المواضعات(اجتماعية، دينية، أخلاقية، استتيقية) التي تفرضها لحظة تاريخية معينة، والتي «يَقْبَلُها ضمنيًا المؤلِّف وجمهوره، وهكذا يكون أفق النصوص المفردة والإنجازات الفردية هو «النص الثقافي» الذي يجعلها ممكنة، وفي الوقت نفسه يحُدُّ من مدى تساؤلاتها وينتج من ذلك أنه لا يمكن اعتبار أي نص مغلقًا أو متوحدًا، أو مصوغًا من كتلة واحدة». (٣)

وعلى هذا النحو، تكون حرية الحكي محددة وضيقة، وذلك «بفعل المقتضيات الداخلية للكتاب نفسه(...) أو بتعبير آخر من جراء انتمائه وانتسابه إلى جنس أدبي ما، وإذا انتمى العمل إلى جنس آخر فالمقتضيات ستكون آنذاك مختلفة». (٤)

إلا أن الانتقال من العام إلى الخاص، لدى حديثنا عن الجنس الأدبي الواحد، شعرًا كان أم نثرًا، يثير لا محالة الكثير من التساؤلات التي تصاحب هذه التحققات النصية المنتمية إلى هذا الجنس أو ذاك، ما دامت هذه النصوص تستمد، كذلك، حيويتها من ارتباطها الوثيق بمفهوم الأدب المتحول تاريخيا. ومن ثَمَّ لا يمكننا الحديث، في هذه الحالة، عن «رواية» مطلقة مجردة ومتعالية؛ إذ إن كل حقبة تاريخية تنتج نموذجًا خاصًا من الكتابات الروائية، وهذا ما تترجمه الحساسيات الفنية المتعددة، المتصارعة والمتآلفة حتى في الجنس الأدبي الواحد.

٢ ـ الجنس الأدبي وقضايا التلقي

إذا نظرنا إلى قضايا الجنس الأدبي من زاوية الاستقبال، فإن قواعده تغدو مرتبطة بالتلقي أكثر من الخلق والإبداع. فتصبح تلك القواعد وسيلة لتعيين المنظور الذي يجب أن يُقرأ النص من خلاله، بوصفه مجموعة من القوانين الخطابية التي تحدد أفق انتظار القارئ.

ومنذ مدة طويلة، كان هناك إقرار صريح بأهمية الدور الذي يجب على الأجناس الأدبية أن تلعبه في مسألة التلقي، حيث يغدو الجنس الأدبي مجموعة من المعايير

الذي ينتمي إليه هذا النص أو ذاك حتى تنفتح في ذهنه دائرة **التقاليد الأدبية** لهذا الجنس؛ إذ إن كتابة فقرة من الفقرات الصحفية مثلاً على هيئة الشعر، «يهيئ لاستقبالها استقبالاً مختلفًا يستمد من الصورة التي في أذهاننا عن الشعر وتقاليـــده». (١٣)

هذا المسار القرائي، ينسحب - بطريقة أو بأخرى - على أفق انتظار الكاتب لدى شروعه في كتابة رواية ما؛ إذ جرت العادة أن يستحضر الروائي هذا الأفق في مشاريعه الإبداعية، إلى درجة قد يغدو معها الجنس الأدبي عبارة عن صيغة ما من صيغ الكتابة، المفكر في قواعدها سلفًا.

على هذا الأساس، فإن أفق الانتظار يتشكل من محفل التعيين الجنسي، ويترسخ بمعرفة اسم المؤلف، وتقاليد إبداعه الروائي؛ حيث يستتبع فعل قراءة التعيين الجنسي «رواية» - في تزامن مع اسم المؤلف - ردَّ فعل فوري تلقائي، يتمظهر في تنشيط أجواء تقبل الرواية، وهذا التنشيط يتجسد في طبيعة الاستعدادات الفكرية والجمالية التي يتقبل بها/وفي خضمها القارئ هذه الرواية أو تلك؛ حيث تعمل لفظة «رواية» على حَفْزِ القارئ إلى تخيل الجو العام للرواية، وكذا تصور مجرى معين للأحداث، بنوع مميز من البدايات والنهايات.

ولتقريب هذا التصور، يمكن إعطاء أكثر من مثال، ففي حالة تعرف القارئ - عبر عتبات النص - على اسم: **نجيب محفوظ**، مرفقًا بالتعيين الجنسي: رواية فإن طقس التوقع يزداد حدة؛ ومن ثَمَّ سيُكَوِّن القارئ، بطريقة غير مباشرة، فكرة شبه قارة حول عالم محفوظ الروائي من خلال إلمامه **القبلي** بأجواء رواياته، وتخيُّل ما يمكن أن يحدث لاحقًا من أحداث ووقائع.

فمنذ الوهلة الأولى سيتصور القارئ الملِمُّ - إلماماً متوسطًا بروايات محفوظ - نموذجًا تقريبيًّا من **المطالع** الروائية ذات الإيقاع البطيء، وسيتخيل كلاً من شخصياته النمطية المعتادة، وأفضيته التي تركز على المكان(الحارات والأزقة

أو بعبارة أخرى، إن المؤلَّف الأدبي ليس مجرد نصٍّ فحسب، أي سلسلة تركيبية ودلالية، ولكنه أيضًا إنجاز لفعل تواصلي بين البشر». [٩]

٣ ـ الجنس الأدبي وأفق الانتظار

هناك مجموعة متعددة من القرائن المتعلقة بخطاب العتبات التي يمكننا التعرف ـ من خلالها ـ على طبيعة الأثر المقروء، ومن بين هذه القرائن نشير إلى «التعيين الجنسي»، وذلك باستدعاء كُتَّاب الرواية لفظة «**رواية**» على ظهر الغلاف[١٠]. ذلك أن هذا المصطلح هو، إذن، بمثابة دال له ارتباط بكل ما «يسبق النص، أو يمهد له، أو يحيط به». [١١]

ولقد أولت نظريات التلقي أهمية خاصة لأفق الانتظار؛ إذ اعتبرت أن الجنس الأدبي هو عبارة عن أفق انتظار، اكتسب وجودًا مُشَخصًا وملموسًا (أي في شكل رواية، أو قصيدة، أو مسرحية)، كما ساهم هذا الأفق في خلق ما يسمى بـ «النظام الأدبي العام» في حِقْبة من الحِقَب، في سياق سلسلة أدبية معروفة. فاقتناء القارئ كتابًا ما، يستتبعه – لا محالة – معرفة **ماهية** هذا الكتاب(رواية أو قصة أو ديوان شعر...). وعندما يخبرنا المؤلف(أو الناشر) من خلال **عتبات النص** أن هذا المؤلَّف الأدبي هو «رواية»، سيحاول القارئ أن يتأكد من ذلك التعيين الجنسي بفعل القراءة.

هكذا يفتح القارئ الكتاب وفي ذهنه فكرة مسبقة عن عوالم الرواية ومؤثثاتها، ولغتها، وتقنياتها الخاصة بهذا الجنس الأدبي، باختصار شديد: تقاليد العمل الروائي وأدبياته. فالعمل الأدبي، حتى في لحظة صدوره، «لا يكون ذا جدة مطلقة وسط فراغ: فبواسطة مجموعة من الإعلانات والإشارات، الظاهرة أو الكامنة، ومن الإحالات الضمنية والخصائص المألوفة، يكون جمهوره مُهَيَّأً من قبل ليتلقاه بطريقة ما». [١٢]

ومن بين هذه الإشارات نذكر التعيين الجنسي، فما أن يتبين القارئ الجنس الأدبي

الذي تفتحه رواية الخيال العلمي، ولا هو أفق انتظار الروايات الجنسية، وقس على ذلك.

وتجدر الإشارة، في هذا السياق، إلى أن الأجناس الأدبية تخضع لعدة استراتيجيات تأليفية أكثر تعقيداً مما يتصوره الباحث الذي يسعى في معالجة هذا الموضوع إلى اختزال هذه الأجناس وتصنيفها بطريقة تبسيطية؛ إذ إن للجنس الأدبي وظيفة براغماتية بالأساس، خصوصاً في بعض الفترات الأدبية التي تشتد فيها وطأة سلطة بعض النظريات على المؤسسة الأدبية. (١٥)

والحالة هذه، لا يمكن الحديث عن تسمية جنسية بريئة في ظل الصراع الخفي بين المؤلِّف والمؤسسة الأدبية؛ إذ من السهل تعداد روايات لمْ يتم تسميتها كذلك إلا من منطلق أخذ الحيطة والحذر، على حين هي، في حقيقتها، كتابات سيرذاتية (ليست تخييلية). ومن ثَمَّ، فإن التعيين الذاتي «L'autodésignation» لمؤَلَّف ما، بمقدوره، إذن، أن يطمس وضع المؤلَّف الحقيقي، سواء على المستوى المقصدي أو التواصلي.(١٦)

ندرك على ضوء ما سبق، أن فعل التجنيس يستحيل إلى مكون دينامي لا يقوم على نظام التكرار والتشابه، بل هو بمثابة آلية من آليات التحويل والتغيير، التي تستجيب لمنطق خضوع الجنس الأدبي نفسه للمؤثرات الكبرى: الزمنية والتاريخية والتداولية.

كل هذه العوامل وغيرها تنْزِع من مفهوم الجنس الأدبي صفة المثال والمعيار الأسمى الذي لا يلحقه التغيير أو التعديل، وتدفع به في اتجاه التطور والتغيير، وهو ذات المنطق الذي تخضع له كل العلوم الإنسانية بصفة عامة.

ولعل هذا ما دفع شيفر إلى استخدام مصطلح «التجنيس» «La générecité» (١٧) بدل «الجنس». فقد ولَّى زمن الحديث عن الجنس الأدبي بوصفه تصنيفاً مثاليا كما كان يتصوره برونوتيير وغيره؛ لأن الجنس الأدبي لم يعد بذلك الصفاء والخلوص والنقاوة التي يمكن تصورها، بعد أن أضحى (الجنس الأدبي) عرضة لمجموعة من

والشوارع...)، وأخيرًا سيخمن نوع **النهاية** التي ستؤول إليها الأحداث، والتي لن تحيد، لا محالة، عن نموذج النهايات المأساوية المألوفة في معظم رواياته.

وإذا كانت روايات محفوظ الواقعية تستجيب لأفق انتظار القارئ الذي تعود على قراءة ذلك النموذج من الروايات، فإن الأمر ليس بهذه الآلية ولا بتلك الرتابة التي يمكن أن نفترضها. فقد يحصل أن يغير محفوظ من طبيعة رؤيته الفنية، ويقدم لنا رواية منزاحة شكلاً ومضمونًا (تخرق قوانين الجنس الأدبي المألوف)، حيث يخيب أفق انتظار القارئ. كما يؤدي هذا التخييب، في بعض الأحيان، إلى الخروج عن الجنس الأدبي ذاته، في حالة عدم التقيد بالعناصر الأساسية التي يقوم عليها هذا الجنس الأدبي(أي القواعد الرئيسة التي ينبني عليها النوع الأدبي)؛ لينتقل، من ثَمَّ، من جنس أدبي معلوم(رواية) إلى آخر (مسرحية أو قصة طويلة).

أما في بعض الحالات النادرة، فيؤدي العدول عن القواعد الكبرى البانية للجنس الأدبي إلى خلق جنس أدبي جديد (لا وجود له من قبل). إلا أن الإخلال بقواعد الجنس الأدبي، يُعَدُّ، حسب الثقافات والعصور، تقصيرًا مذمومًا في زمن ما أو فضيلة محببة يقع الترحيب بها في زمن آخر. ذلك ما سبق أن أكدته جماعة كونسطن، وعلى رأسها ياوس الذي عَدَّ أن العمل الأدبي قد يأتلف مع أفق الانتظار أو يختلف معه، مما ينتج من ذلك حوار أو صراع بين الأفقين. ويمكن أن يتمخض عن تصادم هذين الأفقين في كل قراءة «ثبات انتظار القارئ أو تغيره أو إعادة توجيهه أو إحباطه بالسخرية، حسب قواعد لعبة تكرسها شعرية الأجناس والأساليب، الصريحة أو الضمنية». (١٤)

إن الاستعداد النفسي والفكري الذي يجعل القارئ متأهبًا لاستقبال رواية من روايات محفوظ، لن يجده القارئ ذاته في حالة قراءته لتعيين جنسي آخر(شعر أو مسرحية، أو أقصوصة). كما يجب التنبه لأن أفق الانتظار يتنوع حتى في حدود دائرة الجنس الواحد، فالرواية البوليسية تفتح أفق انتظار خاص، ليس هو أفق الانتظار

نص ما من النصوص الأدبية، ومن ثَمَّ في اختياره لكيفية قراءته[١٨] ، خاصة وأن هناك شهرة لدى بعض الكتاب في إنتاج فن أدبي بعينه (رواية أو شعر أو مسرحية...) وفق رؤية فنية معينة.

هكذا، يمكن اعتبار إدوار الخراط أحد رواد تيار الحساسية الجديدة في الرواية العربية على مستوى التنظير والإبداع. وهذا ما يدفعنا إلى الأخذ بعين الاعتبار خصوصيات كتابته السردية، ما دام يمتلك مفهومًا خاصًّا، ومتميِّزًا لعناصر وآفاق تحديث الرواية العربية. [١٩]

فلا يمكن أن نفصل إدوار الخراط الروائي عن إدوار الناقد والمُنَظِّر لما أصبح يعرف بعد ذلك بتيار «**الحساسية الجديدة**» في الإبداع العربي من خلال متابعاته الدءوبة للإنجاز الروائي والقصصي والشعري والفني. وقد أصدر خلال سنوات السبعينات والثمانينات عددًا من الكتب والدراسات التي تشكل من وجهة نظرنا، الخلفية المرجعية في تأطير المصطلحات والمفاهيم الأدبية والنقدية، وآليات اشتغالها الداخلي سواء عند الخراط أومن يتقاسمون معه نفس الوعي الأدبي والفني.ذلك أن رواياته هي في حقيقتها ممارسة للقول «تشرح دلالة الحساسية الجديدة»، ذلك أن الممارسة تعطي القول النظري صياغته الحقيقية». [٢٠]

وفي هذا السياق نسوق رأي صبري حافظ، وهو أحد نقاد الحساسية الجديدة البارزين، يؤكد من خلاله الحضور النوعي الذي يتمتع به إدوار. يقول في شأنه ما يلي: «إدوار الخراط من القلائل الذين ساهمت كتاباتهم في صياغة حساسية فنية جديدة، وفي تأسيس مستوى من الإبداع، والمعالجة، والمغامرة الأدبية يؤدي مجرد وجوده إلى تغيير المعايير النقدية السائدة، وإلى إراقة الكثير من الشك على المسلّمات المطروحة في الساحة الأدبية، وإعادة التفكير في كل ما اعتبرته الحركة الثقافية لفترات طويلة - إنجازات أدبية كبيرة؛ لأن إدوار يطرح في أعماله الإبداعية وكتاباته النقدية وعلى السواء تصورًا جديدًا لعملية الكتابة ومن ثَمَّ لمفهوم الفن

الاختراقات والانتهاكات، وغدا محطة لتقاطع العديد من الخطابات والسجلات اللغوية المختلفة، ومن ثَمَّ فضاء تفاعل النصوص وتناصها وفق خطط إبداعية جرى عليها الكثير من التغييرات، وهذا ما سنتوقف عنده في إشكالية التجنيس في الرواية العربية الحداثية بصفة خاصة.

تفضي بنا الإيضاحات السابقة، في هذا السياق، إلى ضرورة استحضار الخلاصات الجوهرية الآتية:

- لا يمكن الاطمئنان لمفهوم الجنس الأدبي، بوصفه مجموعة من القواعد والمعايير المثالية التي تجعل من هذا الجنس الأدبي متميزاً من غيره. وهذا ما تبرزه التحققات النصية الحداثية التي يحصل فيها الكثير من الانتهاكات والانزياحات عن هذه المعايير التي يُفترض أن تكون الحد الفاصل بين هذا الجنس أو ذاك.

- لا يمكن تجاهل أهمية التناص في مقاربة الأجناس الأدبية. فعادة ما يكتب الروائي روايته مستحضرًا البعد الشاعري، أو في حالة التداخل بين كل من الرواية، وغيرها من الأجناس الأدبية الأخرى كالتاريخ، أو السيرة الذاتية، أو المسرحية. وهذا ما يحيل علاقة هذا النص بالنصوص التي يتناص معها إما علاقة استنساخ وتمثيل وتكرار، وإما علاقة تحويل وخرق للقواعد الجوهرية التي تشكل معيار هذا الجنس الأدبي أو ذاك.

- لا بد من مراعاة أهمية التواصل بين القارئ والمؤلف. وهنا نستحضر أفق انتظار القارئ الذي يجترح لنفسه في الغالب قراءة من منظوره الخاص، والتي قد تتقاطع مع منظور الكاتب أو قد تتنافر معه.

ثانياً : روايات «الحساسية الجديدة» وأسئلة التجنيس

يلعب اسم المؤلف دورًا أساسيًا في إدراك القارئ للجنس الأدبي الذي ينتمي إليه

ولقد غدا استهداف سلطة الجنس الأدبي (الرواية بالمفهوم التقليدي الغربي) وخلخلة استقرارها، وزعزعة كيانها الشامخ أمرًا يصدم كُتَّاب «**الحساسية التقليدية**» الذين يعتقدون أن للأنواع الأدبية حدودا مضبوطة لا تتعداها، دون أن تقبل أحدًا أن يتطاول على هذه الكيانات الرمزية المثالية. وفي هذا السياق التحديثي، برز ذلك الاختراق المتواصل لبنية الأجناس، ونشطت حركية **التوليف** ما بين هذه الفنون، وتتالت عملية المزج أو ابتكار تعيينات جنسية جديدة. كل هذا وغيره، كان فعلاً مستفزًا، بكل المقاييس، لذائقة أدبية تقليدية استمرأت نوعًا محددًا من الروايات لا ترضى عنه بديلاً.

في المضمار نفسه، تعددت التساؤلات الطامحة في إيجاد تنميط ما لهذه الكتابات الفرّارة من سلطة الجنس الأدبي، بمعاييره المتعارف عليها آنفًا. وذلك بغية الوقوف على كنه هذه الأشكال الجديدة، والتعرف على آلياتها الداخلية: هل هي نصوص تاريخية، قصة أقصوصة، سيرة ذاتية أو مجرد رواية؟ فلا يكاد الدارس المعاصر يستقر- من كل ذلك - على رأي محدد يطمئن إليه في تحليله، ويلوذ به من الغبار المثار حول إشكالية التعيين الجنسي من منظور الروايات الحداثية.[٢٦]

وقبل التوقف عند **التحققات النصية** التي تبرز لنا مدى غموض التعيين الجنسي في بعض كتابات تيار «**الحساسية الجديدة**»، سواء أتَمَّ إثبات هذا التعيين (رواية أو قصة أو مسرحية...) أم ظل غفلاً، كان من اللازم الإشارة، في هذا السياق، إلى أن العديد من الكتاب تعاملوا مع قضية التعيين الجنسي انطلاقا من وجهات نظر فنية مختلفة، وللتمثيل على ذلك نورد ما يلي:

١ - إثبات لفظة «رواية»، والقصد بذلك التمييز بين الفن الروائي(=العمل التخييلي الخاص)، و«اللارواية» (= المرجعية والواقعية).

٢ - المزج بين البعدين: الواقعي(السيرة الذاتية) والتخييلي(الرواية).

٣ - الاكتفاء بتحديد عناوين فرعية خاصة على هذا المنوال:

والكـاتب». [٢١]

فالحساسية الجديدة، من منظور الخراط، هي «نقلة أساسية في أشكال ومضامين التقنيات الفنية، أو طرائق «التعبير»، أو على الأصح طرائق «الوجود» الفني، وهي تصاحب (أو تسبق) نقلة أساسية في التطور الاجتماعي والتاريخي...».[٢٢] كما أنها «ليست مجرد» إجراء تقني (شكلي) فقط، وإنما هي أيضًا وأساسًا، فعل انتهاك وانزياح عن حساسية بكاملها، جماليًا وأيديولوجيًّا ومعرفيًّا في آن. إن السرد، بهذا المعنى، ترسانة معقدة من الأوليات المبرمجة وفق سنن جمالية وأيديولوجية وقيمية تتحكم سيرورة تفاعلها في صوغ لعبة التخييل الروائي وتوليد مساراته الدلالية واستراتيجياته التواصلية». [٢٣] وهذا ما يؤكده الخراط في أكثر من مناسبة؛ حيث يقول: «ليس ما أكتب رواية ولا قصة قصيرة وفق المواصفات التقليدية لهذين الجنسين الأدبيين، ولا هو الشعر أو السيرة الذاتية وفق هذه المواصفات فما هو؟ هو مغامرة حرة. مغامرة روحية وأدبية، في الشكل والمضمون معًا فلا انفصال بينهما بطبيعة الحال».[٢٤]

هكذا نجد الخراط كثير التشديد على أن مفهوم «الجنس الأدبي» يمر بمتغيرات سريعة (في مراحل تاريخية بعينها) ومتلاحقة، فلم يعد تكرار النموذج التاريخي للجنس الأدبي بحذافيره، يأتي بثمرة مجدية في تطوير آفاق التجربة الإبداعية بصفة عامة؛ إذ أصبح الجنس الأدبي يوضع باستمرار موضع سؤال، عندما يصطدم القارئ بإبداعات مغايرة في الكتابة. وهي إبداعات حداثية انقلابية تُلجئنا إلى مساءلة الأصول التاريخية لكل جنس من أجناس الكتابة، «بل تجعل مفهوم هذه الأصول نفسه مغايرًا، بالضرورة، لما كان عليه عند بداية تخلقه، إلى حد إيقاع قطيعة ملموسة بين المفهوم التاريخي (أي مفهوم الجنس الأدبي في تاريخيته) وبين مفهوم هذا الجنس نفسه الآن بعد أن تراكمت في سياقه، وفي داخله، استحداثات ضخمة توشك أن تخرج به من هذا السياق نفسه». [٢٥]

١ - التجنيس الروائي في روايات إدوار الخراط

أثارت أعمال الخراط الأدبية جدالا واسعًا حول طبيعتها التجنيسية، مما قاد إلى الإجماع على الطابع الإشكالي لظاهرة تجنيس الأثر الأدبي لديه. وسنسعى إلى رصد الطابع الإشكالي لمفهوم التعيين الجنسي لدى الخراط، من خلال العناصر البارزة الآتية:

١ - تعيينات جنسية تقليدية مُخَاتِلة.
٢ - استحداث توصيفات تجنيسية مغايرة.
٣ - استراتيجية «الكتابة عبر النوعية» وتجلياتها.

١ - ١ - تعيينات جنسية مخاتلة

ما يسترعي الانتباه، هو إلحاح النقد الحديث على سؤال التجنيس الذي قد يفضي بالقارئ إلى توليد الأسئلة تلو الأخرى، حينما نقتنع بأن التفكير في تجنيس روايات الخراط لا يخلو من مغامرة فنية بالنظر إلى مرونة حدودها. وذلك الإجراء يصبح معمولا به حتى في حالة تعمد الروائي، تداوليًّا، تسمية هذه الأعمال أو تصنيفها؛ فهل تلغي إبداعات الخراط، إذن، أفق انتظارها الجنسي؟

أ - الرواية / اللارواية :

يعترف فخري صالح بصعوبة وتعقيد التعيين الجنسي في نص: «رامة والتنين»، مشيرا إلى بعض السمات التي تضع هذا النص في خانة النوع الروائي. فمن منظوره، أن «**رامة والتنين**» نص عصيٌّ على التصنيف، وذلك لا يعني أن التصنيفَ النوعيَّ لـ«**رامة والتنين**» هو مسألة مستحيلة، وإنما يعني أن وضع هذا النص في خانة النوع الروائي يتطلب منًّا جهدا خاصا في البحث عن سمات النوع فيه». [٢٩]

- سيرة ذاتية: بوصفها كتابة تحرص على البعد المرجعي الخالص.
- يوميات أو مذكرات: ويقصد من خلالهما الشهادة ذات الطابع التاريخي.
- محكي: بوصفه عنوانًا تحتيًّا غالبًا ما يثير الكثير من الغموض على مستوى التداول الأدبي.
- بدون عنوان فرعي ليترك الكاتب مسئولية استكشاف احتمالات هذا التعيين وممكناته للقارئ. (٢٧)

فماذا يعني إثبات لفظة رواية على ظهر غلاف المؤلف الأدبي؟ على الخصوص إذا كانت الرواية جنسا أدبيا «إمبرياليا» تبسط نفوذها على فنون أدبية متعددة، جنسا بدون قانون، قادرة على امتصاص وتوظيف كل الأنواع الأدبية الأخرى في نسيجها النصي سواء تعلق الأمر بالشعر، أو الحوار المسرحي، أو التأملات الفلسفية.

إن استراتيجية توظيف لفظة «رواية» بوصفها تعيينًا جنسيًا تحتمل أكثر من احتمال، والاحتمال الأغلب هو تعارض الرواية مع سطحية الوثيقة، ومع المبتذل من النصوص؛ إنها «تعني الأثر المكتوب، المحكم الصنع على مستوى الكتابة والأسلوب والأدبية. في مقابل درجة الصفر في الكتابة، والتي تتمثل في نصوص ذات مرجعية خالصة (يوميات)». (٢٨)

وسنتوقف في هذه المحطة التحليلية عند نموذج بارز، نجد له أكثر من نظير في الكتابة السردية العربية المعاصرة، وهو نموذج تحديد انتساب العمل إلى مجال الرواية من خلال أعمال إدوار الخراط الروائية. كما سنتقفى أثر اجتهادات الخراط - الناقد والمنظِّر- في صياغة مصطلحات تحيل إلى تعيينات جنسية جديدة من خلال جهازه المفاهيمي المتميز، وسنتعرف على مدى ملاءمة هذا الجهاز مع ما ينتجه روائيًّا في مرحلة لاحقة.

من الجدل والتفاعل والتحوير المستمر». [٢٣]

ولدى دراسته لنص: «**محطة السكة الحديد**» [٢٣] يشكك صبري حافظ في حقيقة التعيين الجنسي «رواية»، نظراً لافتقار النص إلى مقومات عالم الرواية بالمواصفات المتعارف عليها، حتى أنه اقترح على الخراط أن يدعو: «**محطة السكة الحديد**» نصوصاً مكانية أسوة بما فعل مع: «**ترابها زعفران: نصوص إسكندرانية**»؛ لأن تسمية هذا العمل بـ «الرواية» يقتضي أن يتوفر العمل الروائي على مجموعة من المقاييس والافتراضات المسبقة التي ما يلبث العمل نفسه أن يبددها، أو يدفع قارئه إلى التخلص منها في أثناء رحلة القراءة.

من هذا المنطلق، استنتج صبري حافظ أن العمل «يفتقر إلى مقومات الرواية التقليدية منها والحديثة. ولكنه أقرب إلى شكل الحلقة الأقصوصية ذات النصوص المستقلة بنائيًّا، والمتكاملة من حيث الرؤية والعالم والمكان». [٣٤]

هذا ما نبه إليه النقاد - العارفون بقضايا التجنيس الأدبي من منظور الخراط؛ إذ لا ينبغي أن نسقط في حبال القراءة الإسقاطية التي تفترض مطابقة الرواية للمواصفات المعروفة في عالم الرواية التقليدية كما ترسخت مع نجيب محفوظ وغيره، بل ينبغي أن نستنفر كافة حواسنا عند القراءة، ونكون حذرين ذلك الحذر المتيقظ أمام الأسئلة التي تشرع أمامنا آفاقًا جديدة مفتوحة، حافزة إلى الإمكانات الفكرية والخيالية؛ من أجل الحصول على تأويلات/قراءات شتى تسهم في تعددية القراءة، وإخصاب المضامين الثاوية في دواخل النص الإبداعي. ففيما يعلن الكتاب (والمؤلف معه) عن جنسه صراحة، ومن ثَمَّ يستدعي دليل القراءة الخاص بتلفظه وأفعاله وخطابه، نجده في الآن عينه «يرتدُّ عن هذا الدليل بإحداث اختراقات متفاوتة العمق في بنائه، أو نقضه، وصولاً إلى تسفيهه بفضحه كمخاتلة صرف». [٣٥]

ولا ننفي أن هناك العديد من أوجه الشبه بين حياة الشخصية الرئيسة

ويؤكد أحمد المديني - لدى مقاربته: «**رامة والتنين**» - أن وضع تسمية «**رواية**» على الغلاف لا يتلاءم مع ما يطرحه نصها. إنها «رواية - نقيض»، أي خارج المألوف، والمتعارف عليه من الرواية المحفوظية التي أنجبتها رواية القرن التاسع عشر الغربية. إذ يعتبر أن وظيفة هذا التعيين الجنسي في مثل هذه العينة من النصوص «ليس إلا تحايلاً - أو تنازلاً مؤقتا في انتظار الحصول على اعتراف مؤجل يعتقد أنه بات حاصلا -، تحيُّلاً على ذائقة أدبية، قارئة وكاتبة، واقعة على تخوم الحساسيات الإبداعية، المشدودة إلى الموروث السردي المكرَّس والمنجذبة إلى سردية منهمكة في طور تجريب خلاق».[٣٠]

بيد أن للخراط رأيًا طريفًا بخصوص حيثيات كتابة وتجنيس هذا العمل السردي الإشكالي؛ حيث يعزو طبيعة التشكل الفني لـ «**رامة والتنين**» المختلف إلى المصادفة التي حكمت الصياغة النهائية لهذه الرواية برمتها، فقد كان في نيته أن يَعُدَّ هذه الرواية قصة قصيرة، وتنتهي المسألة قصديًا. ولكن قبل أن تنتهي القصة الأولى وقبل أن يكتب الروائي كلمته الأخيرة من الجملة الأخيرة فيها، تبين له بشكل حتمي ولا مفر منه أنها لم تعد قصة قصيرة، بل هي الفصل الأول من رواية، «ونشرت كقصة قصيرة في الوقت نفسه الذي بدأت فيه واتضحت لي فيه الرواية كلها. وعندما نُشِرت الفصول الأخرى لم تنشر على اعتبار أنها قصص قصيرة في تقديري على الأقل، بل أشرت - عند نشر بعدها - إلى أنها فصول من رواية».[٣١]

فالمسألة، إذن، لا تتعلق بنفي التعيين الجنسي التقليدي أو إثباته، بل الأمر مرتبط بأهمية ضخٍّ نفس إبداعي جديد في المفهوم التقليدي ذاته، دون أن يطرح المفهوم السابق (رواية) خارج الساحة كلية؛ لأن البديل ـ في عالم النقد الجديد ـ لا يستغني عن المستبدل به، ولكنه يحتاج إليه، ويتفاعل معه باستمرار، حيث يعيد الجديد تعريف القديم، ويمكننا من رؤيته في حلَّة جديدة، ثم ما يلبث هذا القديم الذي أعيدت رؤيته» أن يكشف لنا عن بعض ما في الجديد من أبعاد خفية. وهكذا في علاقة

التي كتبتها، هناك قدر من الاستقلاليـــة بين الفصول. هل يمكن تسمية هذه الفصول قصصًا قصيرة أو لا ؟ في الوقت الذي توجد وتتوثق فيه الصلة بين الفصـــول؟». (٣٦)

ذاك ما نبه عليه المديني حينما أثار انتباهنا إلى أننا في حالة إدوار الخراط ينبغي أن نستنفر كل قدرات التلقي المصحوبة بنوع من الشك المولد للأسئلة والذي يحفز إلى الانطلاق في آفاق تأويلات شتى حين نقرأ على ظهر الغلاف العنصر الثالث للكتاب(نعني التعيين الجنسي:«رواية»). ومن المؤكد، حسب المصدر ذاته، أننا إذا ما أسقطنا على العمل سمات العالم الروائي بمحدداته وعناصره وآليات اشتغاله، «قد يتعارض كل التعارض مع ما يثوي خلف التسمية المجردة للجنس الأدبي...».(٣٧)

إنها نموذج الكتابات التي قد تبرم أكثر من ميثاق، وتفسخ جميع المواثيق في آن، «فإذا ما تهيأ لك أنك قابض على زمامها لوضعها في خانة محددة انزلقت إلى خانة أخرى، وهكذا دواليك». (٣٨)

يحضر في رواية: «يا بنات إسكندرية»، كذلك، كل من البعدين: التخييلي والمرجعي، ومن ثَمَّ يتهاوى صرح التعيين الجنسي الأحادي الجانب، سواء في اعتبار هذا العمل الأدبي رواية أم سيرة ذاتية. فإذا نظرنا إلى التعيين الجنسي لنص: «يا بنات إسكندرية» بوصفه «رواية»، نجده يقدم لنا ميثاقا ذا مظهر تخييلي لا لبس فيه، يعززه في ذلك التصريح بعدم التطابق بين شخصية المؤلف (إدوار الخراط) والشخصية الرئيسة في النص الروائي (ميخائيل)، مع إغفال مبدأ التطابق الاسمي. لكن الشيء المثير للانتباه هو وجود مجموعة من الوقائع والأحداث والأسماء التي تَمُتُّ بأكثر من صلة إلى الأدب الشخصي بصفة عامة والسيرة الذاتية على وجه الخصوص. حتى أنه حينما سئل الخراط عن أفضل عمل معبِّر عن سيرته الذاتية المتعلقة بمرحلة الاعتقال، أحال محاوره إلى هذه الرواية بالذات. يقول في هذا الصدد:«كان هناك إشارات إلى تلك الحقبة، قليلة، مبثوثة بحرص في غمار «يا بنات

(ميخائيل) وحياة المؤلف، غير أن ما يربك القارئ هو ما تتضمنه الرواية من مقاطع حُلمية، ونصوص شاعرية، واعتماد اللعب الشكلي، وتوظيف التداخلات الصوتية مضاهية بذلك النوع الروائي. وهذا ما يحفز الناقد إلى إعادة تجديد قراءته النقدية بما يتناسب والوضع النصي الجديد، على الرغم من كل وسائل التشويش التي يحاول من خلالها السارد أن يوقعنا في حيرة من أمرنا: كتعويم الحدود بين السيرة والرواية، وتكسير المعيارية الفاصلة بين النوعين، بواسطة تلك التداخلات المربكة لأفق انتظار القارئ بين ما هو روائي وما هو سيرذاتي.

ب ـ الرواية / السيرة الذاتية :

تُعَدُّ: «يا بنات إسكندرية» نموذج الكتابات التي يتداخل فيها السير ذاتي بالروائي إلى درجة أن الخراط يَعُدُّها أقرب نصوصه إلى عوالم السيرة الذاتية، وهذا التداخل يزداد تعمقًا عند قراءة تعيينها الجنسي «رواية»؛ إذ سيفرغ هذا التجنيس من مضمونه، حال انتهائنا من قراءة النص، لتبدأ رحلة التساؤلات المحيرة حول مطابقة النص لمواصفات العالم الروائي التقليدي. فبإمكاننا قراءة نصوص الرواية بمعزل عن بعضها، بوصفها عوالم نصية مستقلة الذات، دون أن يخل ذلك بالبناء الإبداعي المرغوب فيه. كما يمكن قراءة تلك النصوص، على شاكلة نص واحد.

ولئن كنَّا نميل إلى الأخذ بإمكانية قراءة النص بوصفه نصا واحدا، أو على صورة متتالية قصصية، فذلك لأننا سنكتشف في أثناء القراءة، أن خيطا سرديا رفيعًا يشدُّ هذه النصوص بعضها ببعض من جهة، ويشدّها بباقي أعمال الخراط السردية الأخرى عامة، من جهة أخرى.

إلا أن تحول الرواية إلى قصص مفصولة أمر وارد لا محالة أيضًا، وهذا ما يشدد عليه الخراط نفسه في أكثر من مناسبة. فالحدود أو الفروق الحاسمة بين الأنواع الأدبية إن لم تكن قد تلاشت «فقد اختلت اختلالاً كبيرا، وحتى في الأعمال الروائية

ذلك التجديد انطلاقًا من أجناس أدبية سابقة أم مستحدثة، ويمكن التمثيل لذلك بما يلي:

النصوص السردية	التعيينات الجنسية المقترحة
«ترابها زعفران»	نصوص إسكندرانية
«حجارة بوبيللو»	متتالية قصصية
«إسكندريتي»	كولاج قصصي
«اختراقات الهوى والتهلكة»	نزوات روائية

كما يلاحظ، كذلك، إسقاطه التعيين الجنسي في نصيه: «**مخلوقات الأشواق الطائرة**» و«**محطة السكة الحديد**»، تاركا النص غفلا من أية تسمية. فقد أثار إثبات التعيين الجنسي أو تغييبه الكثير من الجدل في أوساط النقاد. وهذه الإشكاليات - في نظرنا - تعيدنا من جديد إلى طرح سؤال كتابة النص الخراطي، وآفاق تلقي أعماله برمتها.

- هل يمكن عَدُّ تجنيس العمل الأدبي في نطاق المجال الروائي (على سبيل المثال) نوعاً من أنواع التحايل على أفق انتظار القارئ التقليدي، واستمالته إلى قراءة النص؟

- كيف نفلح في قراءة نص إبداعي يبرم أكثر من ميثاق(روائي وسير ذاتي، روائي ونقيض الروائي، واقعي ومتخيل...)، ويفسخ جميع المواثيق في الآن ذاته؟ وبتعبير آخر: كيف نقرأ نصًّا يتكون من عدَّة مواثيق في الوقت الذي يثور عليها في النص نفسه؟

مهما يكن حذق الخراط في الخداع والمخاتلة والتشويش على القارئ، بعقد أكثر من ميثاق معه(تارة تخيلي، وتارة أخرى سيرذاتي، وثالثة من منظور رواية سيرذاتية)، فإن الكتابة تتجاوز، بانقلابيتها الماكرة، نواياه المسبقة، وتصريحاته

إسكندرية» ». [٣٩]

تكمن، إذن، أهمية القوة المرجعية للرواية في قدرتها على إفراغ لفظة «رواية» من حمولتها التخييلية، ودفع القارئ إلى الاعتقاد بحقيقة ما يسرَدُ له، وتكوين صور عن الأشخاص الحقيقيين وعن حيواتهم، انطلاقا من المعلومات المقدمة عنهم في هذا العمل الأدبي؛ إذ يكفي أن يكون الضمير المهيمن هو ضمير المتكلم(فنادراً ما يورد الخراط اسم ميخائيل في هذه الرواية) لكي يكون دليلا (إضافة إلى اسم المؤلف) آخر على أن الأحداث المحكية قد وقعت بالفعل، حتى لو لم يكن القارئ يعرف شيئا عن حياة ذلك المؤلف [٤٠].

كما أن القارئ أصبح أكثر وعيا بما تثيره إشكالية التعيين الجنسي من أسئلة، وباتت له إمكانات فنية خاصة في اختيار طرائق مختلفة في القراءة عن تلك التي تقترحها عادة صيغة التعيين الجنسي(رواية أو سيرة ذاتية؟). بالإضافة إلى ميل المبدعين أكثر من أي وقت مضى إلى التعبير عن غنى حياتهم ومدى عمقها في نطاق العالم الروائي بدل العالم السير ذاتي الدقيق المعالم، اعتقادا منهم أن الرواية أكثر رحابة من السيرة الذاتية. وذاك ما يسميه الخراط بـ «كسر ذاتية السيرة» الذي يعني: «إخضاع السيرة الذاتية لبنية روائية مغايرة تفيد من جنس السيرة الذاتية لكنها لا تنصاع لقوانينه ولا تظل حبيسته».[٤١] حيث تشدنا هذه الرواية ومثيلاتها، بذلك التداخل بين الأشكال والرؤى والأساليب والنصوص. ومن هذا التداخل تتسلل إلينا فكرة الحداثة، بما هي نقيض للسكون والجمود، وتجسيد للتحول المستمر، وبحث دءوب لا يني عن مَثلٍ أعلى لا يتحقق في حيز زمني أو مكاني محدد، بقدر ما هي(الحداثة) توق متجدد أبدا ومساءلة لا تتوقف.

١ ـ ٢ ـ استحداث توصيفات تجنيسية مغايرة

الجدير بالذكر - في هذا المقام - أن الخراط شديد الهوس بالتجديد في قضايا التجنيس، وله نزوع قوي (ولا يزال) إلى توليد تسميات جنسية جديدة، سواء أكان

الأدبيين، ولا هو بالشعر أو بالسيرة الذاتية، بل هو «مغامرة روحية وأدبية، في الشكل والمضمون معًا، فلا انفصال بينهما بطبيعة الحال». (٤٢)

من ثمة، فإن تنظيرات الخراط الإبداعية هي في المحصلة الأخيرة: رؤية جديدة لمسألة الأجناس الأدبية، ترتبط هذه الرؤية عضويا بمفهوم الكتابة؛ لكونها سؤالا إشكاليًّا، ومغامرة فنية لها أسئلتها القائمة في الانشغالات الذهنية، وفي الإنجازات التي يمكن أن توصف بالتجريب بمعناه الخلاق، وذلك نظرا لما أثارته (هذه التنظيرات) من أسئلة جريئة تشمل العمليتين الإبداعية والنقدية على حد سواء، وتبحث في مواطن التعالق بينهما. فالممارسة النقدية عند الخراط هي أكثر من قراءة للنص تفسيرا أو تأويلا، إنها معرفة، بل إنها، في الآن ذاته، ابتكار معرفة جديدة بناء على معطيات النص، واستنادا إلى مكوناته الداخلية ورؤياته البانية لصرحه الفكري والفلسفي؛ إنها - من ثَمَّ - معرفة بالنص لا تتغذى ولا تنمو إلا بالتساؤل المستمر.

وبناء على هذا الفهم الناضج، يضع كل أعماله موضع تساؤل دائم، وإعادة نظر مستمرة. فالكتابة بالنسبة لديه هي فاعلية دينامية، تَتَطَيَّرُ من التكلس وتتنكب الانغلاق؛ لكون جسد الكتابة نفسه هو موضوع سؤال؛ إذ إن الجنس الأدبي المستقر الراسخ «يعني حقيقة راسخة ومستقرة، كما يعني قيدا، لعله - بمعنى من المعاني - يعني انتفاء الحرية». (٤٣)

من أجل هذه الغاية الفنية العميقة، سيسارع إدوار الخراط في بلورة معادل اصطلاحي - نقدي لتوصيف هذه الظاهرة، على المستوى النظري، بنحته للمصطلح الشهير: «**الكتابة عبر النوعية**»(٤٤)، والذي يدل على صنف من الكتابة التي تشتمل على الأنواع التقليدية، «تحتويها في داخلها وتتجاوزها لتخرج عنها، بحيث تصبح الكتابة الجديدة في الوقت نفسه « قصة - مسرحًا - شعرًا» على سبيل المثال، مستفيدة أيضا، أو أحيانا، من منجزات الفنون الأخرى، من تصوير، وموسيقا،

المعلنة (اعتبار هذه الرواية رواية وأخرى مجموعة قصصية) أو على الأقل،«تلطف» منها، وتضفي عليها طابع النسبية، الأمر الذي يخلص هذه التعيينات من صرامتها، ويجعلها أكثر مرونة لدى تلقي تلك النصوص.

فهذا التَّماس المتنوع الأشكال في كتابات الخراط يصدم أصحاب القراءة التقليدية التي طالما اعتمدت على نصوص «الحساسية التقليدية»، ومن ثَمَّ فهي كتابات تستدعي **قراءة مغايرة**، تأخذ بعين الاعتبار التّقلُّب والتنقل المتداخل بين الأجناس. وذلك ما يستفز القارئ الذي يشعر برغبة ملحة في محاولة تدجين هذا النص العصيِّ على التصنيف: أهو نثر أم شعر، أم رواية أم تاريخ، أم واقعي أم عجيب، فلا يكاد يستقر من ذلك على رأي.

ومهما يكن من أمر هذا الحجاج التجنيسي والتصنيفي المتعدد والمتشعب، (وسواء أصُنِّفتْ تلك الأعمال رواية كما اقترح الروائي أم صنفت كسيرة ذاتية، حسبما يرى القارئ - الناقد، وسواء أكانت هذه التصنيفات مألوفة أم مستحدثة)؛ فإن ما يهم في هذه النصوص أساسا، هو هذه «الحساسية الجديدة» التي تميز كتابات الخراط وغيره، والتي ترقى إلى أعلى المستويات الجمالية والفنية. وليس مهمًا بعدئذ التعيين الجنسي الذي تجلت فيه، أو الحقل الإبداعي الذي أينعت فيه هذه الكتابة، سيما وأن الحدود بين الأنواع - من منظور الخراط - واهية ورهيفة.

١ ـ ٣ ـ رهانات الكتابة عبر النوعية

بالعودة من جديد إلى ما يطرحه الخراط على صعيد الممارسة التنظيرية الرائدة في هذا المجال، نجده يعمد إلى تقويض الحدود الوهمية بين القصة والرواية، مثلما بين الواقعي والمتخيل، السيرة الذاتية والرواية، الرسالة والمونولوغ... إلخ. وروح هذه التصورات النقدية نجد له أكثر من تجلٍ فيما يكتبه الخراط على الصعيد الإبداعي. فهو لا يكتب رواية ولا قصة قصيرة، وفق المواصفات التقليدية لهذين الجنسين

الرحبة:«النص المفتوح على الأنواع الأدبية»، «منطقة ما بين الذاتيات»[٤٨]، «كسر ذاتية السيرة».

إن التعيينات الجنسية، وكذا المفاهيم النقدية لدى الخراط (مصطلح «**الكتابة عبر النوعية**»، أو«**منطقة ما بين الذاتيات**» أو«**النص المفتوح**» وغيرها...) لا تعني، من هذه الزاوية، إلغاء الأجناس الأدبية، بقدر ما تثبِّت مبدأ الحوارية بين الأجناس الأدبية تفاعليًّا، من خلال إحلال رؤية إبداعية تلغي انغلاق الجنس الأدبي أو اكتماله، وتتجاوز مأزق التجنيس الصارم والصافي نحو فكرة الاختلاط، ذلك أن «الجنس المختلط « Genre mélange» ، ما هو إلا نتيجة مواجهة بين نسقي النوعين. لكن حينما يفرض هذا الخليط ذاته باعتباره معياراً أدبياً، نكون قد دخلنا آنذاك في نسق جديد». [٤٩]

ويقدم لنا التاريخ الأدبي شواهد بينة، تبرهن على صحة ما يزعمه صاحبا المعجم المشهور(ديكرو وتودوروف) ، فمثلما تمَّ المزج بين التراجيكوميديا، فإن كل مزج آخر في هذا المضمار«منطقي وممكن». [٥٠] ونتيجة هذا التفاعل بين هذه الأجناس الأدبية وغيرها، يتِمُّ استيلاد الشكل التعبيري الجديد الذي لا يمكن أن نهتدي إليه إلا من خلال الانكباب على التحققات النصية نفسها، لا من زاوية المنظور الأحادي الضيق الأفق لمفهوم الجنس.

فكل نص ينفتح على نصوص أخرى، يدمجها في بنيته وتمنحه مظهراً مختلطًا ومتجزِّئًا. وليس للنسق الثقافي، بطبيعة الحال، وجود مستقل وثابت. إنه يتحقق في نصوص «تُداعبه أحياناً، وفي الحالات القصوى تشَوِّشُهُ وتُنَسِّبُهُ. غير أن السخرية والباروديا والانتهاك، بدل خلخلته، لا تفضي في الغالب سوى إلى تثبيت متزايد له، وانطلاقًا من فرضية أن أي سؤال يُطْرَح على مؤلِّفٍ ما يتوجه في الوقت ذاته إلى المؤلفات المعاصرة له». [٥١]

إلا أن ما يجب تأكيده، في هذا المضمار، هو أن جوهر تصور الخراط الروائي

ونحت، وسينما، ومعمار. أي إن هناك نوعًا من «التملك الشعري» للبنية السردية، في القصة – القصيدة، ولكنه لا يسود، ولا يجرف أمامه عنصر السرد». (٤٥)

إنها كتابة تشتمل على الأجناس الأدبية القديمة أو القائمة، تستوعبها وتتمثلها، ثم تتجاوزها وتتعداها. ولا ينبع ذلك من همٍّ التجديد من أجل التجديد، ببساطة، «بل همٌّ الاكتشاف، همٌّ اتصال حميم بجسد حقيقة ما، موضـوعة دائمًا موضع السؤال».(٤٦)

والحالة هذه، وجب إعادة توزيع التعيينات الجنسية، من منظور الخراط، إلى أنواع «**بسيطة**» وأخرى «**مركبة**»، مع التسليم مسبقًا بالتفاعل الحاصل ما بين هذه الأنواع – الأصول التي تشكل جزءا من الأنواع الجديدة المبتكرة.

هذا النقاش من شأنه أن يدفع بالإبداع السردي إلى تجاوز التشبث المتصلب بضرورة «الحفاظ على مقولة النمط المثالية، المطروحة للمناقشة من جراء بداهة التحولية والتعقد التاريخي».(٤٧) ذلك أن زمن الإبداع لا يشبه زمن المدركات المعقولة التي يمكن أن نطمئن إلى تصنيفها مرة واحدة وإلى الأبد؛ لأن الإبداع عالم تقع في دواخله تحولات لا يمكن القبض على معاييرها من خلال التصنيفات والتنميطات المألوفة والقبلية.

ويمكن أن نوزع التعيينات الجنسية التي تتردد كثيرا في كتابات الخراط إلى ثلاثة أنواع أساسية على النحو الآتي:

١- تعيينات جنسية تقليدية **بسيطة** تحيل إلى الأجناس الأدبية المتعارف عليها: رواية– قصة – مسرح – قصيدة...

٢- تعيينات جنسية بمثابة مقترحات مركبة نتيجة عملية مزج جنسين أدبيين تقليديين: الرواية/القصة، الرواية/الشعر، القصة/القصيدة...(أي ما يسميه الخراط بصفة عامة بـ «الكتابة عبر النوعية»).

٣- تعيينات **مفتوحة** تتأطر في مفهوم «النص المفتوح»، وذلك في امتداداته

آخر يتطابق مع ما ذهب إليه تودوروف، حيث رأى أن هناك صيغًا عديدة مقترحة لجعل أطوار التاريخ قابلة للتعقل، فتاريخ «الشعرية» شهد انتقالاً من صيغة «عضوية» (يولد شكل أدبي يتفتح، وينضج ثم يموت) إلى صيغة «جدلية» (أطروحة -النقيض - التركيب) (٥٥)؛ إذ لا يكتب لجنس أدبي أن يستقر إلا حيث توجد نصوص تجعل من أمر الجنس المستحدث واقعة أدبية حقيقية، لا مجرد افتراض نظري محض. الأمر الذي يؤدي إلى توسيع خصوصية هذا الجنس المستحدث على أكبر نطاق. وهذا هو المسعى الذي كان يتوق الخراط إلى تحقيقه في أثناء الجمع بين التنظير والإبداع.

هكذا تبدو كتابات الخراط السردية سائبة الشكل، ولا تخضع لخصائص تجنيسية صارمة قمينة بأن تضعها في خانة هذا الجنس الأدبي أو ذاك. إنها بالأحرى، كتابة بلا قيود، مضادة للتحجر المفروض من قبل قوانين الأجناس ومنطقها، نافرة من كل القيود التي قد تكبل حريتها، تنبذ كل الكليشيهات المتقادمة المفروضة على الإبداع، والبعيدة الصلة عن إيقاع الحياة الدينامي الذي يفرض، بالمقابل، رؤية جديدة أكثر عمقًا في صيغ الكتابة وأشكال التجنيس وأنساق التواصل. وهذا من شأنه تثوير بنيات النص على كافة مستوياته.

إن الخراط مفتون بلعبة التجنيس واللاتجنيس في الآن نفسه، ومولع بإرباك القارئ ذي أفق التلقي التقليدي. وهذا التثوير ينهض بالأساس على مفهوم إستراتيجي خصيب، وهو«الكتابة عبر النوعية» الذي جاء مؤشراً إلى «القطيعة الحاسمة التي بلغها الأدب العربي المعاصر في علاقته مع الأدب القديم، والإحيائي، وقطاع بأكمله من الأدب الحديث» (٥٦) ، كما يؤشر على نوع من الإيذان بزوال سلطة الشعر، تاركا موقعه لممارسات نثرية أخرى. وبذلك خفت حدة الخصومة بين قطبي النثر والشعر وتمكن الروائي، ومعه الناقد الحداثي من الخروج من شرنقة تلك الثنائية القديمة المفتعلة.

مرهون بالكتابة الإبداعية بصفة عامة، دون التقيد المسبق بمعايير قبلية صارمة في الشكل الروائي. وكأننا بالخراط ينسج أفكاره الإبداعية، ويتمتع بتخلقها على غير ما هو معروف، ويكتفي بمراقبة هذه التصورات وهي تتجنس ذاتيًّا، سواء أصبَّتْ هذه في مجرى جنس أدبي معروف أم خلقت لنفسها مجاري جديدة، على الخصوص لدى إحساس الكاتب في أثناء لحظات الكتابة، بحالة الاحتقان والانحباس في ممارسته الإبداعية. فالنص قبل أن يكون تجنيسًا، هو مشاريع إبداعية لا يُكْتَب لها أن تتحقق إلا في المنجز النصي، ذلك أن تحديد السمة التجنيسية ما هو إلا محاولة لتقريب معالم تلك المشاريع التي تكون غامضة بصفة عامة.

وفي هذا الصدد، جاء حديث محمد برادة عن «التجنيس»، الذي يرى أن قسطًا من الروايات كان مجرد تقليد أو استعارة للعناصر الروائية بدون تمثل عميق لها، إلا أنه مع رواد «الحساسية الجديدة»، يمكن «أن نتحدث عن فهم للتجنس« Géticiréné» بوصفه عنصرًا منتجًا في تكوين النص الروائي، بناء على وعي الكاتب لإمكانات الجنس وديناميته». [٥٢]

كما أن الأجناس الأدبية تتناسل من بعضها، مثلما تتناص النصوص وتحيل إلى نصوص غائبة. وهذا ما حدا بشيفر إلى القول:«إن كل نص يقوم بتعديل نوعه الجنسي»[٥٣] .. ذلك أن التركيبة الجنسية لنص محدد ما لم تكن أبدا مجرد (إلا في حالات استثنائية نادرة جدًّا) تكرار أو تضعيف للنموذج الجنسي الذي يتشكل من خلال تصنيف النصوص (المفترض مسبقًا) في سلالة النموذج الجنسي الذي يتموقع فيه. [٥٤]

وانطلاقًا مما سبق، فإن التعيين الجنسي المستحدث قد يرتبط لدى المبدع المهووس بما هو جديد بوهم شديد الإغراء، وهو «وهم خلود التعيين المستحدث» في مقابل «انقراض التعيينات الجنسية الأخرى». بيد أن المسألة بالنسبة إلينا نسبية أكثر مما هي محسومة مسبقًا لهذا الجنس الأدبي أو ذاك، ويمكن تناولها من منطلق

19- نورد رأيا لصبري حافظ يؤكد ما نروم تبليغه في هذا المجال وذلك في حوار له مع إدوار الخراط: «أنا أتفق مع النقاد الذين قالوا بأن «رامة والتنين» لا تراث لها في الرواية العربية، ومع ذلك فقد كان لا بد أن ترسي هذه القواعد وهذه التقاليد قبل أن تظهر. كان من الصعب أن تبدأ بدونها تماماً. كان من الصعب جدا أن يكتب جيمس جويس روايته «يوليسيس» قبل أن تمر الرواية الغربية برحلتها الطويلة. وفي تصوري فإن «رامة والتنين» تبدأ من محاولة نفي كل التقاليد التي أرسيت في مجال الرواية العربية».

- انظر مجلة، «عيون المقالات»، العدد 1, السنة 1986, ص: 124.

20- فيصل دراج : «نظرية الرواية والرواية العربية»، المركز الثقافي العربي، ط:1, الدار البيضاء ، 1999 ، ص:263.

21- انظر مجلة، «عيون المقالات »، العدد 1, السنة 1986, ص: 116.

22- إدوار الخراط: «أصوات حداثية »،دار الآداب، بيروت، 1999, (الطبعة الأولى) ، ص: 342.

23- يوسف شاكر: «شعرية السرد الروائي عند إدوار الخراط (ترابها زعفران، يا بنات إسكندرية، حريق الأخيلة ـ نموذجًا)» ، مجلة :«عالم الفكر»، العدد 2, المجلد 30, أكتوبر ـ ديسمبر 2001, ص:241.

24- إدوار الخراط :«مهاجمة المستحيل»، دار المدى، دمشق 1996, ص:83.

25- إدوار الخراط: «أصوات حداثية»، دار الآداب، بيروت، ط :1 , 1999,ص:240.

26- تزداد حيرة القارئ عندما تقدم له بعض الأعمال، في الآونة الأخيرة، بدون تعيين جنسي، وإن كان هذا الصنيع يؤذن بوضعية النص الإشكالية التي حدت بجونيط إلى القول: «إن عمل بروست الشهير: «بحثًا عن الزمن الضائع» لا يحمل أية علامة تجنيسية، وأن هذا الكتمان يتلاءم تماماً مع الوضعية الملتبسة لهذا العمل الذي يوجد في مفترق الطرق بين السيرة الذاتية والرواية ».

- Gérard Genette: (Seuils)، Ed. Seuil, coll. Poétique, Paris, 1987, p: 92.

27- Ph. Lejeune: (Moi aussi)، Ed. Seuil, Paris, ,6891 p :.24

28- Ibid. p : 34

29- صالح فخري :«رامة والتنين: تشريح العشق»، مجلة:«المهد» (الأردن)، العدد 5, السنة 1985, ص:49.

30- أحمد المديني: «أركيولوجيا القلب والذاكرة»، مجلة: «كتابات معاصرة»، العدد 13, المجلد الرابع، شباط/آذار 1992، ص:80.

31- حوار مع إدوار الخراط، أجراه صبري حافظ، مجلة «عيون المقالات»، العدد 1, 3 يناير، 1982،

المراجع

١- Jean-Marie Schaffer: (Qu'est ce qu'un genre littéraire)، Ed Seuil, Paris, 1989, p: 183.

2- عبد النبي أصطيف: «هامش الحرية في الممارسة الأدبية» مجلة: «فصول»، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، ربيع 1992، ص:50.

3 - عبد الفتاح كليطو: «المقامات »، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، ط:1, 1993, ص:8.

4 – Tzvitan Todorov :(Poétique de la prose)، Ed : Seuil, 1978, p: 95.

5–Wolf Dieter Stempel :(Aspects génériques de la réception)، in: (Théorie des genres)، Ed Seuil, Paris, 1986, p :170.

6–Jean-Marie Schaffer : (Qu'est ce qu'un genre littéraire)، Op., Cit., p: 151.

7–Vincent Jouve: (L'effet-Personnage dans le roman)، Presses universitaires de France, Paris, 1992, p: 120.

8– Jean- Marie Schaffer : (Qu'est ce qu'un genre littéraire)، Op., cit., p : 35.

9– Ibid. , p: 80.

10– Umberto Eco : (Six promenades dans les bois du roman et d'ailleurs)، Ed. Grasset, Paris, 1996, p: 159.

11- بيرنار فاليط: «النص الروائي، مناهج وتقنيات»، ترجمة: رشيد بنحدو، سيليكي إخوان،ط:1 ، 1999، ص:22.

12– Hans Robert Jauss: (Pour une esthétique de la réception)، Ed. Gallimard, Coll. Bibliothèque des idées, Paris, 1978, p : 50.

13- السيد إبراهيم : «نظرية الرواية»، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص:99.

14– Hans Robert Jauss: (Pour une esthétique de la réception)، Op ., cit. , p : 50.

15– Jean - Marie Schaffer : (Qu'est ce qu'un genre littéraire)، Op., cit., p :128.

16– Ibid., p :129.

17- يمكننا تجاوز مفهوم «الرواية» «Le roman»: أي الرواية بما هي ماهية ثابتة لا تعرف التحول، ولا يلحقها التغيير، وإحلال مفهوم «الروائي» (أو الرومانيسك في ترجمات أخرى) «Le romanesque» محلها، ما دام فعل الكتابة الروائية هو فعل دينامي غير ثابت ولا جامد.

18– Philippe Lejeune :"Moi aussi"، Op. cit. , p: 37.

47- فيليب لوجون :«السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي»، ترجمة عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء،1994, ص:90.

48- إن منطقة :«ما بين الذاتيات» هي المدماك المتين الذي تنهض على أرضيته أعمال الخراط الروائية. فهذه المنطقة: «ليست منطقة «الذاتية»، ولا أيضًا منطقة التجريدات. أظن، أن هذه المنطقة الغامضة هي ساحة العمل الفني».

- يراجع إدوار الخراط: «السؤال والمعرفة »(حوار) ، مجلة: «مواقف»، العدد 69, 1992, ص:37.

49 – Oswald Ducrot/Tzvetan Todorov :"Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage"، Ed. Seuil, 1972, p-p:195 - 196.

50 – Ibid., p :196.

51- عبد الفتاح كليطو: «المقامات»، مرجع سابق، ص:8.

52- محمد برادة: «أسئلة الرواية أسئلة النقد»، منشورات الرابطة، ط:1, الدار البيضاء، 1996,ص:188.

53–Jean -Marie Schaffer : "Du texte au genre. Notes sur la problématique générique"، in "Théorie des genres"، Ed Seuil, Paris, 1986, p: 197.

54–Ibid., p:197.

55– Tzvetan Todorov : "Poétique" ، Ed du Seuil , 1968, p: 97.

56 - بطرس الحلاق: «وظيفة الأدب في نظر تيار «عبر النوعية» »، مجلة: «فصول»، المجلد السادس عشر، العدد الثالث، شتاء 1997, ص:0.58

ص:132.

32- صبري حافظ: «أفق الخطاب النقدي»، دار شرقيات، ط :1 ، 1996, ص ـ ص:50 ـ 51.

33- تجدر الإشارة مرة أخرى إلى وجود بعض الاختلاف بخصوص التعيين الجنسي، وذلك من دار نشر إلى أخرى. فعندما قلنا إن نص «محطة السكة الحديد» يخلو من أي تعيين جنسي، فقد كان مرجعنا في ذلك هو طبعة النص الثانية المنشورة في بيروت عن «دار الآداب» للنشر 1990, في حين يبدو أن صبري حافظ يعتمد طبعة أخرى تتضمن التعيين الجنسي «رواية» ، وبذلك وجب التنبيه.

34- صبري حافظ: «حول «محطة السكة الحديد» الحساسية الجديدة واستخدامات المكان والأدبية»، جريدة: بيان اليوم (الملحق الثقافي)، الاثنين، 30 ماي 1994,ص: 2.

35- أحمد المديني: «حفريات في سرد البدد»، ضمن كتاب:«لقاء الرواية المصرية المغربية قراءات»، المجلس الأعلى للثقافة، 1998, ص: 169.

36- إدوار الخراط: «مهاجمة المستحيل»، منشورات دار المدى،سوريا، 1996,ص:117.

37- أحمد المديني: «حفريات في سرد البدد»، مرجع سابق، ص: 168.

38- المرجع نفسه، ص:173.

39- إدوار الخراط : «مهاجمة المستحيل، مقاطع من سيرة ذاتية للكتابة»، مرجع سابق، ص:87.

40- Ph. Lejeune:"Moi aussi"، Op. cit., p: 47.

41- إدوار الخراط: «أصوات حداثية»، مرجع سابق، ص: 253.

42- إدوار الخراط: «مهاجمة المستحيل، مقاطع من سيرة ذاتية للكتابة»، مرجع سابق،ص:29 .

43- المرجع نفسه، ص:64.

44- يتوقف الخراط مليا عند مفهوم «الكتابة عبر النوعية»، وذلك في معرض حديثه عن «القصة – القصيدة»، محاولا أن يضع معيارا للتمييز بين «القصة ـ القصيدة» من ناحية، وبين «القصيدة – البحتة» من ناحية ثانية. ويقوم هذا المعيار على عنصرين أساسين:

الأول: هو أن تكون للسرد أولوية ومكانة في العمل، لا بمجرد وجوده، بل بالقصد إليه، واتخاذ تقنياته الخاصة، بحيث تظل هناك «حكاية» (أي تطور حدثي وتركيب في الوقائع).

الثاني: هو موسيقية العمل الفني، فإذا كانت البنية الموسيقية تحتل المكانة الأولى في العمل، فإنه يميل إلى «القصيدة البحتة». ومن ثمة، فإن القصيدة البحتة تكون بنيتها موسيقية وليست سردية، في حين أن «القصة ـ القصيدة» تكون بنيتها في سرديتها لا في موسيقيتها.

45- يراجع كتاب :«الكتابة عبر النوعية»، دار شرقيات، ط:1, 1994,ص:13.

46- إدوار الخراط: «مهاجمة المستحيل، مقاطع من سيرة ذاتية للكتابة»، مرجع سابق، ص:29.

The position of Omani syntactical poems among their similar Arabic once
A historical and critical study

Dr. Mohammed Jamal Saqaer

Abstract

Between the second and the thirteenth Hijri century some scholars dedicated themselves to the study of Arabic syntactical poems.

They came out with a conclusion that it was a part of the syntactical history regardless of time and place. But I have found that their conclusion was not absolutely right, particularly the section related to Oman.

Therefore, this paper aims at a thorough historical and critical study of the syntactical poems in all their forms, the Arabic ones in general and the Omanis in particular, including the very special Al - Zamillyyah Al-Kharousiyyah.

The survival of the syntactical poems as an art proves its strong presence in the history of Arabic syntax and, also, the creativity of its scholars.

المنظومات النحوية العُمانيَّةُ
بين المنظومات النحوية العربية
تأريخ ونقد

د. محمد جمال صقر *

الملخص

انقطع بعض الباحثين؛ لاستقراء المنظومات النحوية ، منذ القرن الهجري الثاني، إلى الثالث عشر ، على أنها حلقة من تاريخ النحو ، ولم يمنعه من ذلك طول زمان ، ولا إطلاق مكان ؛ فكان في عمله إخلال شديد بماضيها، وحاضرها، وبعيدها، وقريبها، ولا سيما في عمان التي تيسر لي أن أطلع على طرف من حياتها بها .

أقبلت أعرض بنقد عمله أوَّلا ، للمنظومات النحوية العربية ، وبتأريخ العمانيات ونقدها ثانيًا ، للمنظومات النحوية العمانية ، وبما اصْطَفَيْتُهُ منها آخرًا ، لما يَزيدُ العملَ عُمْقًا والقارئَ نَفْعًا .

ولعل هذا البحث قد وُفّقَ إلى بيان ما يقوم بالمنظومات النحوية : العربية على العموم ، ثم العمانية على الخصوص ، ثم الزاملية الخروصية على خصوص الخصوص – من دلالة قوية بديعة على وجه من تاريخ النحو . أما قُوَّتُها فَبِبَقائها إلى الآن ؛ فليس أقوى من الدليل الباقي ، وأما بَداعَتُها فَبِصُدورِها عن نُزوع العلماء إلى الفن ؛ فليس أبدع من الدليل المُرَكَّب .

* أستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

ولكننا لا نعدم أن نصادف، نحن العرب وغيرنا ، من كان عالما أكبر منه فنانا ، أو فنانا أكبر منه عالما ؛ فنجده قد لبس لحالٍ ، لبوسَي الحالين جميعا معا ؛ فمزج علمه الكبير بفنه، أو فنه الكبير بعلمه . ولم يكن عمل أستاذنا السابق ذكره ، إلا مزاجا من علم اشتغل به، وفن نزع إليه . وعلى رغم أنه لم يتخرج في علم العروض ، ينتسب إلى « الشّعْرِ التعْليميّ » ، الذي أنتج ظاهرة « نَظْمِ العُلومِ ».

[2] لقد كان من آثار مزج علماءِ العرب الشعراءِ ، الأكبر علما منهم فنا ، علم اللغة بفن الشعر منذ زمان الأمويين – نشأة نمط من الشعر ، تحتشد فيه مادة اللغة الصوتية، والصرفية، والمعجمية، والنحوية ، المتروكة في الاستعمال، أو الملتبسة ، وكأنها التُّحَفُ في المعارض – أعجبَ العلماء الذين يجمعون اللغة ، والأمراء الذين يجمعون الشعراء [٣] ، وقدموا أصحابه ، حتى بلغ السيل الزبى ؛ فقدم عقبةُ بن سلم الأميرُ العباسيّ ، عقبة بن رؤبة بن العجاج ، على بشار بن برد ، الذي كان فنانا كبيرا، شاعرا، وعالما كبيرا لغويا ، يعرف لكل منهما موضعه، ولبوسه ، ويأتيه العلماء إلى بيته ليأخذوا عنه ؛ فاحْتَفَزَ إلى أن غدا عليه بأرجوزته :

« يا طَلَلَ الْحَيِّ بِذاتِ الصَّمْدْ   بِاللهِ خَبِّرْ كَيْفَ كُنْتَ بَعْدي»

التي تحرى فيها مزج فنه الكبير بعلمه الكبير ، ليدله على منزلته ؛ « فطرب عقبة بن سلم وأجزل صلته، وقام عقبة بن رؤبـــة ، فخرج عن المجلس بخزي ، وهرب من تحت ليلته فلم يعد إليـــه» [٤].

ثم تأصل هذا النمط حتى صار مضمارا تعليميا منظوما ، يوازي المضمار المنثور، ويجري فيه العلماء المعلِّمون من حفظ أبواب مادة اللغة المختلفة نفسها ، على ما يناسب مراتب المتعلمين الثلاثة المشهورة : المبتدئين ، والشادين ، والمتخصصين ، ويسهّل عليهم حفظها وذكرها متى شاءوا [٥].

ولقد انقطع بعض الباحثين ، لاستقراء المنظومات النحوية ، منذ القرن الهجري الثاني ، إلى الثالث عشر ، على أنها حلقة من تاريخ النحو [٦] ، ولم يمنعه من ذلك

مقدمة

[1] كأني بي تلميذًا بالصف الخامس الابتدائي ، أعَلِّقُ عينيَّ بيديْ أستاذي القدير محمد عثمان ، يحركهما كفعل قادة الفرق الموسيقية ، وأذنيَّ بصوته ، يغني قوله الذي لم أكن أعرف أنه لا يتخرج في علم عروض الشعر العربي ، وأنه إنما انتفع بخصائص الموسيقا (الغناء) :

« اَلْمُثَنّى يُرْفَعُ بِالْأَلِفْ

وَيُنْصَبُ وَيُجَرُّ بِالْيااءْ » !

مادًّا ألف « الياء» ، حتى يَقَرَّ لها قَرارٌ يُرضيه !

ثم يدعونا إلى مشاركته ؛ فيضج الفصل جدا ولهوا ، وانتظاما وانتثارا ، وطربا وعبثا ، ولكنه يسكن إلى نقش ذلك في سويداء قلبه !

لا ريب لدي الآن ، في أن أستاذنا القدير في ذلك الزمان العزيز ، كان حريصا على تثبيت ذلك الباب النحوي في عقولنا ، بوَصْلنا بحركة الإيقاع بحيث تنتقل إلينا ، على الوجه نفسه الذي يكون في طرفي علاقة الاتصال الموسيقي، أو علاقة الاتصال الشعري (1) .

ولكن لا ريب لدي أيضا ، في أنه كان طروبا ، استخفَّتْهُ آنئذ ، نشوة أذهلته عما حوله ؛ فأقبل يغني عبارته التعليمية .

لقد اتصل فيه ينبوع العلم بينبوع الفن ، وكان معلما خبيرا حفيا ؛ فانتدب يَمَسُّنا ببعض ما وَجَد .

وعلى رغم سعي العالم والفنان الكبيرين كليهما ، إلى الحقيقة نفسها كثيرا ، لم نصادف نحن العرب ولا غيرنا ، من كان عالما كبيرًا، وفنانا كبيرا جميعا معا ، إلا في الزمان الطويل، بعد الزمان الطويل ؛ لأن اصطناع العلم، واصطناع الفن ، حالان مختلفتان ، لكل منهما لبوس ينبغي أن يلبسه لها صاحبها ، ولن يلبس أحدهما ، حتى ينضو الآخر (2) !

الأعراف العمانية ؛ فهذا السالمي الحبر العماني الشهير ، يقول في أرجوزته الواقعة في ثمانية وعشرين ومئتي ٢٢٨ بيت : « هذه منظومة في تفصيل الجمل » (١٤) .

[5] وجانب المنظوميُّ جادةَ الصواب في تخريجه لبعض المنظومات ، في علم العروض .

لقد جعل مثل هذا المقدار :

« الْحَمْدُ للهِ الَّذي تَعالى وَاسْتَخْلَصَ الْعِزَّةَ وَالْجَلالا » ،

من منظومة الحريري « ملحة الإعراب » ، وهو مطلعها ، ومثله غيره – بيتا من الرجز المشطور المزدوج (١٥) ، ومقتضى المشْطوريَّة أن يكون بيتين ، كما قال الصبان في ألفية ابن مالك : « على أنها من كامله (كامل الرجز) ، يكون مثلا :

(قالَ مُحَمَّدٌ هُوَ ابْنُ مالِكِ أَحْمَدُ رَبِّي اللهَ خَيْرَ مالِكِ)

بيتًا مصرعًا (...) وعلى أنها من مشطوره ، يكون مثلًا :

(قال محمد هو ابن مالك) بيتاً، و(أحمد ربي الله خير مالك) بيتا » (١٦) .

وربما أراد المنظوميُّ بكلمة « المشطور ، كلمة « المُشَطَّر » ، دلالة على بناء المنظومة على تنسيق شطري الرجز ، فالتبستا عليه ، ولو قد ذكرها لأصاب .

وجعل منظومة الخليلي التي مطلعها :

« للهِ ذي الْعِزِّ الَّذي رَفَعَ الْعلا فَاحْمَدْ وَصَلِّ عَلى النَّبيِّ وَمَنْ تَلا » ،

أرجوزة (١٧) ، وهي كاملية ظاهرة (بمتفاعلن) السالمة في هذا المطلع نفسه ، ثالثًا وخامسًا وسادسًا ، وكأنه تعجل فاكتفى بالأوليين اللتين على (مستفعلن) ، ولو تأمل لذكر أن (مستفعلن) نفسها في الرجز ، كثيرة التغير (١٨) .

وجعل منظومة ابن معط التي مطلعها :

« يَقولُ راجي رَبِّه الْغَفور يَحْيى بْنُ مُعْطِ بْنِ عَبْدِ النّورِ (...)

وَبَعْدُ فَالْعِلْمُ جَليلُ الْقَدْرِ وَفي قَليلِه نَفادُ الْعُمْرِ (...)

وَذا حَدا إِخْوانَ صِدْقٍ لي عَلى أَنِ اقْتَضَوْا مِنّي لَهُمْ أَنْ أَجْعَلا

طول زمان ، ولا إطلاق مكان ؛ فكان في عمله إخلال شديد بماضيها، وحاضرها ، وبعيدها، وقريبها ، ولا سيما في عمان التي تيسر لي أن أطلع على طرف من حياتها بها ؛ فرجوت أن أشاركه فيما صبا إليه ، بشيء من نقد عمله، وتأريخ العمانيات ونقدها ، ولا سيما أنه اتخذ دعوتنا إلى المشاركة ، عذرةً من التقصير .

ولما لم يكن بد من تمييزه هو وحده من غيره في أثناء نقده ، نسَبْتُه « بالمنظوميّ »، إلى المنظومات التي درسها ، وجعلها في عنوان عمله .

ثم أقبلت أعرض بنقد عمله أولا ، للمنظومات النحوية العربية ، وبتأريخ العمانيات ونقدها ثانيا ، للمنظومات النحوية العمانية ، وبما اصطفيته منها آخرا ، لما يزيد العمل عمقا، والقارئ نفعا .

الْمَنْظوماتُ النَّحْوِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ

[3] لم يشر المنظوميُّ ، إلى قول بعض الباحثين الذين رجع إليهم واعتمد عليهم : « موضوع (المنظومات النحوية : تاريخها وأهميتها العلمية) ، محور لبحث ما زلت أجمع خيوطه، وأعمل فيه ، ولم أنته منه بعد » (٧) ، الذي يشهد بالسبق ، ويقتضي الإشارة ، وإن لم ينته من بحثه المذكور إلى الآن !

[4] واستعمل المنظوميُّ ، كلمة « منظومة » ، مصطلحا على مجموعة الأبيات المنظومة في أبواب الصرف والنحو ، لا كلمة « قصيدة » ، وفيه مراعاة لخروج المنظومات عن شرط الشعر (٨) ، على رغم استعمال القدماء لها (٩) – ولا كلمة «أرجوزة » ، لخروجها كما سيأتي ، عن بحر الرجز أحيانا ، ولا كلمة « ألفية » ، لخروجها عن شرط العدد (١٠) ، ولا كلمات « ميمية أو لامية أو ... » ، لخروجها عن الروي الواحد (١١) – ولا كلمة « نحوية » ، لخروجها عن احتمال النثر (١٢) .

ولا بأس بما استعمل ، ولا سيما أنّ قد استعمله أبو العلاء المعري لمثل هذا التعميم، في أثناء ضبطه لأجزاء قافية كل كلام موزون (١٣) ، على أن يذكر أنه صار من

لقد كان ينبغي له ألا يضيع ما عكف عليه ، ولا من عكف له ؛ فينقدها جميعا تبويبا وترتيبا، ومحتوى، ومستوى ، كما تنقد كتب النحو التعليمي ، ويصنفها على حسب ما يؤديه نقدها [٢٧] ، ويختصها بشيء من نقد الشعر، الذي نزع إليه أصحابها .

ولكنه آثر السلامة ؛ فصنفها بأعداد أبياتها ، إلى منظومات غير ألفية (دون الألف بيت) ، ومنظومات ألفية (قرابة الألف بيت) ، وكأنه أمن أثر العدد في تمييزها ، من حيث تعلقه باجتهاد الناظم في نظم أكثر مسائل العلم ، و لو طلب الناظم كثرة الأبيات، لوجدها فيما لا طائل وراءه ، ولو طلب استقصاء المسائل؛ لجاءه الطول عفوا .

وعلى رغم ذلك، وقع له في القسم الأول بعض ما ينتمي إلى الآخر ، مثل منظومة اليشكري التي نَيَّفت على ألفي ٢٠٠٠ بيت [٢٨] ، وجانبه الصواب في عد أبيات بعض المنظومات ، مثل ذكره لمنظومة الحريري ، على أنها خمسة وسبعون وثلاثمئة ٣٧٥ بيت [٢٩] ، بزيادة بيت [٣٠] ، ولمنظومة الشبراوي ، على أنها خمسون ٥٠ بيتا [٣١] ، بنقص ثلاثة أبيات [٣٢] .

[7] ذكر المنظوميُّ في عنوان عمله ، أن المنظومات « حلقة من تاريخ النحو » ، وكأنها ظاهرة كانت في القرن الهجري الثاني ، ثم زالت في القرن الهجري الثالث عشر (مجال عمله) ، على رغم طول مدة الاثني عشر قرنا عن أن تسمى « حلقة » ، وعلى رغم أنه ذَهَلَ عن منظومة البنّاني (ت١٣٤٠هـ) ، بعد زمان من حدٍّ منتهى بحثه ؛ فذكرها أخيرا [٣٣] ، وكأنه رجح أن يكون نظمها قبل أكثر من أربعين سنة من وفاته !

ولو قد اطلع على ما اطلعت عليه من مادة عمانية مستمرة إلى يومنا هذا ، لجعل المنظومات « وجها » من تاريخ النحو . ولكن كيف ، وهي وجه كئيب ينبغي أن يكسف!

لقد كانت المنظومات لديه ، متونًا منظومة ، أسوأ أثرا من المتون المنثورة ؛ إذ النثر أقدر على « عرض القواعد ، وشرحها ، وتوضيحها ، من النظم وقيوده، وضروراته»[٣٤] – نشأت لملاءمة مراتب المتعلمين، النظاميين، العاجزين عن مراجعة المصادر

أُرْجوزَةً وَجيزَةً فِي النَّحْوِ عدَّتُها أَلْفٌ بِغَيْرِ حَشْوِ (...)

لا سيَّما مَشْطورُ بَحْرِ الرَّجَزِ إذا بُني عَلى ازْدِواجٍ موجَزِ »

– من بحري الرجز والسريع جميعا معا [١٩] ، آخذا دون تصريح بقول الصبان في بيان قول ابن مالك « فائقة ألفية ابن معط » : « أي عالية في الشرف . وإنما فاقتها لأنها من بحر واحد ، وألفية ابن معطي من بحرين ؛ فإن بعضها من السريع وبعضها من الرجز ، ولأنها أكثر أحكاما من ألفية ابن معطي » [٢٠] ، وكأنه لا يجيز (مستفعلْ) المقطوعة ، أو (متفعلْ) المخبونة المقطوعة ، في أعاريض الرجز وضروبه ، مع (مستفعلن) السالمة ، و(مستعلن) المطوية . وفي ذلك إهمال عجيب لقول ابن معط نفسه ، السابق الذي بين يديه ، وقول بعض من عول عليهم من العروضيين : « اتفقوا على جواز استعمال القطع مع التمام في ضرب الأرجوزة المشطورة ، إجراء للعلة مجرى الزحاف ، لقول امرأة من جديس :

لا أَحَدٌ أَذَلُّ مِنْ جَديـــسِ   أَهــكَذا يُفْعَـلُ بِالْعَروسِ

يَرضى بِهذا يا لَقَوْمي حُــرُّ   أَهْدى وَقَدْ أَعْطى وَسيقَ الْمَهْرُ

لَخَوْضُهُ بَحْرَ الرَّدى بِنَفْسِهِ   خَيْرٌ مِنَ انْ يُفْعَلَ ذا بِعِرْسِهِ » [٢١] .

[6] أراد المنظوميّ بالنحو الذي جعله هَمَّهُ، ونعتًا للمنظومات في عنوان عمله ، أحكام صياغة الكلم، والجمل جميعا معا ، أي مفهومه القديم، الواقع في كلام ابن جني[٢٢] ، المستمر في كلام ابن عصفور [٢٣]، ثم في كلام بعض شراح ألفية ابن مالك[٢٤] ، ثم لم يتجاوز في نقد ما وقع له من منظومات ، عناوين موضوعاتها، وشيئا من أبياتها، وشيئا من ترجمات أصحابها .

ولئن كان ذكر في مقدمته ، أنه يولي ألفية ابن مالك « عناية خاصة ؛ لما لناظمها من حرص واضح على نظم علوم العربية، والقراءات في عدة قصائد وأراجيز » [٢٥]، لقد اكتفى بشيء من تعريفها ، وشيء من أسباب وفرة شروحها ، وأفاض في تعديد شُرّاحها والتعليق بشيء من ترجماتهم [٢٦] .

عصفور[٤٤] ، وفي « منظومة السيوطي » ، وهي تلخيص لألفية ابن مالك، مع زيادة فوائد [٤٥] !

[10] لم يعثر المنظوميُّ على رغم الزمان الطويل، والمكان المطلق ، إلا على خمسين منظومة فقط ؛ فاعتذر بقوله في مقطع مقدمته : « هذا جهدي أقدمه للقارئ ، ولا أزعم – على الرغم من المتابعة، والسعي إلى التقصي – الإحاطة بالمنظومات النحوية إحاطة تامة ، وآمل أن يوفق غيري في متابعة ما شرعت فيه ، وإحياء هذا الجانب الهام من التراث النحوي » [٤٦] .

وعلى رغم أنها غيض من فيض يحتاج استيعابه إلى طائفة من الباحثين ، استحسنت أن أرتبها كلها فيما يلي ، وأضبطها ، وأجَدْوِلها ، وأعلق عليها ؛ عسى أن أوفق إلى الإضافة إليها : (انظر إلى الجدول في الصفحة التالية)

[11] على رغم تعديد كثير من الناثرين لمتونهم المنثورة ، اكتفى أغلب الناظمين بمنظومة واحدة ، إلا ابن مالك ، وابن مكتوم ، والسجلماسي ؛ فلكل منهم منظومتان أو أكثر .

أما أولهم فقد خص بابا من علم الصرف ، بمنظومته المشهورة «لامية الأفعال»[٤٧]، التي طوى المنظومي ذكرها في تضاعيف قوله : « نظم ابن مالك صاحب الخلاصة الألفية ، قصائد وأراجيز عدة ، نكتفي بالوقوف عند (الخلاصة الألفية) لأنها أشهرها » [٤٨] – وكانت جديرة بالذكر فيما سماه المنظومات غير الألفية . ثم صنع في أبواب كثيرة من علمي النحو والصرف ، منظومة طويلة في ثلاثة آلاف بيت، ثم منظومة مختصرة منها إلى ثلثها .

وأما ابن مكتوم ففي كل من منظومتيه باب من علم النحو، غير الذي في الأخرى.

وأما السجلماسي فمنظومته الأولى في علم الصرف، والثانية في علم النحو .

وبفهم تلك الدواعي، يظل صحيحا اكتفاء الناظم دون الناثر ، بمتن واحد ، وكأنه يستفرغ فيه عادةً ، وُسْعَهُ ، بحيث لا يجد ، أو لا يحب أن يجد ما يقوله .

الكبيرة ؛ فمَكَّنَتْ لأسلوب التلقين ، وزادت العلوم بشدة إيجازها غموضا ، واضطرت أصحابها، أو تلامذتهم، أو خلفهم ، إلى شرحها ، ثم أخنى عليها الدهر بعد ذهاب أصحابها ؛ فذمها ابن خلدون بالفساد والإخلال (٣٥) .

ولقد ينبغي أولا أن نميز في ذم ابن خلدون ، بين المتون؛ إذ تلقى على المبتدئين ، وبينها إذ تلقى على المتخصصين ؛ فهو « إنما كان يعني أنها قد تكون غير ملائمة للمبتدئين، الذين لم يستعدوا بعدُ لقبولها ، فيصعب فهمها عليهم ، فينصرفون من أول الأمر عن العلم، الذي هم في حاجة إليه » (٣٦) .

ثم ينبغي ثانيا أن يراعي صدورها عن نزوع العالِم الفني ، الذي يعوقه استيلاء علمه، وتعليمه عليه ، عن أن يسلك إلى تلبيته مسالكه المعروفة عند الفنانين المنقطعين لفنهم – فيتأمل « ما يدل على براعة المصنف، وتمكنه من علمه، وقدرته على الصياغة المنظومة » (٣٧) .

[8] لم يُحْكِم المنظوميُّ ضبْطَ ترتيب المنظومات التاريخيِّ بوفاة ناظمها ، الذي نص على اتباعه (٣٨) ؛ فترك بعضها يتقدم على بعض، أو يتأخر ، كما في تقدم منظومة الحيدرة اليمني (ت٥٩٩هـ)، على منظومة ابن الدهان (ت٥٦٩هـ) (٣٩) ، ومنظومة الشبراوي (ت١٠٩١هـ) ، على منظومة ابن الجمال (ت١٠٧٢هـ) (٤٠) .

[9] استثنى المنظوميُّ من المنظومات (المتون المنظومة) الجديرة بنظر بحثه ، ما كان تلخيصا لغيره من المتون (المنثورة) ، من حيث كان محمولا على عمل أصحاب هذه المتون ، غير خالص لأصحاب المنظومات أنفسهم (٤١).

ولا ريب في حصافة حصره لمادة بحثه ، فيما خلص للناظم أصلا وفصلا ؛ إذ هو أجدر بأن يدله على منهج مثل هذا النوع من المتون وأسلوبه ، غير أنه لم يقف عند ما اشترط على نفسه ؛ فنظر في « منظومة الرودكي » ، وما هي إلا نظم لكافية ابن الحاجب (٤٢) ، وفي «منظومة ابن الوردي» ، وما هي إلا نظم للمحة أبي حيان (٤٣) ، وفي « منظومة ابن اللبان » ، وفيها كثير من فوائد تسهيل ابن مالك، ومقرب ابن

16			-	-	قصائد وأراجيز	-
17	محمد بن عبد الله ابن مالك الطائي	672	قرابة ثلاثة آلاف	-	أرجوزة	النحو والصرف (أبواب كثيرة)
18			1002	9	مشطرة أرجوزة	
19	حازم القرطاجني	684	217	2	عمودية بسيطة ميمية مفتوحة	النحو
20	محمد بن أحمد ابن اللبان	709	-	-	-	النحو والصرف (كثير من فوائد التسهيل والمقرب)
21	محمد بن مصطفى الدوركي	713	-	-	-	النحو والصرف (نظم كافية ابن الحاجب)
22	محمد بن الحسن الحلبي	735	-	1	كاملية	النحو
23	أحمد عبد القادر ابن مكتوم	749	28	-	طويلة	النحو (مواضع حذف العائد على الموصول)
24			14	2	عمودية طويلة رائية مفتوحة	النحو (مواضع الابتداء بالنكرة)
25	الحسن بن قاسم المرادي	749	-	-	-	النحو (معاني الحروف)
26	عمر بن المظفر ابن الوردي	749	150	3	مشطرة أرجوزة	الصرف والنحو (نظم لمحة أبي حيان)
27	محمد بن عيسى السكسكي	760	-	-	-	الصرف
28	يوسف بن محمد السرمري	776	162	3	عمودية بسيطة لامية مفتوحة	النحو
29	محمد بن محمد ابن الخراط	778	71	2	عمودية طويلة لامية مفتوحة	النحو (نظم الجمل وتلخيص قواعدها)
30	عبد الرحيم بن علي الإسنائي	779	-	-	-	النحو

م	الناظم	وفاته	عدة منظومته	الأمثلة منها	بحرها	موضوعها المذكور
1	الخليل بن أحمد الفراهيدي	175	293	5	عمودية كاملية بائية مضمومة	النحو (أبواب كثيرة)
2	علي بن حمزة الكسائي	189	-	3	عمودية رملية عينية ساكنة	النحو (فضله)
3	أحمد بن منصور اليشكري	370	أكثر من ألفين	3	مشطورة أرجوزة	النحو والصرف (أبواب كثيرة)
5	محمود بن حمزة الكرماني	505	-	2	عمودية وافرية عينية مضمومة	الصرف (موانع الصرف)
4	القاسم بن محمد الحريري	516	375	5	مشطورة أرجوزة	النحو والصرف
6	أحمد بن عبد العزيز الشنتمري	553	-	-	-	النحو
7	سعيد بن المبارك ابن الدهان	569	36	1	طويلية	النحو (عويص الإعراب)
8	علي بن المبارك ابن الزاهدة	594	-	2	عمودية طويلية بائية مضمومة	النحو (عويص الإعراب)
9	علي بن سليمان اليمني الحيدرة	599	8	2	عمودية طويلية رائية مكسورة	الصرف (جموع التكسير)
10	الحسين بن أحمد ابن خيران	600	-	1	أرجوزة	النحو
11	سالم بن أحمد المنتجب التميمي	611	-	-	أرجوزة	النحو
12	يحيى بن عبد المعطي	628	1021	15	أرجوزة	النحو والصرف (أبواب كثيرة)
13	يوسف بن إسماعيل ابن الشواء الحلبي	635	-	1	كاملية	الصرف (الأفعال)
14	عثمان بن عمر ابن الحاجب	646	-	-	-	النحو
15	ناظم سنة 657 مجهول	-	130	2	عمودية وافرية كافية مفتوحة	الصرف

46	خلف بن عبد المطلب الهرموزي (من أبناء القرن الحادي عشر)	-	-	-	أرجوزة	الصرف
47	عبد الرحيم بن محمد الطوافي	1123	-	-	-	النحو (مسوغات الابتداء بالنكرة)
48	حسن بن محمد العطار	1250	57	1	طريقة	النحو (قواعد الإعراب)
49	يوسف بن عبد القادر البرناوي (من علماء القرن الثالث عشر)	-	-	-	-	النحو (قواعد الإعراب)
50	أحمد بن محمد البناني	1340	-	-	أرجوزة	الصرف

[12] وعلى حين تكاثرت المنظوماتُ والقرونَ ، خلت منها القرون: الأول، والثالث ، والخامس ، واختلّت مسيرتها بالقلة الظاهرة في القرنين التاسع والعاشر . أما خلو القرون الأولى فمن علامات النشأة، وأحوال الجِدَّة ، وأما قلة حظ القرنين التاسع والعاشر ، فمما يحتاج إلى مراجعة .

[13] وإذا أغضينا للمنظوميِّ عن إغفاله الاستشهاد ببعض أبيات المنظومات الغائبة ، من مثل منظومة الشنتمري [٤٩] ، ومنظومة الدوركي [٥٠] - لم نغض له عن فعله ذلك بالشاهدة ، من مثل منظومة ابن الحاجب [٥١] ، والمرادي [٥٢] ، مهما تكن معرفتنا بها ؛ فهو مما يعين المتلقي على تصورها ، ولن يكلفه شططا ، فضلا عن أنه عمل أصيل في التأريخ العربي للعلوم من قديم إلى حديث .

[14] ولقد منعتني مشكلة الفقرة السابقة ، من تخريج بعض المنظومات في علم العروض ، أو من إتمام تخريجها ، ولكنني استطعت أن أقف على هاتين السمتين العروضيتين التاليتين :

31	أحمد بن منصور الأشموني	809	-	-	لامية	النحو
32	عبد العزيز بن عبد العزيز المكناسي	880	قرابة ألف	-	-	النحو (أبواب كثيرة)
33	جلال الدين السيوطي	911	قرابة ألف	7	مشطورة أرجوزة	الصرف والنحو (تلخيص ألفية ابن مالك وزيادة، وفي الخط)
34	زين الدين بن علي العاملي	966	-	-	-	النحو
35	أحمد بن أبي بكر النسفي	1007	-	-	-	النحو
36	أبو السعود بن علي القسطلاني	1033	-	-	-	النحو (مسوغات الابتداء بالنكرة)
37	محمد بن صالح الغزي	1035	قرابة ألف	1	أرجوزة	الصرف والنحو (أبواب كثيرة)
38	عبد الرحمن بن عيسى المرشدي	1037	500	-	أرجوزة	الصرف
39	علي بن عبد الواحد السجلماسي	1057	-	-	-	النحو
40						الصرف
41	علي بن محمد الأجهوري	1066	قرابة ألف	-	-	الصرف والنحو (أبواب كثيرة)
42	علي بن أبي بكر الجمال	1072	-	-	-	النحو (مسوغات الابتداء بالنكرة)
43	محمد بن سعيد السوسي	1090	-	-	-	النحو
44	عبد الله بن محمد الشبراوي	1091	50	2	عمودية بسيطة لامية مكسورة	النحو (قواعد العربية)
45	أحمد بن علي السنهوري	1097	-	-	-	النحو (الحال)

ثم أقدم عليه بشار، وبشر بن المعتمر، وأبان اللاحقي، وأبو العتاهية، وابن الجهم، وابن المعتز، وغيرهم ، ولئن ذكروا أن بشارا عبث بما فعل ، فلقد جد به غيره «اختيارا لباب من الشعر، يتسع لمعاني الخطبة ، على ما بها من قيود، لو اجتمعت إلى قيود الشعر المنظوم على أصول القصيدة؛ لوقف ذلك حائلا بينها وبين القيام لما جعلت فيه» (٥٨) . وليست أبواب علم النحو ببعيدة من الخطب ؛ فلا ريب في أنه جانب آخر من تيسير الناظم على نفسه ، ولا سيما أن هذا المزدوج نفسه ، هو ما شطرت به أراجيز المنظومات .

[15] وغلبت على موضوعات المنظومات أبواب النحو الخالص ، ثم أبواب النحو والصرف كليهما معا ، ثم أبواب الصرف الخالص ؛ فدل ذلك على أن الغالب على المنظومات النحوية العربية ، أن تُصَنَّعَ للمبتدئين ؛ فإنه لما كانت أبواب علم الصرف عند علمائنا القدماء أدق بحثا ، وعند المتعلمين أثقل وطأة ، درجوا على تأخيرها عن أبواب علم النحو ، على رغم علمهم ببداهة تقدمها عليها ، قال ابن عصفور : « كان ينبغي أن يتقدم علم التصريف على غيره من علوم العربية ؛ إذ هو معرفة ذوات الكلم في أنفسها من غير تركيب ، ومعرفة الشيء في نفسه قبل أن يتركب ، ينبغي أن تكون مقدمة على معرفة أحواله التي تكون له بعد التركيب ، إلا أنه أخر؛ للطفه ودقته؛ فجعل ما قدم عليه من ذكر العوامل توطئة له ، حتى لا يصل إليه الطالب ، إلا وهو قد تدرب ، وارتاض للقياس » (٥٩) .

[16] وإذا نحينا الموضوعات المجهولة ، غلبت على المنظومات موضوعاتُ الباب الواحد، ثم موضوعات الأبواب الكثيرة ، ثم موضوعات الأبواب القليلة .

وعلى رغم ما يمكن علمَ المجهول من قلب التفاسير ، أرى فيما سبق ، دليل صدور مثل هذه المنظومات عن النزعة الفنية التي ذكرتها فيما سبق ؛ فعندئذ يتناول العالم اللغوي الباب ، كما يتناول الفنان الشاعر الغرض .

الأولى : أنه غلب على المنظومات بحر الرجز (مستفعلن × ٦) ، ووليه بحر الطويل (فعولن مفاعيلن × ٤) .

أما غلبة الرجز فمشهورة مفهومة مما سبق أن أوردته لابن معط في ألفيته ، ومن بيان الأخفش أن العرب : « يستعملونه كثيرا ، وإنما وضع للحداء ، والحداء غناؤهم وكلامهم إذا كانوا في عمل، أو سوق إبل » [٥٣] ، الدال على أصالة غلبة الرجز على العرب ، حتى ليكادون يتكلمون به في بعض مواقفهم اليومية .

ولكن ابن معط ذكر في تفسير اختياره للرجز ، أنه ييسر للحافظ الحفظ ، فقال:

« لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ حِفْظَ النَّظْمِ وَفْقُ الذَّكِيِّ وَالْبَعِيدِ الْفَهْمِ
لا سِيَّمَا مَشْطُورُ بَحْرِ الرَّجَزِ إِذا بُنِي عَلَى ازْدِواجٍ موجَزِ » [٥٤] .

والظاهر المعروف في ذلك أنه ييسر للناظم النظم ، بما يتيح من وجوه الزحاف والعلة [٥٥] .

أما تلوُّ الطويل ؛ فلغلبته على الشعر القديم المستمرة زمانا طويلا [٥٦] ، إبان غلبة الرجز السابقة ؛ فكأن الناظم يطاول به الشعراء ، ويدعي فيهم .

الأخرى : أنه غلب على القافية التعديد ، الذي يفهم من دلالة « مشطرة » ؛ فالتشطير: بناء عروض القصيدة على تنسيق الأشطر اثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة ، أو أربعة أربعة ، أو أكثر ، بحيث تتوالى فيها قوافي طوائفها مؤتلفة الداخل، ومختلفة الخارج – ويلمح من دلالة « أرجوزة » ؛ فلا نعرفها في المنظومات إلا مشطرة [٥٧].

ولقد كان المزدوج (ذو الأشطر المنسقة اثنين اثنين) أول وجوه ذلك التعديد حدوثا ، بإقدام الوليد بن يزيد الخليفة الأموي عليه ، حين أخرج منه خطبته للجمعة، مستهلا :

« الْحَمْدُ للهِ وَلِيِّ الْحَمْدِ أَحْمَدُهُ فِي يُسْرِهِ وَالْجَهْدِ
وَهْوَ الَّذي فِي الْكَرْبِ أَسْتَعِينُ وَهْوَ الَّذي لَيْسَ لَهُ قَرِينُ » ،

وَاسْتَغْنِ أَنْتَ بِبَعْضِهِ عَنْ بَعْضِهِ وَصُنِ الَّذي عُلِّمْتَ لا يَتَشَذَّبُ » [٦٦] .

وقد اجتهد محققها في دراستها، والإقناع بها، والمجالدة عنها ، وساجل فيها بعض الباحثين على صفحات مجلة نزوى العمانية الشهيرة [٦٧].

[18] منظومة سعيد بن خلفان بن أحمد الخليلي (ت ١٢٨٧هـ) : هي مشطرة أرجوزة ، في قرابة ألف ١٠٠٠ بيت ، اسمها « مقاليد التصريف » ، صنعها في أبواب كثيرة من علم الصرف ، وشرحها في ثلاثة أجزاء ، مطلعها بين يدي مقدمة في بيان الداعي والغاية والرضا بالتوفيق إليها ، قوله :

« الْحَمْدُ لله مُصَـرِّفِ اللُّغى حَمْدًا إِلى رِضْوانِهِ مُبَلِّغا

وأُرْدِفُ الصَّلاةَ تَسْلِيمًا أَتَمّْ عَلى النَّبِيِّ خَيْرِ ناطِقٍ بِفَمْ » [٦٨] .

ومقطعها بعقب خاتمة في إخلاص الجهد فيها لله بغية رضاه وفضله ، قوله :

« وَأَكْمَلُ الصَّـلاةِ وَالسَّلامِ عَلى رَسولِ اللهِ لِلْأَنامِ

وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَلا سَبيلَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُبَدِّلا » [٦٩].

وقد درسها لندوة « قراءات في فكر الخليلي » ، بعض الباحثين [٧٠] ، ويضع الآن في دراستها وتحقيقها رسالته المكملة للماجستير ، أحد طلاب الدراسات العليا بقسم اللغة العربية من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس .

[19] منظومة عبد الله بن حميد السالمي (ت١٣٣٢هـ): هي مشطرة أرجوزة ، في ثمانية وعشرين ومئتي ٢٢٨ بيت ، اسمها « بلوغ الأمل في المفردات والجمل » ، صنعها في أبواب كتاب ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) : « الإعراب عن قواعد الإعراب »، وشرحها في كتاب متوسط ، مطلعها بين يدي مقدمة في حقيقة العمل وقيمته ، قوله:

« الحَمْدُ للهِ مُفَصِّلِ الْجُمَلْ حَمْدًا بِهِ أَنالُ أَشْرَفَ الأَمَلْ

ثُمَّ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ الْأَبَدي عَلى النَّبِيِّ الْمُصْطَفى مُحَمَّدِ » [٧١] .

ومقطعها بعقب خاتمة في الاعتذار عن تقصير العمل الأول ، قوله :

« ثُمَّ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ الْأَكْمَلي عَلى نَبِيٍّ خاتَمٍ لِلرُّسُـلِ

المنْظوماتُ النَّحْويَّةُ العُمانيَّةُ

تصديقا لاعتذار الباحث عما يحتمل عمله أن يكون وقع فيه من التقصير عن الغاية ، وتلبية لدعوته سائر الباحثين إلى الإشراف به عليها ، إيمانا بأهميتها – أعرض فيما يلي لما تيسر لي العثور عليه من منظومات نحوية عمانية ، ولا سيما ما ضمته غرفة عُمان بمكتبة جامعة السلطان قابوس .

[17] منظومة الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) : هي المنظومة العمانية الوحيدة التي انتبه إلى وجودها المنظوميّ ، في خلال استقرائه للمنظومات العربية ، بحصوله على نشرة دار الكتب المصرية سنة ١٩٩٥م ، بدراسة الدكتور أحمد عفيفي وتحقيقه ، المُمَرَّضَة النِّسْبَة من عنوانها ، هكذا : « المنسوبة إلى الخليل » .

وقد نشرتها وزارة التراث القومي والثقافة العمانية ، سنة ٢٠٠٠م ، مُصَحَّحَةَ النسبة إليه ، وكأنما اطمأنت إلى قول الدكتور عفيفي نفسه ، في أثناء دراسته : « إذا كان هذا الكشف جديدا بالنسبة لي ، قد جاء من قبيل المصادفة ، فإن بعض العلماء العمانيين كانوا على معرفة بهذه المنظومة ونسبتها إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، بل يمتلك بعضهم نسخا أو على الأقل نسخة منها ، كما نجد ذلك في بعض المكتبات الخاصة العمانية » (٦٠) .

وهي عمودية (٦١) ، كاملية (٦٢) ، بائية (٦٣) ، مضمومة (٦٤) ، في ثلاثة وتسعين ومئتي ٢٩٣ بيت ، صنعها في أبواب كثيرة من علم النحو ، مطلعها بين يدي مقدمة من ثمانية وعشرين (٢٨) بيتا جُعِلَتْ في تسهيل النحو ، قوله :

« الحَمْدُ للّه الْحَميد بِمَنِّه أَوْلى وَأَفْضَلُ ما ابْتَدَأْتُ وَأَوْجَبُ
حَمْدًا يَكونُ مُبَلِّغي رِضْوانَهُ وَبِهِ أَصـيرُ إِلى النَّجاةِ وَأَقْرَبُ » (٦٥).

ومقطعها الملحق بباب عمل اسم الفاعل :

« النَّحْوُ بَحْرٌ لَيْسَ يُدْرَكُ قَعْرُهُ وَعْرُ السَّبيلِ عُيونُهُ لا تَنْضُبُ
فَاقْصِدْ إِذا ما عُمْتَ في آذيِّهِ فَالْقَصْدُ أَبْلَغُ في الأمور وَأَذْرَبُ

مقدمة في الزهو بالمنظومة ، قوله :

« نَحْوي لِنَحْوِكَ رَبّي مِنْكَ أغْتَنِمُ نَحْوي لَكَ الْحَمْدُ أنْتَ الْمُلْهِمُ الْحَكَمُ
ثُمَّ الصَّلاةُ عَلى الْمُخْتارِ أفْصَحِ مَنْ بِالضّادِ قَدْ نَطَقوا لله وَاحْتَكَموا » (٧٨) .

ومقطعها بعقب خاتمة من باب الدعاء بالعمل الصالح ، قوله :

« وَاجْعَلْ حَياتي لِما يُرْضيكَ ماضِيَةً حَتّى يُخَتَّمَ لي الرِّضْوانُ وَالنِّعَمُ
وَصَلِّ لِلْمُصْطَفى وَالْآلِ خاتِمَةً نَحْوي لِنَحْوِكَ رَبّي مِنْكَ أغْتَنِمُ » (٧٩) .

وقد درسها لندوة « قراءات تحليلية لشعر أبي سرور » ، بعض الباحثين (٨٠) .

[22] منظومة محمد بن حمد بن سعود المالكي (أطال الله بقاءه) : هي مشطرة أرجوزة ، صَدَرَ جزؤها الأول في خمسين ومئتي ٢٥٠ بيت ، يصنعها في تلخيص أبواب ألفية ابن مالك في علمي النحو والصرف، وشرحها ، مطلعها بين يدي مقدمة في بيان الغاية ، قوله :

« الْحَمْدُ لله الْعَليمِ الدّائِمِ اَلْواحِدِ الْمُبْدي الْمُعيدِ الْعالِمِ
بِالْعَقْلِ وَاللِّسانِ قَدْ كَرَّمَنا وَبِالنَّبِيِّ الْمُصْطَفى أنْقَذَنا » (٨١) .

وآخرها في عقب الدرس الخمسين ، الذي كان مسألة « حكم لا إذا عطف على اسمها وتكررت »، قوله :

« وَفَتْح ما يَسْبِقُ مَعْ رَفْعِ الّذي يَلْحَقُ نَحْوُ لا غُلامَ لِلْبَذي
وَلا أخٌ وَعَكْسُ هذا نَحْوُ لا ماءٌ وَلا طَعامَ في هذي الْفَلا » (٨٢).

ثم لا علم لي بأنها درست ، أو احتفى بها على النحو السابق .

وعلى رغم أن هذه الطائفة من المنظومات النحوية العمانية كذلك ، غيض من فيض ، أستحسن أن أرتبها فيما يلي ، وأضبطها ، وأجَدْوِلها ، وأعلق عليها ، إغراء بالإضافة إليها :

[23] إنها لفجوة مريبة ، تلك الأحد عشر قرنا التي مرت بين الفراهيدي والخليلي، خالية من المنظومات العمانية ، ولا سيما أن الخليلي يخرج علينا بألفيته في أبواب

وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَفى بِما بِهِ أتى النَّبِيُّ الْمُصْطَفى » (٧٢) .

وقد درسها لندوة « قراءات في فكر السالمي » ، بعض الباحثين (٧٣) .

[20] منظومة محمد بن حمد الزاملي (ت١٣٩٠هـ) ، وسعيد بن خلف الخروصي (أطال الله بقاءه) : هي عمودية بسيطية لامية مفتوحة ، في ستة وستين وأربعمئة ٤٦٦ بيت ، صنع الزاملي ثلاثة وثمانين ومئتي ٢٨٣ بيت منها ، في أبواب نحوية كثيرة، مطلعها بين يدي مقدمة في بيان الغاية ، قوله :

« حَمْدًا لِمَنْ فَتَحَ الْأَبْوابَ وَالسُّبُلا لِمَنْ نَحا نَحْوَهُ مِنْ قادَةٍ نُبَلا

ثُمَّ الصَّلاةُ مَعَ التَّسْليمِ مِنْهُ عَلى أَرْقى الْوَرى شَرَفًا أَزْكاهُمُ عَمَلا» (٧٤) .

وآخرها في مسألة حذف عامل المصدر وجوبا ، قوله :

« تَقولُ سُبْحانَ رَبّي لا شَريكَ لَهُ مَعاذَ رَبِّيَ أَنْ أَبْغي بِهِ بَدَلا » (٧٥) .

ثم صنع الخروصي بأمر السيد محمد بن أحمد بن سعود البوسعيدي ، ثلاثة وثمانين ومئة ١٨٣ بيت منها ، في أبواب قليلة من علم النحو ، وثلاثة أبواب من علم الصرف ، أولها بين يدي تخلصه من نظم سلفه إلى نظمه ، قوله :

« إِلى هُنا تَمَّ نَظْمُ الزّامِليِّ وَلَمْ يُكْمِلْهُ يا لَيْتَهُ مِنْ نَظْمِهِ كَمُلا

لِأَنَّهُ أوتِيَ الشِّعْرَ الرَّصينَ كَما أَلَمَّ بِالنَّحْوِ إِلْمامًا بِهِ أَهلا » (٧٦) .

ومقطعها بعقب الاعتذار عما في محاولة التكملة من تقصير ، قوله :

« هذا وَصَلّى إِلهُ الْعَرْشِ ما سَجَعَتْ بَلابِلُ الْأَيْكِ في أَغْصانِها جَذَلا

عَلى الْحَبيبِ رَسولِ اللهِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ خَتَمَ الْمَوْلى بِهِ الرُّسُلا

وَالْآلِ وَالصَّحْبِ وَالْأَتْباعِ ما تُلِيَتْ آياتُ ذِكْرٍ بِها جِبْريلُ قَدْ نَزَلا » (٧٧) .

ثم لا علم لي بأنها درست ، أو احتفي بها على النحو السابق .

[21] منظومة حميد بن عبد الله الجامعي (أطال الله بقاءه) : هي عمودية بسيطية ميمية مضمومة ، في قرابة سبعة وأربعين وأربعمئة وألف ١٤٤٧ بيت ، صنعها في أبواب كثيرة من علمي النحو والصرف ، وشرحها في جزأين ، مطلعها بين يدي

غيرهم في سائر البلاد العربية (٨٦) - من دلالة على بقاء المنظومات وجها من حياتهم بعلم النحو، تدحض مقالة المنظومي السابقة، التي جعلتها أثرا سيئا غابرا من عهود الضعف والتخلف، وكأن لم تنشأ في زمان سطوع شمس الحضارة العربية الإسلامية على العالم.

ذلك إلى دلالتها على النزوع الطبيعي إلى الفن، الذي يكون في بعض العلماء.

[26] ولقد شرح الخليلي والسالمي والجامعي والمالكي كل منهم منظومته، فإذا اعتذر لمنظومة الفراهيدي، تقدمُها على تأصل أعراف النظم والشرح، ولمنظومة الزاملي والخروصي، عدمُ خلوصها لناظم واحد - تبين لنا ميل الناظم العماني إلى أن يشرح منظومته.

وليس أعجب من شرح السالمي لمطالع منظومته بعقب نظمه لكثير منها صغيرًا، أولَ ما ألّفَ، ثم رجوعه إلى النظم والشرح كليهما كبيرًا، وإضافته إليهما، ثم إبقائه قرْزَمَة الصِّغَر، قائلا: «ليكون ذلك على عجزي دليلا، وليعلم المبتدئ أن العلم إنما ينمو قليلا قليلا، وليستبين الفرق بين درجتي المبتدئ والمنتهي، والكل بفضل الله يبتدئ وينتهي» (٨٧)؛ فدل على تحقيقه (٨٨).

ولا ريب في حصافة رأي الناظم الشارح لمنظومته؛ فهو أعلم بما أظهره فيها أو أخفاه، وبما يوافق غايته منها أو يخالفها (٨٩). وعلى رغم ما سبق من اتخاذ المنظوميّ شرح الناظم لمنظومته، دليلا على عجزها عما أراده بها (٩٠)، انتبه غيره إلى ما في شرح الماتن لمتنه، من دلالة على تمييزه في مراتب المتلقين عنه، بين مرتبة متلقي المتن ومرتبة متلقي الشرح (٩١).

[27] ولقد غلب على المنظومات العمانية بحر الرجز، كما غلب على غيرها، ولكن وليه فيها بحر البسيط، على حين وليه في غيرها بحر الطويل.

وفي ذلك دلالة على صيرورة بحر الرجز من أعراف المنظومات، بما انبسط لألفية ابن مالك في قلوب المتلقين وعقولهم، ولا سيما العمانيون، من القبول. وليس أدل

كثيرة من علم الصرف ، على غير سابقة مثلها ، ولا لاحقة يعرفها جدول المنظومات النحوية العربية ، لِيُعَدّ ميزة له لا تنكر (٨٣)، عرفها هو من قبل أن نعرفها ؛ فقال في مقدمته :

« وَقَدْ تَكَفَّلَتْ بِهِ أَلْفِيَّةٌ لِجَمْعِها أَنْحاءَهُ مَرْضِيَّةْ
فَاسْتَجْلِها مَيْمُونَةً مُبارَكَةْ لَيْسَ لَها في الْحُسْنِ مِنْ مُشارَكَةْ » (٨٤) .

ولا ريب في خفاء كثير من منظومات هذه المدة الطويلة علينا ، وربما نكبت فيما نكب من التراث العماني ؛ فلم يكن لمثل منظومة الخليلي أن تكون فجأة (٨٥).

م	الناظم	وفاته	عدة منظومته	نوعها	موضوعها المذكور
1	الخليل بن أحمد الفراهيدي	175	293	عمودية كاملية بائية مضمومة	النحو (أبواب كثيرة)
2	سعيد بن خلفان ابن أحمد الخليلي	1287	قرابة ألف	مشطرة أرجوزة	الصرف (أبواب كثيرة)
3	عبد الله بن حميد السالمي	1332	228	مشطرة أرجوزة	النحو (نظم الإعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام)
4	محمد بن حمد ابن سالم الزاملي	1390	466	عمودية بسيطة لامية مفتوحة	النحو والصرف (أبواب كثيرة)
	سعيد بن خلف ابن محمد الخروصي	–			
5	حمد بن عبد الله الجامعي	–	قرابة 1447	عمودية بسيطة ميمية مضمومة	النحو والصرف (أبواب كثيرة)
6	محمد بن حمد ابن مسعود المالكي	–	250	مشطرة أرجوزة	النحو (جزء من تلخيص ألفية ابن مالك)

[24] ولم يعرف جدول المنظومات العربية ، اشتراك ناظمين في منظومة واحدة ، وعرفه جدول المنظومات العمانية في منظومة الزاملي والخروصي العمانيين . ولعل ما أتاح ذلك صدوره عن أمر سيد جليل مطاع ، وطيّ الموت أولهما من قبل أن يشاركه آخرهما .

وإنما الإشكال فيما لنظم أبواب العلم ، من أَخْذَةٍ فنية فُرودِيَّة ، تمنعه أن يتأتى بالاشتراك .

[25] ولن يخفى ما في حياة أولئك الثلاثة الناظمين بيننا – ولا يستحيل أن يشبههم

آخرها ، تضمُّها وتضبطها ؛ فتعين المعلم على تنسيقها وإكمالها ، والمتعلم على استيعابها وتذكرها [٩٧] - ولا مَثْنَوِيّةَ لمنظومة الخليلي الخالصة لأبواب علم الصرف؛ فبين أبوابها وأبواب شافية ابن الحاجب (ت٦٤٦هـ) [٩٨] ، كثيرٌ جداًّ من مظاهر التوارد - ولْيَكْفِ دليلا أن يُصْنَعَ كثيرٌ من المنظومات على ما سبق بيانه ، في أبواب المتون المنثورة .

[30] إنه إذا كان النحو رفع أواخر بعض الكلمات أو نصبها أو جرها أو جزمها ، كما قال الناظم العماني الأول :

« النَّحْوُ رَفْعٌ في الْكَلامِ وَبَعْضُهُ خَفْضٌ ، وَبَعْضٌ في التَّكَلُّمِ يُنْصَبُ » [٩٩]

لم تخرج هذه المحاور ، عن أن تكون العاملَ أو المَعْمول أو العُنْصُر ؛ ومن ثم لم تخرج أنماط متون النحو التعليمي المنثورة والمنظومة جميعا معا ، عن هذه الثلاثة :

أولًا - النَّمَطُ العامليُّ :

ومَسْرَدُ أبوابه على حسب الرافع والناصب والجار والجازم [١٠٠] ، كما في منظومة الفراهيدي ، وهو ما لم يذكره دارسها على أهميته في بيان منهجها [١٠١] .

ثانيًا - النَّمَطُ المَعْموليُّ :

ومَسْرَدُ أبوابه على حسب المرفوع والمنصوب والمجرور والمجزوم [١٠٢] ، كما في منظومات الزاملي والخروصي ، والجامعي ، والمالكي .

ثالثا - النَّمَط العُنْصُريُّ :

ومَسْرَدُ أبوابه على حسب عنصر الكلمة التي يعتورها الرفع والنصب والجر والجزم ، اسما وفعلا وحرفا ، كما في أنموذج الزمخشري ومفصله ، وكافية ابن الحاجب ، ووافي البلخي [١٠٣] ، وليس في شيءٍ من المنظومات العمانية .

ولا ريب في أنها محاور منطقية متضابطة ، ولكن تضابطها لا يمنع بعضها من أن يشتمل على طَرَفٍ من بعض [١٠٤] ، كما فيما ربما لاح لنا بَعْدُ .

من عكوف المالكي الآن على تلخيصها بمثلها (٩٢) .

وعلى رغم قرب البسيط من الطويل في الشعر العربي القديم على وجه العموم(٩٣)، لا أخلي تُلُوَّه للرجز هنا ، من أثر لامية ابن مالك نفسه ، التي مطلعها قوله :

« الْحَمْدُ لله لا أَبْغي بِهِ بَدَلا حَمْدًا يُبَلِّغُ مِنْ رِضْوانِه الْأَمَلا
ثُمَّ الصَّلاةُ عَلى خَيْرِ الْوَرى وَعَلى ساداتِنا آلِهِ وَصَحْبِهِ الْفُضَلا » (٩٤).

ومقطعها قوله :

« وَأَسْأَلُ اللهَ مِنْ أَثْوابِ رَحْمَتِه سِتْرًا جَميلًا عَلى الزَّلّاتِ مُشْتَمِلا
وَأَنْ يُيَسِّرَ لي سَعْيًا أَكونُ بِهِ مُسْتَبْشِرًا آمِنًا لا باسِرًا وَجِلا » (٩٥) .

فلقد كانت مما يحفظونه من متون ، وشرحها للشيخ محمد بن يوسف أطفيش الذي هو أحد كبار علماء الإباضية ، شائع فيهم .

[28] وليس يمتنع أن يكون انصراف الخليلي إلى نظم أبواب كثيرة من علم الصرف ، لتكملة منظومة الفراهيدي التي اختصت بأبواب كثيرة من علم النحو ، حرصًا من الخالف على عمل السالف ، أو لتكملة منظومتي ابن مالك الذي لم يستوف بألفيته، ولا لاميته الشائعتين في العمانيين ، أبواب علم الصرف ، ولا سيما أن نذكر ما سبق من تمسكهم بمنظومتي الخليل، وابن مالك .

أما غيرُ الخليلي من الناظمين العمانيين ، فقد تَقَرَّوْا ابنَ مالكٍ نفسه فيما نظم من أبواب علمي النحو والصرف ، على ما رأوه مناسبا لمن قصدوهم بنظمهم . ولا ينتقض هذا الرأي بما سبق من نظم السالمي، والمالكي كليهما لأبواب من علم النحو فقط ؛ فإنما تعلق السالمي صغيرا بكتاب ابن هشام ، ثم لم يزل المالكي في سبيله إلى تلخيص أبواب ألفية ابن مالك (٩٦) .

[29] وعلى رغم اختلاف النظم والنثر ، لم يخرج ناظمو أبواب علم النحو والصرف ، فيما سلكوه من مسالك تعليمها ، على ما انتهجه ناثروها ؛ فلا يستطيع ناقدُ أعمالِهم إلا أن يصنفها على حسب محاورها التي تَنْتَظِمُ أبوابها من أولها إلى

الشارح الشيخ سيف بن محمد بن سليمان بن سيف الفارسي » ، كما كتب على وجه غلافه ، من مطبوعات مطبعة الفيحاء ، لسنة ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م ، ومنشورات مكتب مستشار جلالة السلطان في الشئون الدينية والتاريخية . كتاب محتاج لعدم توسيع تداوله ، إلى العرض قبل النقد ، بين دفتيه ست عشرة ومئتا (٢١٦) صفحة ، من القطع العادي ، خطها سمبلفيد أربيك ، حجمه الثامن عشر (١٨) الثقيل ، في الصفحة الواحدة منها عشرون سطرا ، وفي السطر الواحد عشر كلمات أو إحدى عشرة .

تصَدَّرَ الكتابَ تَقْديمٌ فيه ترجمةٌ للزاملي في ست صفحات ونصف ٦,٥ ، بقلم الشيخ القاضي ناصر بن راشد المنذري ، ثم ترجمةٌ للفارسي في صفحتين ونصف ٢,٥ ، بقلم عبد الله بن راشد بن سلطان بن راشد المحروقي السناوي ، ولا ترجمةَ فيه للخروصي الناظم الآخر ، على جَدارته بها، واستحقاقه لها ، ولو كان الكتاب من عمل شخص واحد ما فاتته ، ولكنه من عمل ستة أشخاص : ناظمين ، وشارح ، ومترجمين ، وناشر !

ثم متنُ المنظومة في إحدى وثلاثين ٣١ صفحة ، ثم شرحُ المتن مشتملًا عليه في خمسين ومئة ١٥٠ صفحة ، ينبغي أن يُطرح منها مقدار صفحات المتن المعاد ؛ فلا يخلص للشرح غير تسع عشرة ومئة ١١٩ صفحة ، أي للصفحة الكاملة من المتن بالمتوسط ، مقدار أربع ٤ صفحات فقط من الشرح ، وهو مقدار قليل يوحي بتوسط مرتبة من صُنِع له من المتعلمين ، بين المبتدئين والمتخصصين .

ولقد انفرد كتاب البركة ، من سائر شروح المنظومات العمانية - وربما شمل التعميم غيرها - بتقديم متن المنظومة على شرحها ؛ فأما سواه فإما أخره إلى ما بعد الشرح ، كما صنع الجامعي ، وقريب منه إيراد دارس منظومة الفراهيدي نَصَّها بعقب عمله ، وهي عادة المحققين (١٠٨)، وإما اجتزأ باشتمال الشرح عليه ، كما فعل الخليلي والسالمي والمالكي العمانيون - وغيرهم ممن اطلعت على عمله من الشراح مثلهم - مما يدل على أنه من عمل الناشر لا الشارح . ولكنه عمل حَسَنٌ بتيسيره

ثم لغايات أخَرَ خرجت أعمال على أنماط تلك المحاور المنطقية إلى أنماط أخرى، كما في منظومة السالمي التي صنعها في أبواب كتاب ابن هشام « الإعراب عن قواعد الإعراب » ؛ فإن الرجل كان وَضعَهُ في أبواب تلتبس على المعْرب (١٠٥) ؛ فتعلق به السالمي يافعا ، كما يتعلق شُداة علم النحو عامة (١٠٦) ، وعلى مثل ذلك جرت كثير من المنظومات غير العمانية ، كما يتضح من الجدول .

ومن قبل تحديد الحدود وتنميط الأنماط وشياع المنظومات ، كان كتاب سيبويه الذي استحق بما حوى من أمشاج تفكير المعلم الأول ، أن يكون مجتمع الأنماط ثم مفترقها إلى ما اختص به بعده كل منها (١٠٧) .

مَنْظومَةُ الزّامِليِّ وَالْخَروصيِّ

[31] لقد اجتمعت للمنظومة العمانية الرابعة ، هذه الخصال الخمسة :

الأولى : الاشْتراك فيها ؛ فلا ريب في تعلق الظن بمواطن الاتفاق بين ناظمَيْها ومواطن الاختلاف .

الثانية : حَداثتها ؛ فمن تأملها أوشك أن يقف على فرق ما بين الخالف والسالف.

الثالثة : عَروضها ؛ فقد خرجت ببسيطيَّتها ووحدة قافيتها ، على ما صار من أعراف المنظومات النحوية .

الرابعة : عَدم شرح أيٍّ من ناظمَيْها لها ؛ فإن الناظم الشارح ، ربما راعى في نظم صياغة باب ، أنه يعالجه بشرحه .

الخامسة : عدم دراستها ؛ ففي إنجازها إضافة عمانية واضحة .

فاستحقت أن يُفَصَّلَ فيها النَّظرُ ، فضلا عما في دراستها من زيادة تنبيه على هذه المنظومات النحوية العمانية المُهْمَلَة ، وزيادة بيان لهذا الوجه من تاريخ النحو .

[32] كتاب « البرَكة في شرح القصيدة النحوية المشتركة . النظم للشيخ العلامة محمد بن حمد بن سالم الزاملي، والشيخ سعيد بن خلف بن محمد الخروصي .

« وَأَوْلِهِ النَّصْبَ إِنْ جاءَ بَعْدَ أَنْ وَإِذَنْ   كَيْ لامِ كَيْ لامِ جَحْدٍ لَنْ كَلَنْ يَصِلا »

(١١٣) ؛ فحق (مستفعلن) الثانية أن تحذف همزة (جاء) : (جا بعد أن وإذن) ، وهو من أيسر الضرائر (١١٤) ، وإثباتها الذي يوفّي حق اللغة ، يكسر الوزن .

ثانيا - أخطاء تُفْسِدُ اللُّغَةَ وَحْدَها :

١ - الإبدال :

وفيه يختار الطابع والعروض مُسَلَّمٌ ، ما ينبغي أن يختار غيره لتسليم اللغة ، على نحو ما في هذا البيت ٣٧ :

« وَلَمْ يَقُمْ مِنْ بَني مَرْوانَ طاغِيَة   إلاّ رَمَتْ هاشِمٌ في عَيْنِه نُبُلا » (١١٥)

فهي (النَّبْل) السهام (١١٦) ، فإن حرك وأتبع لتسليم العروض وهو من أيسر الضرائر(١١٧)، فتح الباء؛ فكانت (النَّبَلا)، ولا أثر في العروض لإبدالها الذي يفسد اللغة.

٢ - الحَذْفُ :

وفيه يحذف الطابع والعروض مُسَلَّم ، ما ينبغي إضافته لتسليم اللغة ، على نحو ما في هذا البيت (١٥٩) :

« وَجاءَ (خَيْرِ) بِكَسْرِ الرّاءِ أَخْفَشُهُمْ   قَدْ قالَها حينَ عَنْ إِصْباحِهِ سُؤِلا » (١١٨)

فهي (خَيْرٍ) بتنوين ، على الجر بجار محذوف غير (رُبَّ) شذوذا فيما روي عن رؤبة بن العجاج لا الأخفش ، في قوله : « خيرٍ والحمدُ لله » ، جوابا لمن قال له : « كيف أصبحت؟ » (١١٩) ، ولا أثر في العروض لحذفه الذي يزيد من الشذوذ عن اللغة . وفي رسم (سؤلا) خطأ ظاهر ، لأن هذه الهمزة المكسورة أقوى من الضمة التي قبلها .

٣ - الْإِضافَةُ :

وفيه يضيف الطابع والعـــروض مُسَلَّم ، ما ينبغي حذفه ، على نحو ما في هذا البيت ٨:

« وَالْإِسْمُ ما يَقْبَلُ التَّنْوينَ أَلْ وَنِدًا   وَحَرْفَ جَرٍّ وَما لِلْجَرِّ قَدْ قَبِلا» (١٢٠) ؛

المنظومة وحدها لمن أرادها ، وجعلها فهرسًا فنيا لشرحها وإن وليها مشتملا عليها ، على أن تُرقم ، وهو ما لم يصنعه الناشر .

ثم فهْرِسُ موضوعات الكتاب في أربع صفحات ونصف ٤,٥ ، ولا شيء فيه غير عناوين ترجمتي التقديم، والمتن، وأقسام الشرح .

وليس للكتاب من مقدمة تُمَنّي القارئَ ولا خاتمة تَشْفي غَليلَه ، إلا ما كان من أبيات الزاملي في بيان غايته من عمله ، وإلا ما كان من أبيات الخروصي في الاعتذار عن التقصير عن شأو الزاملي ، فأما الشارح نفسه، فليس له إلا ما يشبه خواتم نساخ الكتب من ذكر فراغه من عمله في سبعة وعشرين يوما (١٠٩) !

من ثم يظل الكتاب على رغم حَداثته وطباعته جميعا ، مَتْنًا أصْلَحَ للحافظِ منه للباحث ، حتى يُحَقق تحقيقا علميا يتيح الانتفاع به ، ولا سيما أنه مُلَوَّحٌ بصُنُوف من الأخطاء الكثيرة ، لا بقاء معها لنص (١١٠) !

[33] وتنبيها على خطر تلك الأخطاء ولا سيما بمتن المنظومة الذي يحفظ ، أعرض فيما يلي ، لطرف من أخطائه التي ننسبها عادة إلى الطابع !

أولا - أخطاء تفسِدُ الْعَروضَ وَحْدَهُ :

١ - الحذفُ :

وفيه ينقص الطابع لتسليم اللغة ، بعض ما أكمله الناظم لتسليم العروض، على نحو ما في هذا البيت (١٥٨) :

« وَغَيْرَ ذي خُذوهُ مِنْ كَلامِهِمْ أَيْضًا وَمَعْ ذلِكُمْ فَالْجَرَّ قَدْ عَمِلا » (١١١)

فحق (فاعلن) الأولى أن تضاف الفاء الزائدة الجائزة : (فخذو=فعلن) (١١٢)، وحذفها الذي ظنه يوفّي اللغة حقها ، يكسر الوزن .

٢- الإضافَةُ :

وفيه يكمل الطابع لتسليم اللغة ، بعض ما نقصه الناظم لتسليم العروض ، على نحو ما في هذا البيت ٣٩ :

8	7	6	5	4	3	2	1
المعرف بأداة التعريف	الموصول	اسم الإشارة	العلم	النكرة والمعرفة	المعرب والمبني	الكلام وما يتألف منه	بسم الله الرحمن الرحيم
7	18	6	10	20	37	7	7
16	15	14	13	12	11	10	9
أعلم وأرى	ظن وأخواتها	لا التي لنفي الجنس	إن وأخواتها	أفعال المقاربة	فصل في ما ولا ولات وإن المشبهات بليس	كان وأخواتها	الابتداء
5	14	9	23	10	6	15	30
24	23	22	21	20	19	18	17
المفعول فيه وهو المسمى ظرفاً	المفعول له	المفعول المطلق	التنازع في العمل	تعدي الفعل ولزومه	اشتغال العامل عن المعمول	النائب عن الفاعل	الفاعل
8	5	12	8	11	12	13	17
32	31	30	29	28	27	26	25
إعمال المصدر	المضاف إلى ياء المتكلم	الإضافة	حروف الجر	التمييز	الحال	الاستثناء	المفعول معه
4	4	36	21	8	24	16	5
40	39	38	37	36	35	34	33
النعت	أفعل التفضيل	نعم وبئس وما جرى مجراهما	التعجب	الصفة المشبهة باسم الفاعل	أبنية أسماء الفاعلين والمفعولين والصفات المشبهة بها	أبنية المصادر	إعمال اسم الفاعل
14	10	11	11	7	10	17	12
48	47	46	45	44	43	42	41

فهي (اسْم) من السين والميم والواو ، وهمزة الوصل في أولها لا القطع ، عوض عن حذف واوها(١٢١)، ولا أثر في العروض لإضافتها التي تفسد اللغة .

ثالثا – أخطاء تُفسد العَروض واللغَة كلَيْهِما :

١- الحَذفُ :

وفيه يحذف الطابع من مادة اللغة ، ما يفسدها ويفسد العروض ، على نحو ما في هذا البيت ٣٣ :

« كَهَذِّبَنْ وَاسلُكَنْ سُبُلَ الرَّشادِ بِهِ   وَاخْبِرَنَّ سَعيدًا بِالَّذي جَهِلا » (١٢٢)

فهي (أَخْبِرَنَّ) من إخبار سعيد ، لا من التحلي بالخبرة ، وبهذا الخطأ نفسه ينكسر الوزن.

٢ – الإضافة :

وفيه يضيف الطابع إلى مادة اللغة ، ما يضيرها ويضير العروض ، كما في هذا البيت ٦٨ :

« إنْ صَحَّ جَعْلُكَ أن منْ قَبْلِ لا جَزَموا   أولًا فَلا وَالْكِسائي جَزْمَهُ قَبِلا » (١٢٣)

فهي (أَوْ لا) أداتا العطف فالنفي ، لا صيغة التفضيل ، وبهذا الخطأ نفسه ينكسر الوزن ، ثم لا معنى له ، ولا لفتح همزة (أن) قبله – وإن لم يُفْسِدْ فتحُها العروض – في صدر البيت ؛ فإنه في مسألة جزم المضارع في جواب النهي ، وأنه إذا جاز تقديم (إنْ) الشرطية على (لا) الناهية كما في «لا تقْرَبِ السَّبُعَ تسلَمْ» ، انجزم المضارع ، وإلا لم ينجزم كما في « لا تَقْرَبِ السَّبُعَ يَأْكلُكَ » (١٢٤) .

43[جسر الناقد على نقد منقوده وحده ، غير أنه لن يطمئن إلى مَلاحظِه حتى يعرضها على وَزين له بينهما جوامع من التَّوارُد ، وليس أسَدَّ لذلك من موازنته بما تقرّاه أو عارضه ؛ فلذا أوازن بهذه المنظومة منذ البدء منظومة ابن مالك الواردة في أثناء شرح ابن عقيل لها ؛ فأورد المالكية فالعمانية ، مجدولتين فيما يلي ، بحيث تكون الأعداد المظللة لأرقام الأبواب التي بُوِّبتا عليها وتحتها عناوينها ، وبحيث تكون تحت العناوين أعداد أبياتها :

1	2	3	4	5	6	7	8
مقدمة	الكلام	الاسم	الفعل	الحرف	الأفعال الجامدة	المعرب والمبني من الأفعال (أ) الفعل الماضي	(ب) الأمر
5	2	4	6	1	1	7	7
9	10	11	12	13	14	15	16
المضارع	نواصب الفعل	أن المضمرة بعد أو ولام كي وحتى ولام الجحود	إضمار أن بعد الفاء	الواو والفاء اللتان تكونان بعد تسعة أشياء	فصل	(جوازم الفعل) (أ) ما يجزم فعلا واحدا	(ب) ما يجزم فعلين
5	9	4	1	13	19	4	44
17	18	19	20	21	22	23	24
حروف الجر	الإضافة	المبتدأ والخبر	الخبر إذا كان جملة	الخبر إذا كان جارا ومجرورا أو ظرفا	وجوب تقديم الخبر	نواسخ المبتدأ	الفاعل والمفعول
35	21	9	12	14	34	5	2
25	26	27	28	29	30	31	32
المنصوبات	حروف العطف	المدغمات	من حذف عامل المصدر وجوبا	تنبيه طويل على نقل النظم	نائب الفاعل	ظن وأخواتها	الحال والتمييز
2	1	14	1	6	7	7	7
33	34	35	36	37	38	39	40
كم الاستفهامية	الظرف	الاستثناء	لا التي لنفي الجنس	التعجب	الإغراء	النداء	الترخيم
3	4	8	6	2	5	13	11
41	42	43	44	45	46	47	48
التصغير	باب النسب	باب التوابع	باب ما لا ينصرف	العدد	الأفعال المعروفة بالأمثلة الخمسة	المبنيات	خاتمة
20	9	6	35	8	3	18	5

التوكيد	العطف	عطف النسق	البدل	النداء	فصل	المنادى المضاف إلى ياء المتكلم	أسماء لازمت النداء
14	6	25	8	12	7	3	3
49	50	51	52	53	54	55	56
الاستغاثة	الندبة	الترخيم	الاختصاص	التحذير والإغراء	أسماء الأفعال والأصوات	نونا التوكيد	ما لا ينصرف
3	7	12	2	5	8	14	27
57	58	59	60	61	62	63	64
إعراب الفعل	عوامل الجزم	فصل في لو	أما ولولا ولوما	الإخبار بالذي والألف واللام	العدد	كم وكأي وكذا	الحكاية
19	14	3	5	9	20	4	8
65	66	67	68	69	70	71	72
التأنيث	المقصور والممدود	كيفية تثنية المقصور والممدود وجمعهما تصحيحا	جمع التكسير	التصغير	النسب	الوقف	الإمالة
13	7	13	42	22	26	19	15
73	74	75	76	77	78	79	80
التصريف	فصل في زيادة همزة الوصل	الإبدال	فصل	فصل	فصل	فصل	فصل في الإعلال بالحذف
23	5	21	2	10	10	2	3
81							
الإدغام							
12							

وفرّق الفصول ؛ فلا حيلة للمعنون عندئذ ، إلا أن يتجاوز العنوان الواحد إلى ما افترق في النظم ، كما في هذه العناوين الخمسة عشر : الكلام ، والاسم ، والفعل ، والحرف ، والأفعال الجامدة ، والمعرب والمبني من الأفعال (أ) الفعل الماضي ، و(ب) الأمر ، و المضارع ، ونواصب الفعل ، وأن المضمرة بعد أو ولام كي وحتى ولام الجحود ، وإضمار أن بعد الفاء ، والواو والفاء اللتان تكونان بعد تسعة أشياء ، وفصل، وجوازم الفعل (أ) ما يجزم فعلا واحدا ، و(ب) ما يجزم فعلين ، والمبتدأ والخبر ، والخبر إذا كان جملة ، والخبر إذا كان جارا ومجرورا أو ظرفا ، ووجوب تقديم الخبر - بدلا من هذه العناوين الخمسة : الكلام وما يتألف منه ، والمعرب والمبني ، وإعراب الفعل ، وعوامل الجزم ، والابتداء .

واستدراك الفائت ؛ فلا حيلة للمعنون عندئذ ، إلا أن يستحدث العناوين للفصول المستدركة التي لم يجترئ الخروصي على إقحامها في خلال عمل الزاملي ، كما في هذين العنوانين : الأفعال المعروفة بالأمثلة الخمسة ، والمبنيات ، المستدركين على هذا العنوان : المعرب والمبني .

[37] وعلى رغم خروج العمانية مخرج المالكية ، انقسمت الأولى على ثمانية وأربعين ٤٨ بابًا ، على حين انقسمت الأخرى على واحد وثمانين ٨١ . ولكن ربما كانت في تقارب متوسطي ما للباب الواحد في العمانية (عشرة ١٠ أبيات) وما للباب الواحد في المالكية (اثني عشر ١٢) ، دلالة على تحري العمانية أن توجز المالكية إلى نصفها كما أوجزت هذه المالكية نفسها مالكية قبلها إلى ثلثها ، بهذين المظهرين: الاقتِصار ؛ فمتأمل الجدولين يفتقد في العمانية أبوابا كثيرة مما في المالكية ، نحوية مثل : « النكرة والمعرفة » ، و« العلم » ، و« اسم الإشارة » ، و« الموصول » ، و« المعرف بأل» ، و« أفعال المقاربة » ، و« أعلم وأرى » ، و« تعدي الفعل ولزومه » ، و« التنازع في العمل » ... ، وصرفية مثل : « التأنيث » ، و« المقصور والممدود » ، و« كيفية تثنية المقصور والممدود وجمعهما تصحيحا » ، و« وجمع التكسير » ، و« الوقف » ، والإمالة»،

[35] خرجت العمانية كما سبق مخرج المالكية ، من النمط المعمولي في نظم أبواب علم النحو ، أي الذي يسرد الأبواب على حسب حال الكلمة فيها رفعا، ونصبا، وجرا وجزما . ولا يشغب على هذا التصنيف أن قدمت العمانية عدة أبواب قبل المرفوعات؛ فهو من الأعراف العامة الجارية على ما اسْتَنَّ سيبويه [١٢٥] ، ولا أن قدمت المجزومات؛ فهو عاقبة الاستطراد من علامات الأفعال ، ولا أن قدمت المجرورات ؛ فهو عاقبة الاستطراد من المجزومات ، « وينبغي أن نذكر أن أنماط التبويب التي ذكرناها ، قد تتداخل ، وقد ينفرط عقدها ، وتفلت خيوط نسجها من يدي المصنف، ويضطر إلى الخروج عن الإطار العام الذي بدأ به » [١٢٦] .

[36] وعلى رغم خروج العمانية مخرج المالكية ، لم تطابق عناوين الأولى عناوين الأخرى ، إلا في هذه الأبواب العشرة : حروف الجر ، والإضافة ، وظن وأخواتها ، والاستثناء ، ولا التي لنفي الجنس ، والتعجب ، والنداء ، والترخيم ، والتصغير ، والعدد ، أي في ٢١٪ منها فقط ، ولم تكن هذه النسبة القليلة إلا نتيجة هذه الأربعة الأعمال :

تَطْوير التَّعْبير ؛ فربما راعى المُعَنْوِنُ آخرَ ما اصطلح عليه أهل العلم ، أو طَبيعةَ ما آثره الناظم ، أو ذوقه في تركيب دقائق التعبير ، كما في هذه العناوين الستة : المدغمات ، ونائب الفاعل ، والظرف ، والإغراء ، وباب النسب ، وباب ما لا ينصرف – بدلا من هذه العناوين الستة : الإدغام ، والنائب عن الفاعل ، والمفعول فيه ، والتحذير والإغراء ، والنسب ، وما لا ينصرف .

وجَمْع الأبواب ؛ فلا حيلة للمعنون عندئذ ، إلا أن يقصر العناوين المتعددة المختلفة، على ما اجتمع في النظم ، كما في هذه العناوين الثلاثة : نواسخ المبتدأ ، والحال والتمييز ، وباب التوابع – بدلا من هذه العناوين العشرة : كان وأخواتها ، وأفعال المقاربة ، وإن وأخواتها ، والحال ، والتمييز ، والنعت ، والتوكيد ، والعطف ، وعطف النسق ، والبدل .

اعتذر لديه عن الزاملي الناظم الأول ، أن لم ينفض من المنظومة يده بحيث يجيز له أن ينقدها عليه - فلقد كان ينبغي للخروصي المكلف بإتمام عمل الزاملي ، أن يعالج ذلك الإيجاز . وهل أدل من قول أبيات الزاملي أخيرا :

« تَقولُ سُبْحانَ رَبّي لا شَريكَ لَهُ مَعاذَ رَبّيَ أَنْ أَبْغي بِهِ بَدَلا » (١٣٢)

الذي عنوانه «من حذف عامل المصدر وجوبا » - على انقطاعه قبل الغاية . ولكن الخروصي نفسه جرى على ذلك الإيجاز المخل !

لا ريب في أن مقتضى معالجة إخلال الإيجاز ، أن يقتحم الخروصي على الزاملي أبيات كل باب ، ومفاصل أبيات كل بابين ؛ فيضيف ما فيه التمام ، ولكن ثمّ مقتضًى آخر أشدَّ طلبا له ، في قوله :

« إِلى هُنا تَمَّ نَظْمُ الزّامِلِيِّ وَلَمْ يُكْمِلْهُ يا لَيْتَهُ مِنْ نَظْمِه كَمُلا (...)

إِلى هُنا تَمَّ ما حاوَلْتُ تَكْمِلَةً لِنَظْمِ شَيْخٍ تَسامى نَظْمُهُ وَعَلا » (١٣٣) .

ففي أول البيتين إشارة إلى رعايته للزاملي في نظمه ، التي لولاها ما تكلف ما لم يتكلفه ناظم قبله ، وفي آخرهما دعوة إلى تقدير عمله ، فهمَها الشارحُ ؛ فقال : « هذا من الشيخ سعيد ، حُسْنُ خُلقٍ ، وإلا فهو فوق ذلك علما ، وحلما ، وخلقا » (١٣٤) ؛ فأصاب الخروصي ما أراد .

ولو تأمل الباحث لربما عد ذلك الإيجاز من علامات نزوع العالمين الفنانين ؛ فإن العالم الخالي من النزوع إلى الفن ، يُقَدِّرُ أبواب علمه ويرتبها ويتناولها بابًا بابًا لا يدع شيئا منها يخدعه عما قدَّرَ له حتى يفرغ منها ، فأما العالم النازع إلى الفن ، فربما خدعه الباب ؛ فتعلق به لا يلوي على شيء ، ثم إن العالم النازع إلى الفن يصطاد الخواطر أشتاتا ، وربما لم يفرغ لتنسيقها والتأليف بينها على أعراف علمه بحيث تتسلسل في سبيل واحدة سالكة ؛ فهي أشبه بمنظومات الأبواب المنفردة التي سبق الكلام فيها من هذه الجهة . وعلى صدق ذلك هذه الثلاثة الأدلة:

تقديم أبواب وتأخير أخرى ؛ فلقد قدمت العمانية مثلا ، بابي « حروف الجر »

و«الإبدال » ....

ولئن استغنت العمانية عن أبواب « كالنكرة والمعرفة» بما أوردته في أبواب «كالاسم » ، لقد زهدت في أبواب كأبواب علم الصرف كلها إلا هذه الثلاثة : «المدغمات» كما سَمَّتْ ، «التصغير» ، و« باب النسب » . أما إلمامها بالأول فاضطرتها إليه أحكام صياغة الكلام التي يعرض في خلالها عجب المتعلم من انفكاك الإدغام عند الإسناد وغيره من ظواهر تركيب الكلم ، ولا سيما أنها استطردت إلى رد الأصول (١٢٧) ، وهو ما لم تستطرد إليه المالكية (١٢٨) . وأما إلمامها بالثاني فمن شجون حديث الترخيم التي ربما مكنت له ، وأما إلمامها بالآخر فمن شجون حديث التصغير نفسه المكملة له .

والاخْتصار ؛ فمتأمل مفردات الأبواب يفتقد في العمانية وجوها كثيرة مما في المالكية ؛ فعلى حين عرضت المالكية في باب « الفاعل » رُكن الكلام الأكبر ، لحاله من حيث ارتفاعه ونوعه وعلاقته بالفعل وبالمفعول به ، في سبعة عشر ١٧ بيتا (١٢٩) ، قالت العمانية في باب «الفاعل والمفعول» هذين البيتين ٢٦٤ ، ٢٦٥ :

« الفاعِلَ ارْفَعْ وَمَفْعولًا بِهِ نَصَبوا كَاخْتارَ سَيِّدُنا دارَ الْجَلالِ عُلا
وَعَكْسُ ذا جا وَقَوْمٌ يَرْفَعونهما وَجاءَ نَصْبُهُما فِي الْهَمْعِ قَدْ نُقِلا » (١٣٠)

فاجتزأت بحاله من حيث الرفع الذي شذت به بعض لهجات العرب إلى النصب .

وعلى حين عرضت المالكية في باب « عطف النسق » لحروف العطف ووظائفها ومعانيها وأحوال معطوفاتها ، في خمسة وعشرين ٢٥ بيتا ، قالت العمانية في باب «حروف العطف» هذا البيت ٢٦٨ :

« لِلْعَطْفِ واوٌ وَفاء أَمْ أَوْ وَثُمَّ وَبَلْ حَتّى وَإِمّا وَلَكِنْ إِذْ تُعَدُّ وَلا » (١٣١)

فاجتزأت «بتعديدها . ولا يخفى ما في إضافة الهمزة إلى (فا) ، من خطأ مفسد لعروض البيت وحده كما سبق.

[38] ربما لم يُخل الباحثُ ذلك الإيجازَ ، من تُهَمَة الإخلال بأبواب العلم – وإن

وَمُفْرَدًا يَأتي وَيَأتي جُمْلَةً حاوِيَةً مَعْنى الَّذي سيقَتْ لَهُ
وَإِنْ تَكُنْ إِيَاهُ مَعْنًى اكْتَفى بِها كَنُطْقي اللهُ حَسْبي وكَفى
وَالْمُفْرَدُ الْجامِدُ فارِغٌ وَإِنْ يُشْتَقَّ فَهْوَ ذو ضميرٍ مُسْتَكِنْ

باب المبتدأ والخبر للزاملي

وَالْمُبْتَدا ارْفَعْهُ وَالْإِخْبارَ عَنْهُ فَقُلْ زَيْدٌ مُقيمٌ وَعَمْرٌو ذاهِبٌ خَجَلا
وَكَالْجُهَنْدُرُ ضَرْبٌ مِنْ تُمورِهِمُ وَالْقَضْبُ قَتٌّ وَنَحْوُ الشّيحُ نَبْتٌ فَلا
وَمِعْدَةُ الْمَرْءِ بَيْتُ الدّا وَحِمْيَتُهُ رَأْسُ الشِّفاءِ فَحاذِرْ ضُرَّ ما أُكِلا
وَالزَّعْفَرانُ مُدِرٌّ الْبَوْلِ قَدْ ذَكَروا وَالزَّنْجَبيلُ دَواءٌ لِلَّذي سَعَلا
وَأَكْثَرُ الْحَيْضِ عَشْرٌ عِنْدَ عالِمِنا وَالْقُرْءُ قالَ الْفَقيهُ الطُّهْرُ إِذْ سُئِلا
وَقُلْ صَلاةُ ذَوي الْأَحْداثِ فاسِدَةٌ وَالْبَيْعُ مُنْتَقِضٌ إِنْ كانَ قَدْ جُهِلا
وَالْخَمْرُ حِرْمٌ وَحِجُّ الْبَيْتِ مُفْتَرَضٌ وَالصَّمْتُ حُكْمٌ وَلكِنْ قَلَّ مَنْ فَعَلا
وَقُلْ زَكاتُكَ بُرْهانٌ وَصَبْرُكُمُ لَكُمْ ضِياءٌ فَخُذْ أَمْثالَنا جَلَلا
وَإِنْ بَحَثْتَ عَنِ الْأَوْضاعِ مُطَّلِبًا حَقِّقْ وَقُلْ وَضْعُهُمْ فَرْعُ الَّذي عُقِلا

من باب الاستثناء لابن مالك

ما اسْتَثْنَتِ الا مَعْ تَمامٍ يَنْتَصِبْ وَبَعْدَ نَفْيٍ أَوْ كَنَفْيٍ انْتُخِبْ
إِتْباعُ ما اتَّصَلَ وَانْصِبْ ما انْقَطَعْ وَعَنْ تَميمٍ فيهِ إِبْدالٌ وَقَعْ
وَغَيْرُ نَصْبِ سابِقٍ فِي النَّفْيِ قَدْ يَأْتي وَلكِنْ نَصْبَهُ اخْتَرْ إِنْ وَرَدْ
وَإِنْ يُفَرَّغْ سابِقٌ إِلّا لِما بَعْدُ يَكُنْ كَما لَو الّا عُدِما
وَأَلْغِ إِلّا ذاتَ تَوْكيدٍ كَلا تَمْرُرْ بِهِمْ إِلّا الْفَتى إِلّا الْعَلا
وَإِنْ تُكَرَّرْ لا لِتَوْكيدٍ فَمَعْ تَفْريغِ التَّأْثيرَ بِالْعامِلِ دَعْ
في واحِدٍ مِمّا بِإِلّا اسْتُثْني وَلَيْسَ عَنْ نَصْبِ سِواهُ مُغْني

و«الإضافة » ، استطرادا مما يخص الفعل إلى ما يخص الاسم ، وأخرت بابي «الفاعل والمفعول » و «المنصوبات » .

وسوء التخلص ؛ فلقد تسَوَّرَت العمانية باب « حروف العطف » مثلا ، من باب «المنصوبات »، وباب « المدغمات » من باب « حروف العطف » ، دون تمهيد .

وعدم تعليم المنظومة ؛ فلا نعرف إلا أن الزاملي حث على كتابة ما صنعه وإكماله(١٣٥)، وأن لم يرد الخروصي إلا إجابة النَّدْب وفي نفسه معنى المباراة ، وهما ومن بعدهما أعلم منا بمخرج منظومتهما عن نزوع فني ، لا نظام تعليمي .

[39] وبعد تلك الموازنة العامة ، أوازن بالعمانية المالكية موازنة خاصة ، من خلال مقتطعات منهما بينها توارد شديد .

ولم أجد بعد طول إبداء وإعادة ، أقرب مناسبة للمالكية ، من بابي العمانية : الابتداء والخبر ، والاستثناء (١٣٦) ، ولا سيما أن أولهما للزاملي وآخرهما للخروصي؛ ففيهما نيابة عن العمانية وافية ، وتمييز بين عملي الناظمين عادل .

لقد اقتصرت من أوائل بابي المالكية ، على مثل عدديهما من العمانية (١٣٧) ، ثم وضعت ذلك كله متجاورا ، ووصلت أعداد كل مقتطعين إيجازا وتيسيرا ، على النحو الآتي :

من باب الابتداء لابن مالك

مُبْتَدأٌ زَيْدٌ وَعاذِرٌ خَبَرْ إِنْ قُلْتَ زَيْدٌ عاذِرٌ مَنِ اعْتَذَرْ
وَأوَّلٌ مُبْتَدَأٌ وَالثّاني فاعِلٌ اغْنى في أسارٍ ذانِ
وَقِسْ وَكَاسْتِفْهامٍ النَّفْيُ وَقَد يَجوزُ نَحْوُ فائِزٌ أُولو الرَّشَدْ
وَالثّانِ مُبْتَدأً وَذا الْوَصْفُ خَبَرْإِنْ في سِوى الإِفْرادِ طِبْقًا اسْتَقَرْ
وَرَفَعوا مُبْتَدأً بِالابْتِدا كَذاكَ رَفْعُ خَبَرٍ بِالْمُبْتَدا
وَالْخَبَرُ الْجُزْءُ الْمُتِمُّ الْفائِدَهْ كَاللّهُ بَرٌّ وَالْأيادي شاهِدَهْ

والقطع (مستفعلْ) وهو علة صعبة ، والطي (مستَعِلن) وهو زحاف سهل ، والسلامة (مستفعلن) ، والخبن والقطع معا (متَفعلْ) ، وكما في سائر تفاعيل البيت المترددة بين الطي والسلامة والخبن ، بل قد بلغ من تغيرها أن اجتمع فيها الخبن والطي (الخبل) (متعلن) في التفعيلة الخامسة من البيت الخامس والثانية من البيت الحادي عشر ، وهو عندئذ زحاف مركب ، وكل زحاف مركب فهو زحاف قبيح(١٣٨)، ثم تغيرت بتعديد القوافي ، في آخر كل بيت ، الأصواتُ ، وبمثل هذا يغمض العروض.

وإن من ذلك لاميّة رَوي العمانية ، على رغم تردد قوافي المالكية فيه بين الأصوات المختلفة ؛ فاللام من أقوى الأصوات الصامتة إسماعا (١٣٩) ، ثم هي من أكثر الرّواء (جمع روي) استعمالا ، في الشعر العربي على وجه العموم (١٤٠) ، لكثرة مادتها من الكلمات المختومة بها ؛ فمستعملها باق عند مألوف المتلقي ، حري بأن يعلقه بعمله .

[41] وعلى حين اصطنعت المالكية في عرض مسائلها الإيجاز ؛ فعصرت عباراتها عنها حتى استخلصت ما لا سبيل غالبا إلى حذف كلمة منه ولا إلى تغييرها ، وألحتّ على الترتيب الذي حمى ذلك الإيجاز من استدعاء كلمة القافية ، كما في تقديم الجار والمجرور على فعلهما (وقع) كلمة قافية البيت الحادي عشر ، وكما في تقديم المفعول به على فعله (دع) كلمة قافية البيت الخامس عشر - اصطنعت العمانية الإطناب ، واحتفت بالتطويل ، وألحت على الإضافة التي حمته باستدعاء كلمة القافية ، كما في إضافة المفعول لأجله (خجلا) كلمة قافية البيت الأول إلى الخبر ، وكما في إضافة المنصوب بنزع الخافض (عملا) كلمة قافية البيت السادس عشر إلى الخبر .

وعلى حين تحرت المالكية تأخير المثال إلى آخر العَجُز وتقديم إعرابه عليه ، كما في البيتين الأول والثاني وغيرهما ، اطمئنانا إلى سهولة تغييره حتى يستقيم البيت - لم تلتزم العمانية في ذلك منهجا واحدا ؛ فجرت في مرة مجرى المالكية كما في البيت الأول ، وقدمت في أخرى المثالَ على إعرابه كما في الرابع عشر .

وَدونَ تَفْريغٍ مَعَ التَّقَدُّمِ نَصْبَ الجَميعِ احْكُمْ بِهِ وَالْتَزِمِ

باب الاستثناء للخروصي

مِنَ المَفاعيلِ مُسْتَثْنًى وَقَدْ شَرَطوا لِنَصْبِهِ كَوْنَهُ مِنْ موجَبٍ نُقِلا
لَمْ يُسْبَقَنَّ بِنَفْيٍ أَوْ مُشابِهِهِ وَكَوْنَهُ فَضْلَةً ما قَبْلَهُ كَمُلا
كَأَقْبَلَ النّاسُ إِلّا راشِدًا وَكَذا يَسْعَوْنَ نَحْوَكَ إِلّا الفارِسَ البَطَلا
وَإِنْ تَقَدَّمَهُ نَفْيٌ وَمُشْبِهُهُ فَذا المُفَرَّغُ يُدْعى عِنْدَ مَنْ عَقَلا
ما جاءَ إِلّا فَتًى تَمَّتْ مَحاسِنُهُ وَما رَأَيْتُ هُنا إِلّا امْرَأً عَدَلا
ما بَعْدَ إِلّا فَمَفْعولٌ بِآخِرِهِ فِي أَوَّلٍ فاعِلٌ خُذْهُ قَدِ اكْتَمَلا
وَإِنْ يَكُنْ بَعْدَ لا لِلْجِنْسِ جاءَ هُنا فَرَفْعُ ما بَعْدَ إِلّا واجِبٌ عَمَلا
تَقولُ لا رَبَّ إِلّا اللهُ مُعْتَقِدًا وَمُخْلِصًا فيهِ كَيْما تَبْلُغَ الأَمَلا

[40] إن عروض العمانية (بحر البسيط الوافي المخبون العروض والضرب ، وقافية اللامية المطلقة المجردة الموصولة بالألف) ، أوضح من عروض المالكية (بحر الرجز المشَطَّر المزْدَوِج) .

لقد غلب على العمانية ثبات تفاعيل كل بيت منها على نحو واحد ، كما في التفعيلتين البارزتين الرابعة والثامنة ، الثابتتين على الخبن (فعلن) في أبياتها كلها ، وهو زحاف سهل ، والتفعيلتين الثالثة والسابعة ، الثابتتين على السلامة (مستفعلن) كذلك ، أي في ثمان وستين ٦٨ تفعيلة من ست وثلاثين ومئة ١٣٦ ، بنسبة ٥٠٪ ، ثم ثبتت باتحاد القوافي في آخر كل بيت من أبياتها ، الأصواتُ نفسها ، وبمثل هذا وذاك يتضح العروض – على حين غلب على المالكية تغير تفاعيل كل بيت من أبياتها – وهو أمر مشهور في بحر الرجز ، وبه كان شَعْبيًا – كما في التفعيلتين البارزتين الثالثة والسادسة المتغيرتين في كل بيت من أبياتها ، بالخبن (متَفعلن) وهو زحاف سهل ،

[42] لقد عرض ابن مالك في مقتطعه الأول لسبع مسائل ، وفي المقتطع الآخر لخمس ، وعرض الزاملي لمسألة واحدة ، والخروصي لمسألتين [١٤١] .

ولقد بين ابن مالك في مقتطعه الأول ، كلا من مسألتيه الأولى والسادسة ، بمثال واحد ، وكلا من مسألتيه الثانية والرابعة ، بمثالين ، مستغنيا عن تبيين الثالثة والخامسة والسابعة ، وبين في مقتطعه الآخر ، مسألته الرابعة ، بمثال واحد ، مستغنيا عن تبيين الأولى والثانية والثالثة والخامسة ، وبين الزاملي مسألته اليتيمة، بثمانية عشر مثالا ، والخروصي كلا من مسألتيه ، بمثالين ، على النحو الآتي في الجدول.

الاستثناء لابن مالك	2	المستثنى بإلا في الكلام التام المنفي	×	×
	3	المستثنى بإلا في الكلام المفرغ	×	×
	4	المستثنى بإلا النكرة الموكدة	×	×
	5	المستثنى بإلا النكرة الغير الموكدة	×	×
باب الاستثناء للخروصي	1	المستثنى بإلا في الكلام التام الموجب	1 2	أقبل الناس إلا راشدا يسعون نحوك إلا الفارس البطل
	2	المستثنى بإلا في الكلام المفرغ	1 2 3	ما جاء إلا فتى ما رأيت هنا إلا امرأ عدل لا رب إلا الله

[43] إنه إذا كانت مسائل الأبواب وأمثلة المسائل ، مقياسين من مقاييس مراتب المتعلمين الذين تصنع لهم المتون ومنها المنظومات ، بحيث إذا كانوا من المتخصصين كثرت المسائل ولا سيما المشْكلات ، وقلت الأمثلة واقتصرت على تصوير المشكلات اعتمادا على حَصيلتهم ، وإذا كانوا من المبتدئين قلت المسائل ولا سيما الأوَّليّات ، وكثرت الأمثلة ولم تقتصر على تصوير المشكلات أخذا بأيديهم وعطفا لقلوبهم[١٤٢] - كانت مَرْتَبَة مَنْ صُنِعَتْ لهم العمانية أقربَ إلى المبتدئين ، ومَرْتَبَةُ مَنْ صُنِعَتْ لهم المالكية أقربَ إلى المتخصصين .

المقطع	م	مسائله	م	أمثلتها
من باب الابتداء لابن مالك	1	المبتدأ ذو الخبر	1	زيد عاذر من اعتذر
	2	المبتدأ ذو الفاعل السادّ مسدّ الخبر	1 2	أسار ذان فائز أولو الرشد
	3	رافع المبتدأ والخبر	×	×
	4	الخبر المتم الفائدة	1 2	الله بر الأيادي شاهدة
	5	أقسام الخبر	×	×
	6	رابط جملة الخبر بالمبتدأ	1	نطقي الله حسبي
	7	اشتمال الخبر المفرد على ضمير المبتدأ	×	×
باب المبتدأ والخبر للزاملي	1	ارتفاع المبتدأ والخبر	1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18	زيد مقيم عمرو ذاهب الجهنذر ضرب من تمورهم القطب قت الشيح نبت فلا معدة المرء بيت الداء حبه رأس الشفاء الزعفران مدر البول الزنجبيل دواء للذي سعل أكثر الحيض عشر القرء الطهر صلاة ذوي الأحداث فاسدة البيع منتقض الخمر حرم حج البيت مفترض والصمت حكم زكاتك برهان صبركم لكم ضياء
من باب	1	المستثنى بإلا في الكلام التام الموجب	1	لا تمرر بهم إلا الفتى إلا العلا

رشيق في المتبع : « إذا تناول معنى فأجاده ، بأن يختصره إن كان طويلا ، أو يبسطه إن كان كزا ، أو يبينه إن كان غامضا ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا ، أو رشيق الوزن إن كان جافيا – فهو أولى به من متبوعه ، وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر ، فأما إن ساوى المبتدع فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها»(١٤٥) ؛ فكثير من ذلك قد فعلاه .

خاتمَةٌ

[46] لعل هذا البحث أن يكون وُفِّقَ إلى بيان ما يقوم بالمنظومات النحوية : العربية على العموم ، ثم العمانية على الخصوص ، ثم الزاملية الخروصية على خصوص الخصوص – من دلالة قوية بديعة على وجه من تاريخ النحو . أما قوتها فببقائها إلى الآن ؛ فليس أقوى من الدليل الباقي ، وأما بَداعتها فبصدورها عن نزوع العلماء إلى الفن ؛ فليس أبدع من الدليل المركب .

ولقد سَلَكتُ في سبيل ذلك ثلاثَ سُبُلٍ :

أما أولاها فنقد المنظومات النحوية العربية من خلال ما صنعه بها بعض الباحثين، الذي انتهيت منه إلى سبق غيره له إلى فكرة بحثه ، ثم سداد المنظومة مصطلحا ، ثم إهماله لنقد مادته ، ثم خطأ تقليله من شأن المنظومات ، ثم إخفاقه في إحكام ضبط ترتيبها التاريخي ، ثم إخفاقه فيما اشترطه على نفسه من اطراح منظومات المتون المنثورة السابقة ، ثم قلة المادة الحاصلة له ، ثم ندرة نظم الناظم أكثر من منظومة واحدة بالقياس إلى الناثر ، ثم تفاوت حظوظ القرون من المنظومات ، ثم إغفاله التمثيل بأبيات من كل منظومة عثر عليها ، ثم غلبة بحر الرجز فالطويل والقافية المعددة ولا سيما المزدوجة على المنظومات ، ثم غلبة موضوع النحو الخالص عليها ثم النحو والصرف ثم الصرف الخالص ، ثم غلبة الموضوع الواحد في خلال ذلك .

[44] ولا يخفى إيثار الناظمين لاصطناع الأمثلة على روايتها وعلى رواية الشواهد.

أما إيثارهم لها على رواية الشواهد ، فمن أنها « سيقت في الأصل لإثبات صحة القاعدة التي استنبطها النحويون القدماء بعد استقرائهم لكلام العرب ، ويكثر سوقها ومناقشتها عندما يختلف النحويون في إجازة تركيب أو رفضه أو إجازة صيغة أو رفضها ؛ فيحتاج المجيز إلى أن يسوق نصا يشهد بصحة دعواه ، كما يكثر سوق الشواهد أيضا لبيان ما ند عن القاعدة المستنبطة وشذ عنها » (١٤٣) . وفضلا عن مناقضة ذلك للتلخيص الذي هو هَمّ المنظومات ، لم يكن الشاهد ليستقيم غالبا على مقتضى عروض المنظومة إلا أن يغير ، ولم يكن لأي منهم أن يجترئ على نظم آي القرآن فضلا عن أن يغيرها ، فأما الشاهد مما سوى القرآن ، فإنه إذا غيّرَ لم يَشهدْ ، أو لم ينفع . وفي ذلك دليل على أن الكلام الفني يَتداعى ؛ فيثقل على مبدعه أن ينتزع نفسه من غمْرته لينقل مثالا لا شهادة له !

[45] ولكن لم يكن لمعلم أن يحشد من الأمثلة مثلما حشد الزاملي – مهما يكن تلامذته – إلا أن يكون قد أغفل مراده ، واستطرد يذكر طرفا من همومه ، ومثل هذا أعلق بالفن منه بالعلم .

لقد صدف عن مسرد المسائل ، ثم أقبل يهدر بأمثلته فيما يحب من الحنين إلى القدماء بزيد وعمرو اللذين صارا رمزا نحويا ، ثم إلى البداوة بالتمر والقت والشيح، ثم إلى الطب العربي بما في المعدة والحمية والزعفران والزنجبيل ، ثم إلى الفقه بعدة الحيض وصلاة الأحداث وبيع الغرر وحرمة الخمر وفريضة الحج ، ثم إلى التفسير بالصمت والزكاة والصبر ، دالا بمقدرته «خذ أمثالنا جللا» ، على تمسكه بنزوعه إلى الفن ، ولا سيما أن نجد أمثلة المالكية وغيرها من متون علم النحو ، في الدلالة على مكارم الأخلاق ، بابا من أبواب التأديب والتهذيب تمسكوا به فيما تمسكوا ، وكأنه من أبواب العلم (١٤٤) .

وبذلك كله يجوز في ناظمي العمانية على رغم اتباعهما لابن مالك هنا ، قول ابن

حَواشي الْبَحْث

١ -ابن الشيخ (جمال الدين) : « الشعرية العربية » ، ترجمه مبارك حنون وأخران ، وطبع الأولى سنة ١٩٦٦م ، ونشرته دار توبقال بالدار البيضاء ، ١٦٤ ، و صادق (دكتورة آمال أحمد مختار) « لغة الموسيقى : دراسة في علم النفس اللغوي وتطبيقاته في مجال الموسيقى » ، طبع الأولى سنة ١٩٨٨ ، ونشره مركز التنمية البشرية والمعلومات بالقاهرة ، ١٥٢-١٥٤ ؛ فقد نبها على أثر سريان حركة قطعتين شعرية وموسيقية ، من ملقيهما إلى متلقيهما .

٢- صائب (سعد) : « فن الشعر في قصائد شعراء العالم وكلماتهم » ، طبع الأولى سنة ١٩٨٥م ، ونشرته دار طلاس بدمشق ، ١٤- ١٥، وفيشر (إرنست) : « ضرورة الفن »، نقله إلى العربية الدكتور ميشال سليمان، ونشرته دار الحقيقة ببيروت ، ١٣٥ ، وويليك (رينيه) ووارين (أوستن) « نظرية الأدب » ، ترجمه محيي الدين صبحي وراجعه الدكتور حسام الدين الخطيب ، وطبع الثالثة سنة ١٩٨٥م، ونشرته المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ، ٤٠٩-٤١٠ ، ٤٢٥-٤٢٦.

٣- ضيف (الدكتور شوقي) : « التطور والتجديد في الشعر الأموي » ، طبعته السابعة دار المعارف بالقاهرة ، سنة ١٩٨١م ،٣١٢-٣٢٤ ؛ فقد صنع فصلا في شعر رؤبة بن العجاج، سماه « متون رؤبة».

٤ -الأصفهاني (علي بن الحسين) : « الأغاني » ، أشرف على تحقيقه إبراهيم الإبياري ، وطبعته دار الشعب بالقاهرة ، سنة ١٣٨٩هـ=١٩٦٩م ، ١٠٢٣/٣ ، وكذلك ضيف : ٣٢٣ .

٥- عبادة (الدكتور محمد إبراهيم) : « النحو التعليمي في التراث العربي »، أودع سنة ١٩٨٩م ، ونشرته مكتبة منشأة المعارف ، بالإسكندرية ، ٨٨ ، ٢٤٢ .

٦- نجيب (الدكتور محمود) : « المنظومات النحوية وشروحها : حلقة من تاريخ النحو » ، طبع الأولى سنة ١٤٢٣هـ=٢٠٠١م ، ونشرته مكتبة الفارابي بدمشق ، ٥ ، ٦.

٧- الفراهيدي (الخليل بن أحمد) : « المنظومة النحوية » ، درسها وحققها الدكتور أحمد عفيفي ، وأعدها للطبع محمد علي الصليبي ، ونشرتها وزارة التراث القومي والثقافة العمانية ، سنة ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م ، ١٦ .

٨-الجلالي(محمد جـــواد):« الفقه المنظـــــوم » ، magazines/FEQH19A/maj-1907.htm/ ، http://www.islamicfeqh.org

٩- الأحمر (خلف بن حيان) : « مقدمة في النحو »، حققه عز الدين التنوخي ، ونشره المجمع العلمي العربي بدمشق ، سنة ١٣٨١هـ =١٩٦١م ، ٨٥ .

١٠- خليفة (حاجي) : « كشف الظنون » ، في موقع « www.alwaraq.com » ١٧٦، ؛ فقد نبه على اشتهار « خلاصة » ابن مالك ، بالألفية ، لأنها ألف بيت .

وأما ثانيتها فنقد المنظومات النحوية العمانية من خلال ما تيسر لي ، الذي انتهيت منه إلى تخريج ست منظومات للفراهيدي ، والخليلي ، والسالمي ، والزاملي والخروصي ، والجامعي ، والمالكي ، ثم الارتياب في خلو أحد عشر قرنا منها ، ثم تفرد منظومة الزاملي والخروصي ، ثم بقاء المنظومات ببقاء الناظمين ، ثم ميل الناظم العماني إلى شرح منظومته ، ثم غلبة بحر الرجز فالبسيط عليها ، ثم تعلق موضوعاتها بموضوعات المنظومات النحوية العربية ، ثم وحدة أنماط المتون منثورة ومنظومة ، ثم تبيين أنماط المنظومات ولا سيما العمانية .

وأما آخرتها فنقد منظومة الزاملي والخروصي النحوية العمانية من خلال كتاب شرحها ، الذي انتهيت منه إلى تمييزها بما يدعو إلى دراستها ، ثم وصف كتاب شرحها ، ثم تصنيف أخطاء متنها ، ثم خروجها من النمط الذي خرجت منه منظومة ابن مالك ، ثم اختلال تطابق عناوين الأبواب بينهما ، ثم اختلال تطابق أعداد الأبواب بينهما ، ثم فنية إخلال العمانية بأبواب المالكية ومسائلها ، ثم وضوح عروض العمانية بالقياس إلى المالكية ، ثم طبيعة أسلوب العمانية التطويلي التقديمي وطبيعة أسلوب المالكية الإيجازي التأخيري ، ثم اختلافهما مسائل وأمثلة بما يبين اختلاف من تتجهان إليهم من المتعلمين ، ثم إيثار الناظمين عامة اصطناع الأمثلة على روايتها وعلى رواية الشواهد ، ثم فنية تعلق الزاملي بالتمثيل ، ثم عدم انتساخ العمانية بالمالكية على رغم اتباعها لها .

٢٥- نجيب : ٦ .

٢٦- السابق : ٢٩-٧٢ .

٢٧- عبادة : ١٦ . وراجع الجلالي : ٢١ ؛ فقد تمسك بتصنيف المنظومات الفقهية على حسب مقدار ما انتظمت من أبواب الفقه ، على رغم تصنيف علامته الطهراني لها على حسب ما سلكت من العروض .

٢٨- نجيب : ١١ .

٢٩- السابق نفسه .

٣٠- الحريري (القاسم بن علي بن محمد) : « شرح ملحة الإعراب » ، حققه وعلق عليه بركات يوسف هبّود ، وطبعته المطبعة العصرية ببيروت سنة ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م ، ونشرته المكتبة العصرية ببيروت،٣٥ .

٣١- نجيب ٢١ .

٣٢- اليوسفي (حمدان بن سالم بن خميس بن سالم) : « إسعاد الراوي على حل أبيات لامية الشيخ الشبراوي »، العدد ٣٣ ليونيو من سنة ١٩٨٢، من سلسلة تراثنا ، نشرته وزارة التراث القومي والثقافة العمانية ، ونص المتن في آخر الشرح .

٣٣- نجيب : ٢٢ .

٣٤- السابق : ٧٥ .

٣٥- السابق : ٧٣ .

٣٦- عبادة : ٨٩ .

٣٧- السابق : ٨٨ .

٣٨- نجيب : ٦ .

٣٩- السابق : ١٢ .

٤٠- السابق : ٢١ . بل قد جعل وفاة الخليل بن أحمد الفراهيدي ، سنة ١٨٠هـ ، والصواب أنها سنة ١٧٥هـ ، كما أثبت الطنطاوي (الشيخ محمد) : « نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة » ، طبعة دار المعارف بمصر ، الخامسة سنة ١٣٩٣هـ=١٩٧٣م ، ٧٩ ، والمخزومي (الدكتور مهدي) والسامرائي (الدكتور إبراهيم) : « العين » ، نشرة مؤسسة دار الهجرة ، على الغلاف - وجعل وفاة محمود بن حمزة الكرماني سنة ٥٢٠هـ ، والصواب أنها نحو سنة ٥٠٥هـ ، كما عند الزركلي (خير الدين) : « الأعلام » ، طبعة دار العلم للملايين ، الرابعة ببيروت ، سنة ١٩٧٩م ، ١٦٨/٧ .

٤١- السابق : ٦ .

١١- لقد وجدت عند نجيب : ١٦ ، بعض أصحاب هذه المنظومات ، سمى منظومته برويها « ميمية » مثلا ، كميمية حازم .

١٢- وإن استعملها بعض الناظمين أنفسهم ، كالجامعي (حميد بن عبد الله) : « إبهاج الصدور شرح نحوية أبي سرور » ، نشرته مكتبة مسقط ، بسلطنة عمان ، الآتي تفصيل شأن منظومته .

١٣- المعري (أحمد بن سليمان) :« لزوم ما لا يلزم » ، شرحه وحققه إبراهيم الإبياري ، طبعة سنة ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م ، الثانية ، ونشرته دار الكتب الإسلامية بالقاهرة وبيروت ، ٤/١ .

١٤- السالمي (عبد الله بن حميد بن سلوم) : « شرح بلوغ الأمل في المفردات والجمل » ، طبع الأولى سنة ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م ، ونشرته وزارة التراث والثقافة العمانية ، ١٥ .

١٥- نجيب : ١١ .

١٦- الصبان (محمد بن علي) : « حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك » ، طبعته دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه) ، ١٤/١ . وهذه « (...) » علامة حذفي أنا لا صاحب النص ، من نصه ما لا أريده ، فأما هذه « ... » ، فعلامة حذف صاحب النص نفسه في خلال كلامه ما لا يريده .

١٧- نجيب : ١٦ .

١٨- الأخفش (سعيد بن مسعدة) : « كتاب العروض » ، حققه الدكتور أحمد محمد عبد الدايم ، وطبعته العمرانية سنة ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م ، ١٤٩ .

١٩- نجيب : ٢٣ .

٢٠- الصبان : ١٧/١ . ولقد وقف على المنقوص المجرد من (أل) ومن الإضافة ، برد يائه : « معطي »، وهو جائز ، والمختار حذفها ، راجع ابن عقيل (عبد الله المصري الهمداني) : « شرح ابن عقيل»، طبع العشرين سنة ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م ، ونشرته دار التراث بالقاهرة ، ١٧٢/٤ .

٢١- الدماميني (محمد بن أبي بكر) : « العيون الغامزة على خبايا الرامزة » ، حققه الحساني حسن عبد الله ، وطبعه المدني بالقاهرة ، سنة ١٩٧٣ ، ١٨٧ .

٢٢- ابن جني (عثمان) : « الخصائص » ، حققه محمد علي النجار ، وطبعته الثالثة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٦م ، ٣٤/١ .

٢٣- ابن عصفور (علي بن عبد المؤمن) : « المقرب » ، حققه أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري ، وطبعه العاني ببغداد سنة ١٩٨٦م ، ونشرته وزارة الأوقاف والشؤون الدينية العراقية،٤٤.

٢٤- الصبان : ١٥/١ .

٥٩- ابن عصفور : « الممتع في التصريف » ، حققه الدكتور فخر الدين قباوة ، وطبع الخامسة سنة ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م ، ونشرته الدار العربية للكتاب بليبيا ،١/٣٠-٣١ .

٦٠- الفراهيدي : ١٦ ، وراجع الفارسي (سيف بن محمد) : « البركة في شرح القصيدة النحوية المشتركة » ، طبعته مطبعة الفيحاء سنة ١٤٢٠هـ=١٩٩٠م ، ونشره مكتب مستشار جلالة سلطان عمان للشؤون الدينية والتاريخية ، ١٦ .

٦١- الدمنهوري (محمد) : « الإرشاد الشافي على متن الكافي في علمي العروض والقوافي » ، طبعه عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ، ١٣٢ ؛ فقد نبه على أن القصيدة أبيات من بحر واحد ، متساوية في عدد التفاعيل ، وفي جواز ما يجوز فيها ، ولزوم ما يلزم ، وامتناع ما يمتنع .

٦٢- من بحر الكامل .

٦٣- صوتها الأقوى الأثبت (رويها) باء .

٦٤- رويها ذاك ، مضموم .

٦٥ -الفراهيدي : ١٨٥ .

٦٦ -السابق : ٢٢٥ .

٦٧- عفيفي (الدكتور أحمد) : « المنظومة النحوية للخليل ، (مرة أخرى) : رد على منظومة (هادي حسن حمودي) » ، مقال بالعدد السادس من مجلة نزوى ، صدر عن مؤسسة عمان للصحافة http://www.nizwa.com/browes6.html

٦٨- الخليلي (سعيد بن خلفان بن محمد بن أحمد) : « مقاليد التصريف » ، طبع سنة ١٤٠٧هـ=١٩٨٦م ، ٥/١ .

٦٩- السابق : ١٦٨/٣ .

٧٠- عبد العزيز (الدكتور إبراهيم الدسوقي) : « مقاليد التصريف : دراسة مقارنة » ، بحث بكتاب « قراءات في فكر الخليلي » ، صدر عن وزارة التراث القومي والثقافة العمانية ، بإشراف سالم الغيلاني ، وإعداد محمد الصليبي ، وطبع سنة ١٤١٤هـ=١٩٩٤م ، و الوزير (الدكتور محمد رجب) : « الجانب العلمي في شرح مقاليد التصريف للخليلي » ، بحث بكتاب «قراءات في فكر الخليلي» ، صدر عن وزارة التراث القومي والثقافة العمانية ، بإشراف سالم الغيلاني ، وإعداد محمد الصليبي ، وطبع سنة ١٤١٤هـ=١٩٩٤م .

٧١- السالمي : « شرح بلوغ الأمل » ، ١٧ ، ١٨ .

٧٢- السابق : ١٢٤ .

٧٣- الكندي (الدكتور إبراهيم بن أحمد بن سليمان) : « السالمي أديبا ولغويا » ، بحث بكتاب «قراءات

٤٢- السابق : ١٦ .

٤٣- السابق : ١٧ .

٤٤- السابق : ٢٥ .

٤٥- السابق : ٢٧ .

٤٦- السابق : ٦ .

٤٧- أطفيش (محمد بن يوسف) : « شرح لامية الأفعال »، طبع سنة ١٤٠٧هـ=١٩٨٦م ، ونشرته وزارة التراث القومي والثقافة العمانية . وإنما ذكرت شرحه على كثرة شروحها ، لعلاقته ببعض المنظومات العمانية الآتي ذكرها .

٤٨- نجيب : ١٧ .

٤٩- السابق : ١٥ .

٥٠- السابق : ١٢ .

٥١- السابق : ١٦ .

٥٢ السابق : ١٤

٥٣- الأخفش : ١٤٩ .

٥٤- ابن معط (يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور) : « الدرة الألفية »، حققه الدكتور إمام حسن الجبوري ، وطبعته الأمانة بالقاهرة ، ١ .

٥٥- ابن رشيق (الحسن) : « العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده » ، حققه وفصله وعلق حواشيه، محمد محيي الدين عبد الحميد ، وطبعته الخامسة دار الجيل ببيروت ، سنة ١٤٠٤هـ=١٩٨١م ، ٣٠٤/١ ، وضيف : ٣٢٣ ؛ فقد قال في رؤبة بن العجاج : « هو الذي جعل الشعراء فيما بعد يتجهون إلى الرجز ، ليودعوا فيه ما يريدون من شعر تعليمي » .

٥٦- المعري : « الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ » ، ضبطه وفسر غريبه محمود حسن الزناتي ، وطبعته دار الآفاق الجديدة ببيروت ، ٣١٢ ، والبحراوي (الدكتور سيد) : « العروض وإيقاع الشعر » ، طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٣م ، ٥٦ .

٥٧- صقر (الدكتور محمد جمال) : « علاقة عروض الشعر ببنائه النحوي » ، طبعه الأولى المدني بالقاهرة ، سنة ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م، ١٧٢ ، والدماميني : ١٨٨

٥٨- البهبيتي (الدكتور نجيب محمد) : « تاريخ الشعر العربي حتى أواخر القرن الثالث الهجري » ، طبعته النجاح الجديدة سنة ١٩٨٢م ، ونشرته دار الثقافة بالدار البيضاء ،٣١٠-٣١١ ، وهو ما رآه من قبله ابن رشيق : ١٨٢/١ .

٨٨- الكندي : ٨٣ .

٨٩- عبد العزيز : ٣٤ .

٩٠- نجيب : ٧٤ .

٩١- عبادة : ٣٥ .

٩٢- المالكي : ٦ ، ٨ .

٩٣- المعري : « الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ » ، ضبطه وفسر غريبه محمود حسن الزناتي، وطبعته دار الآفاق الجديدة ببيروت ، ٣١٢ ، والبحراوي : ٥٦ .

٩٤- أطفيش : ٢٢/١ .

٩٥- السابق : ٤٨٠/٤ ، ٤٨١ .

٩٦- المالكي : ٨ .

٩٧- عبادة : ٧٩.

٩٨ الرضي (محمد بن الحسن) : « شرح شافية ابن الحاجب » ، حققه وضبط غريبه وشرحه الأساتذة محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد ، وطبعته دار الفكر العربي .

٩٩- الفراهيدي : ١٨٨ .

١٠٠- عبادة: ٤٠-٥٦ .

١٠١- الفراهيدي : ٥١-٥٤ ، ١٤٢ .

١٠٢- عبادة : ٢٧-٤٠ .

١٠٣- السابق : ١٩-٨٠ .

١٠٤- السابق : ٢٠ .

١٠٥- السابق : ٧٢-٧٧ .

١٠٦- السالمي : « شرح بلوغ الأمل » ، ١٥ .

١٠٧- عبادة : ١٩- ٢٦ .

١٠٨- الفراهيدي : ١٨٥-٢٢٥ .

١٠٩- الفارسي : ٢٠٥.

١١٠- كأنما صار هذا التقصير عما ينبغي لناشر الكتاب العماني ، عادة سيئة ؛ فهذا خالص (الدكتور وليد محمود) : « نص في السلوك العماني للشيخ سعيد بن خلفان الخليلي المتوفى سنة ١٢٨٧ للهجرة : دراسة وتحقيق »، العدد الرابع من مجلة نزوى الصادرة عن مؤسسة عمان للصحافة

في فكر السالمي » ، صدر عن وزارة التراث القومي والثقافة العمانية ، بإشراف سالم الغيلاني ، وإعداد محمد علي الصليبي ، وطبع سنة ١٤١٣هـ=١٩٩٣م .

٧٤- الفارسي : ٢١ .

٧٥- السابق : ٣٩ .

٧٦- السابق : ٤٠ .

٧٧- السابق : ٥١ .

٧٨- الجامعي : ٢٣/١ .

٧٩- السابق : ٤٠٠/٢ .

٨٠- بدر الدين (الدكتور حمدي) : « الجانب اللغوي والفقهي في شعر أبي سرور » ، بحث بكتاب «قراءات تحليلية لشعر حميد بن عبد الله الجامعي (أبي سرور) » ، صدر عن وزارة التراث لقومي والثقافة العمانية ، وطبع سنة ١٤٢٢هـ= ٢٠٠١م .

٨١- المالكي (محمد بن حمد) : « منحة الوهاب في نظم قواعد الإعراب »، طبع الأولى سنة ١٤١٩هـ،٩.

٨٢- السابق : ٢٤٠ .

٨٣- عبد العزيز : ٣٣-٣٥ .

٨٤- الخليلي : ٥/١ .

٨٥- السالمي (عبد الله بن حميد بن سلوم) : « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » ، طبعته المطابع الذهبية بمسقط عمان ، ٢٦٢/١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ١١٧/٢ ، ١١٨ ، والحجي (خلفان بن زهران) : «المخطوطات العربية في المكتبات العمانية : دراسة لتكوينها وسبل الاستفادة منها » ، ماجستير بشعبة المكتبات من قسم المكتبات والوثائق والمعلومات ، من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية ، بجامعة السلطان قابوس ، لسنة ١٤١٨هـ=١٩٩٧م ، أشرف عليها الأستاذ الدكتور عبد الستار عبد الحق الحلوجي ، ٢١-٢٢ .

٨٦- مازلت ألقى أو أسمع بمن عالج نظم باب من أبواب علم يحبه :

زارني بكلية دار العلوم في منتصف تسعينيات القرن الميلادي العشرين ، شُرْطي من حملة القرآن الكريم ، يحرس بمدينة طالبات جامعة القاهرة ، كان قد نظم في بعض علومه منظومة رغب إليّ أن أنظر فيها .

وبلغني عن بعض الموريتانيين ، أنه نظم كلمات بعض معاجم الفرنسية ، تمكنا منها !

٨٧- السالمي : « شرح بلوغ الأمل » ، ١٥ .

٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٩ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٥ ، ٣٢٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٧٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ ، ٤١٦ ، ٤٤٧ .

١٢٤- السابق : ٧٦-٧٧ . و(لا) هذه بعد دخول أداة الشرط عليها ، نافية لا ناهية . راجع حسن (عباس) : « النحو الوافي » ، المطبوع التاسعة ، بدار المعارف ، بالقاهرة ، ٣٩٨/٤ .

١٢٥- عبادة : ٧٧ .

١٢٦- السابق : ٢٠.

١٢٧- الفارسي : ٣٨-٣٩ .

١٢٨- ابن عقيل : ٢٤٨/٤-٢٥٣ .

١٢٩- السابق : ٧٤/٢-١١٠ .

١٣٠- الفارسي : ٣٨ .

١٣١- السابق : ٣٨ .

١٣٢- السابق : ٣٩ .

١٣٣- السابق : ٤٠، ٥١ .

١٣٤- السابق : ٢٠٥ .

١٣٥- السابق : ٩ .

١٣٦- السابق : ٣٣ ، ٤٢ .

١٣٧- ابن عقيل : ١٨٨/١- ٢٠٥ ، ٢٠٩/٢-٢٢٣ .

١٣٨- الدماميني : ٨٦ .

١٣٩- أيوب (الدكتور عبدالرحمن) « أصوات اللغة »، طبعة الكيلاني بالقاهرة ، الثانية سنة ١٩٦٨م ، ١٣٥-١٣٦ .

١٤٠- أنيس : (الدكتور إبراهيم) « موسيقى الشعر »، الطبعة السادسة سنة ١٩٨٨م ، نشرة مكتبة الانجلو المصرية ، ص٢٦٠ ، ٢٤٨ ، والمعري : « لزوم ما لا يلزم » ، شرحه وحققه إبراهيم الإبياري، وطبع الثانية سنة ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م ، ونشرته دار الكتب الإسلامية بالقاهرة وبيروت ، ١ / ٤ ، وصقر : ١٧٨ .

١٤١- وإن أوهم تعبيره عنها أن المفرغ عنده المنفي ، ثم بينته الأمثلة .

١٤٢- عبادة : ٨٤-٩٤ .

١٤٣- السابق : ٨٩-٩٠ .

١٤٤- عبادة : ٩٠-٩٤ .

١٤٥- ابن رشيق : ٢٩٠/٢-٢٩١ .

بمسقط عمان :

http://www.nizwa.com/volume24/p103_111.

يقول : « نرجو أن يكون هذا العمل وغيره دافعا للدارسين – هكذا ، ولعل صواب الطبع إلى – للنظر باهتمام وجد للتراث العماني ، والصبر على قراءة نفائسه ، وبعد هذا نشره نشرا علميا بعيدا عن التسرع والعجلة اللتين رأيناهما تسمان الكثير من الكتب العمانية المطبوعة ، وهي محتاجة الى مزيد من الجهد والتأني مما يتلاءم مع المنهج العلمي في تحقيق النصوص » . وهذا عبد العزيز ينصح في الخاتمة – ٤٢ – بحاجة كتاب منظومة الخليلي (مقاليد التصريف) ، إلى إعادة طبعه لضبط صيغه ، وتصحيح الأخطاء المطبعية ، وتأصيل الآراء الواردة ، وتخريج الشواهد . وهذا الوزير يوصي – ٢٢٣ – في خاتمة بحثه في كتاب منظومة الخليلي (مقاليد التصريف) نفسه ، بأن يحقق الكتاب ، لتصحيح أخطائه ، وتوثيق نصوصه وآرائه وشواهده ، وترقيم آياته القرآنية .

١١١– الفارسي : ٣١ .

١١٢– ابن الشجري (هبة الله بن علي) : « أمالي ابن الشجري » ، حققه ودرسه الدكتور محمود محمد الطناحي، وطبعه الأولى المدني بالقاهرة ، سنة ١٤١٣هـ=١٩٩٢ ، ونشره الخانجي.

١١٣– الفارسي : ٢٤، ومما وقع فيه كذلك ، الأبيات ٤٢ ، ١٠٧ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٦٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٨ ، ٢٢٤ ، ٢٦٨ ، ٣٣٣ ، ٣٥٠ ، ٣٩٥ .

١١٤– ابن عصفور (علي بن عبد المؤمن) : « ضرائر الشعر » ، حققه السيد إبراهيم محمد ، وطبعته دار الأندلس ببيروت ، الثانية سنة ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م ، ١١٦ .

١١٥– الفارسي : ٢٤ ، ومما وقع فيه كذلك ، الأبيات ٦٨ ، ٩٥ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٢ ، ٢٣٠ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٣٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣١٩ ، ٣٩١ ، ٤٠٤ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ .

١١٦– ابن منظور (المصري) : « لسان العرب » ، طبعته دار المعارف ، نبل .

١١٧– ابن عصفور : ج = ١٧ .

١١٨– الفارسي : ٣١ ، ومما وقع فيه كذلك ، البيت ٤٤٨ .

١١٩– ابن عقيل : ٣/٣٩ .

١٢٠– الفارسي : ٢١ ، ومما وقع فيه كذلك ، الأبيات ١٦٠ ، ١٦٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٣٩٨ ، ٤٢٧ ، ٤٤٤ ، ٤٥٩ .

١٢١– ابن منظور : سمو .

١٢٢– الفارسي : ٢٣، ومما وقع فيه كذلك ، البيتان ٣٢٩ ، ٣٣٧ .

١٢٣– السابق : ٢٦ ، ومما وقع فيه كذلك ، الأبيات ٧ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١١١ ، ١٦٨ ، ٢٠٤ ،

مجلة العلوم الإنسانية
مجلة دورية محكمة تصدر عن كلية الآداب - جامعة البحرين

المحور

■ استخدام المقاطع التضاريسية في إظهار تضاريس الحد السياسي الفلسطيني اللبناني

د. عبد العظيم قدورة مشتهي

■ الاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس

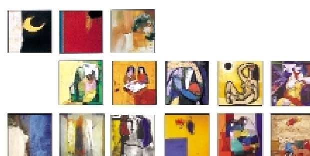
د. أكرم عدوان

■ علاقة الأمير فخر الدين المعني الثاني بالزعامات المحلية الفلسطينية وموقف الدولة العثمانية منه

د. أسامة أبو نحل

■ السياسات الإسرائيلية في استنزاف المياه الجوفية في قطاع غزة

د. أكرم حسن الحلاق



المحور



The use of Profiles in showing Relief of the Palestinian - Lebanese political border

Dr. Abdel Azeem Mushtaha

Abstract

This research paper deals with the relief which the Palestinian - Lebanese political border goes over or breaks up. The research depends upon available contour maps and analysis of the designed relief profiles. These profiles are simple, superimposed and projected. They are chosen to serve the aims of the study through longitudinal extension or on the sides of the political border.

The main conclusion of this research paper is that the political border breaks up relief more than it extends with it. This also shows that the frequency of breaking up of relief features is common. These features are rivers, inter-flux lands, water divide lands and steep cliffs. This means that the political border is imposed on both the Palestinians and the Lebanese.

استخدام المقاطع التضاريسية في إظهار تضاريس الحد السياسي الفلسطيني اللبناني

د.عبد العظيم قدورة مشتهي *

الملخص

يتناول هذا البحث دراسة الأشكال التضاريسية التي يمر منها، أو يقطعها الحد السياسي الفلسطيني اللبناني، اعتماداً على دراسة الخرائط الكنتورية المتاحة، وتحليل المقاطع التضاريسية التي رسمت له، متمثلة في المقاطع التضاريسية البسيطة، والمتداخلة، والبانوراما؛ إذ اختيرت أنواعها لتلبي الغرض من الدراسة، سواء بالامتداد الطولي مع الحد السياسي، أو على جانبيه. ويظهر البحث قطع الحد السياسي الفلسطيني اللبناني للأشكال التضاريسية أكثر من امتداده معها، مع سيادة التكرار للقطع بصفة خاصة، وتتمثل أهم هذه الأشكال التضاريسية في أودية الأنهار، وأراضي ما بين الأودية، ومناطق تقسيم المياه، والحافات شديدة الانحدار، ويعني ذلك أن الحد السياسي المذكور مفروض في مكانه على الفلسطينيين واللبنانيين.

* أستاذ الجغرافية الطبيعية المساعد - جامعة الأزهر - غزة - قسم الجغرافيا.

الأودية. وتتباين الأشكال التضاريسية أو تتكرر على طول الحد السياسي، بوضع تنقطع فيه بواسطته (النمط السائد للحد السياسي) من هنا يبدأ التساؤل حول طبيعة هذا الحد المتغير الاتجاه. ولماذا رسم بهذا الشكل؟.

أهداف البحث ووسائله

تتباين خصائص الأشكال التضاريسية التي يمر منها أو يقطعها الحد السياسي الفلسطيني اللبناني. وذلك انطلاقاً من خط الساحل (حيث يبدأ) قاطعاً لسهل ساحلي ضيق يشرف على مياه البحر المتوسط، إلى النطاق الجبلي بين فلسطين والأردن، وامتداداً مع أعالي حافات شديدة الانحدار تشرف على سهل الحولة، ثم قاطعاً للحافة حيث الأجزاء الوسطي من رافدي نهر الأردن الحاصباني والبريغيث. ويحاول هذا البحث التعرف على الأشكال التضاريسية ومحاورها التي يمر منها الحد السياسي بالاستعانة بالخرائط الكنتورية المتاحة.

أولاً: التعريف بمنطقة الدراسة:

يقع الحد السياسي الفلسطيني اللبناني ضمن دائرة عرض 33 شمالاً (333 ,15 ,33)، وضمن خط الطول 35 شرقاً (356, 35, 30). حيث يبدأ من رأس الناقورة على ساحل البحر المتوسط عند تقاطع دائرة عرض 6 33 شمالاً مع خط الطول 6 35 شرقاً وبطول 79 كم، ماراً بنقط تحديد يبلغ عددها 38 نقطة [1]، لم تحدد إحداثياتها الجغرافية إلا في أول نقطة عند رأس الناقورة [2]، خريطة رقم (1) ، (2).

ويمكن تقسيم هذا الحد السياسي إلى أربعة أقسام حسب اتجاهات سيره، وهي[3]:

القسم الغربي: يبدأ من خط الساحل على البحر المتوسط، ويتجه شمالاً بشرق، بطول يبلغ 5, 22 كم، ويقع بين خطي الطول 356 ,19 35 شرقاً.

القسم الأوسط: يمثل انبعاج صغير داخل فلسطين، قاطعاً لعدد كبير من الأودية،

المقدمة

تلعب الظاهرات التضاريسية ومحاورها المختلفة الأشكال دوراً مهمًّا في ترسيم الحدود السياسية بين الدول، فقد تتخذ مجاري الأنهار، أو خطوط تقسيم المياه، أو الممررات، أو البحار الداخلية والبحيرات مكاناً تمر فيه الحدود السياسية لتفصل بين الدول الواقعة على جانبيها، وقد لعبت مثل هذه الظاهرات دوراً مهمًّا في ترسيم الحدود السياسية لفلسطين، لا سيما الشرقية منها، حيث نهر الأردن والبحر الميت ووادي عربة.

وتحدد الحدود السياسية بين الدول لتفصل بينها ضمن اتفاقيات تحكمها، ولفض النزاعات الإقليمية بينها، وبخاصة فيما يتعلق باستغلال الموارد الطبيعية والبشرية، والتنقل بين جانبيها. وقد تُفرض الحدود السياسية من قبل المستعمرين المحتلين للأرض، بهدف خلق دول تعمل لصالحهم، ولا يراعي في تحديدها البيئية الطبيعية، أو الخصائص البشرية للسكان والعمران، وإنما لتحقيق مصالح تخدم هؤلاء المستعمرين، ممن كانوا وراء ترسيمها.

وقد سعت بريطانيا بالاتفاق مع فرنسا في الفترة بين 1916– 1923 م على ترسيم الحدود السياسية لفلسطين. لأهداف وُضعت كي تخدم من أورثوا الأرض بعدها، وأقاموا دولتهم عليها، وهم الإسرائيليون، وتحت حماية المستعمر الأول وبقوة السلاح، وعلى الرغم من أن حدود فلسطين وبخاصة الشمالية والشمالية الشرقية منها لا تمر في محاور تضاريسية في معظم أجزائها، وتفصل العديد من الأشكال التضاريسية إلى جزأين، نجد أنها حرصت على أن يدخل أكبر عدد من مصادر المياه، وأكبر كمية منها داخل حدود فلسطين، وبخاصة ما يتعلق بالأنهار والأودية، وعيون الماء، والبحيرات.

وقد رسمت الحدود الفلسطينية اللبنانية في منطقة يسودها النمط التضاريسي الجبلي، حيث تمتد كتلة جبلية واحدة بين جنوب لبنان وشمال فلسطين، تقطعها

ومن ناحية تضاريسية فإن الحد السياسي يقطع ظاهرات تضاريسية متكررة النوع أو يسير في محاورها في جزء بسيط منه، وتشمل هذه الظاهرات الأودية بمقاطعها الطولية والعرضية، وأراضي ما بين الأودية، والقمم الجبلية، حيث تدخل فيها مناطق تقسيم مياه، بالإضافة إلى الحافات شديدة الانحدار.

ولا يرتبط تغير اتجاه الحد السياسي بمحاور الأشكال التضاريسية في معظم أجزائه. حيث تظهر بعض الجبال المرتفعة نسبياً على جانبيه، ففي الجانب الفلسطيني يرتفع جبل الجرمق إلى 1208م، وجبل كنعان إلى 906م، وجبل حيدر إلى 1151م فوق مستوى سطح البحر، وفي الجانب اللبناني يرتفع جبل عامل إلى 872م، وجبل مريمين إلى 700م، وجبل هارون إلى 902م فوق مستوى سطح البحر.

هذا، وقد رسم الحد الفلسطيني اللبناني في جزأيه الغربي والأوسط على هضبة بسيطة (Simple Plateau)، تبدأ ببروز كبير نحو البحر المتوسط، تعلوه قمة حانيتا (Hanita Ridge) حيث يمر فيها الحد السياسي، أما التلال والقمم الجبلية المار فيها فقد اختيرت لأسباب أمنية (Security Reasons).[7]

تتبع منطقة الحد السياسي الفلسطيني اللبناني إقليم مناخ البحر المتوسط الماطر شتاءً. إذ تساعد ارتفاعات سطح الأرض باتجاهاتها العمودية على اتجاه الرياح على زيادة كمية الأمطار، والحار جافة صيفاً [8] .

يلاحظ على الحد السياسي المذكور أنه يفصل بين سكان شمال فلسطين وجنوب لبنان المنتمي معظمهم إلى طائفة الدروز الدينية، ويعمل معظم السكان في المنطقة بحرفة الزراعة. وقد عمدت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة على تغيير الخصائص السكانية لشمال فلسطين عن طريق إنشاء المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية (Israeli Settlements) على حساب الأراضي الفلسطينية التي احتلتها في عام 1948 م.

ويجب أن نذكر أن انبعاج الجزء الأوسط من الحد السياسي نحو الجنوب جاء نتيجة تبادل مناطق بين الجانبين الإنجليزي والفرنسي، كانت نتيجة حذف مناطق

ويقع بين خطي الطول 19 35 ,31 35 شرقاً، بطول يبلغ 5 ,23 كم.

القسم الشرقي: يمر في أعالي حافة جبلية تشرف على سهل الحولة، ويقع بين دائرتي عرض 5.5 32 ,3315 شمالاً، وبطول يبلغ 5 ,25 كم.

القسم الشمالي: يأخذ اتجاهاً عاماً جنوبي شرقي - شمالي غربي، وقاطعاً لروافد نهر الأردن العليا (الحاصباني والبريفيث)، بادئاً من بلدة المطلة حتى نهر الحاصباني بطول يبلغ 5 ,7 كم [4].

وبصفة عامة يقع الحد السياسي الفلسطيني اللبناني في أكثر من إقليم تضاريسي:

1- **السهل الساحلي:** يبدأ من نقطة يكاد ينفصل فيها السهل الساحلي بين شمال فلسطين وجنوب لبنان، بكتلة تمثل منطقة تقسيم مياه لأراضي ما بين الأودية، يتجه رأسها نحو خط الساحل، صانعة فيه نتوء بسيط يسمى رأس الناقورة. [5]

2 - **النطاق الجبلي:** يمر الحد السياسي بامتداده ضمن كتلة جبلية متصلة تضاريسيًّا (لا يوجد تنوع كبير في الأشكال التضاريسية) وجيولوجيًّا تتراوح ارتفاعاتها في الجزء الشرقي من الحد السياسي بين 900 – 100 مترٍ فوق مستوى سطح البحر. تتبع تكويناتها الجيولوجية العصر الكريتاسي(Cretaceous)، حيث تنتمي إلى تكوينات السينومينيان (Cenomanian) والتورونيان (Turonian) في جزأي الحد السياسي الغربي والأوسط، وتظهر تكوينات عصر الأيوسين Eocene (أحد عصور الزمن الجيولوجي الثالث) جنوب الجزء الشرقي منه (حول بلدة المالكية)، ثم يقطع الحد السياسي في آخر أجزائه تكوينات السينومينيان والتورونيان مرة أخرى.

ومما يلاحظ على هذه التكوينات الجيولوجية كثرة الانكسارات (faults) إلى الجنوب منه (داخل فلسطين)، والآخذة اتجاه الأودية الموجودة شمال فلسطين، ويفسر وجودها كثرة عيون الماء الناتجة منها. [6]

د- التعرف على علاقة الحد السياسي المذكور بموارد المياه على جانبيه لا سيما فيما يختص بالجريان السطحي.

ثالثاً: منهج البحث وأسلوبه:

أ- منهج البحث: أدى ارتباط طبيعة مشكلة البحث بالجانب الجغرافي الطبيعي، ذي الصلة بتضاريس سطح الأرض، وما تقطعه من أودية كثيرة، إلى اعتماد المنهج الاستنتاجي (Deductive Approach)، المستقي بياناته من القياس (Measurement) والتحليل (Analysis) المأخوذة من الخرائط الكنتورية المتاحة للمنطقة، بمقياس رسم 1:1,00001 500001:52000, 1000000:12 إذ تم منها (الخرائط الكنتورية) التحليل التضاريسي لسطح الأرض (Relief Analysi)، ورسم المقاطع التضاريسية Profiles، وبخاصة المقاطع الطولية (Longitudinal Profiles)، والمتداخلة (Superimposed)، ومقاطع البانوراما Projected Profiles لمنطقة الحد السياسي.

هذا، وقد ظهرت بعض الإشكاليات الفنية للتعامل مع هذا المنهج أهمها:-

1- عدم توافر خرائط كنتورية فلسطينية المصدر بفاصل رأسي صغير للمنطقة الشمالية من فلسطين، لذلك تم الحصول بصعوبة على خرائط كنتورية صادرة من مصلحة المساحة الإسرائيلية في تل أبيب بفاصل رأسي مقداره 25 متراً، مع وجود خطوط كنتور رئيسة بفاصل رأسي مقداره 100 مترٍ هذا ، وقد رسمت الخرائط الواردة في البحث بفاصل رأسي مقداره (100) مترٍ نظراً لتزاحم خطوط الكنتور عند رسمها بفاصل رأسي مقداره (25) متراً.

2- اعتماد الحد السياسي من الخرائط الفلسطينية المتوافرة بمقاييس رسم 1:500 000 وتوقيعه على الخرائط الكنتورية المتاحة، لا سيما وأن الاحتلال الصهيوني عمد إلى إجراء بعض التغيرات في أجزاء من الحدود السياسية لفلسطين و لا يمكن الاعتماد على خط سيرها من الخرائط الإسرائيلية.

3- اختلاف أسماء الأشكال التضاريسية، وبعض المدن والقرى بين الخرائط

من فلسطين شرق الحولة، وإضافة مناطق إليها شمال غربها. [9]، دون مراعاة للتضاريس أو السكان في منطقة الحد السياسي.

1- **ثانياً: مشكلة البحث وأهدافه:**

1- مشكلة البحث: تتكون مشكلة البحث من جانبين، الأول موضوعي، ويرتبط بالأشكال التضاريسية وخصائصها، على امتداد الحد السياسي الفلسطيني اللبناني، ويرتبط الآخر باختيار منهج ملائم يتفق مع طبيعة الموضوع، مع استخدام بعض الطرق الكرتوجرافية الملائمة، بهدف إظهار التغيرات التضاريسية على طول الحد السياسي، إضافة إلى بعض الأساليب الرياضية التي تتفق مع طبيعة المشكلة، وإظهار الشكل الحقيقي للموضوع وفي مثل هذا الموضوع يجب انتقاء منهج مناسب يتفق مع طبيعة المشكلة، وذلك من أجل استنتاج الحقائق المختلفة حول الموضوع. ويجب أن ننوه أن منطقة الدراسة منطقة عسكرية مغلقة يسيطر عليها الجيش الإسرائيلي الغاصب و المستعمر للأرض ؛ لذلك يمنع دخولها ، ولا تتوافر لها صور جوية بين المدنيين ؛ إذ قد تصل عقوبة حوزتها مع الفلسطينيين إلى القتل أو السجن مدى الحياة من الجيش الإسرائيلي القاتل.

2- **أهداف البحث:**

يهدف هذا البحث إلى الآتي:

أ- التعرف على الأشكال التضاريسية في المناطق التي يمر فيها الحد السياسي الفلسطيني اللبناني، ضمن منطقة جبلية امتدادها واحد بين فلسطين ولبنان، وهل موضعه مرفوض أو مقبول بالنسبة لها؟.

ب- إظهار أثر الأشكال التضاريسية في ترسيم الحد السياسي، من حيث قطعه لها، أو الامتداد معها، أو تكرارها على طوله.

ج- التعرف على كيفية استفادة الاستعمار الصهيوني من خصائص الأشكال التضاريسية المارّ بها الحد السياسي.

خمس مرات.

2- المقطع العرضي للوادي (Valley Cross Section) ويبلغ عدد مرات تكراره (28)مرة.

3- مقاطع أراضي ما بين الأودية (Profiles of Interflux Lands) تدل على مناطق مرتفعة، ويصنع الحد السياسي الفلسطيني اللبناني على امتداد طوله مقاطع طولية وعرضية لأراضي ما بين الأودية ومحاورها يبلغ عددها (13)مقطعاً تضاريسيًّا.

4- مقاطع قمم أراضي ما بين الأودية (Profiles of Interflux Land Crest) تتواجد عدة قمم منها على امتداد الحد السياسي الفلسطيني اللبناني، يبلغ عددها تسعة مقاطع.

5- مقاطع خطوط تقسيم المياه (Water Divide Proelife) يمر الحد السياسي المذكور في أجزاء منه على خطوط تقسيم مياه، بلغ تكرارها ستة مقاطع.

6- المقطع التضاريسي للحافة (Cliff profile) يمر الحد السياسي الفلسطيني اللبناني في جزئه الشرقي من أعالي الحافة المشرفة على سهل الحولة (شمال شرق فلسطين)، في حين يقطع الجزء الشمالي منه تلك الحافة متجهاً إلى منطقة منخفضة تمثل بداية سهل الحولة من جهة الشمال.

7- الرقبة (Saddle) يمر الحد السياسي المذكور في عدد من الرقبات، وهي مناطق منخفضة نسبيًّا تفصل بين القمم الجبلية المار بها، وتمثل أعلى المناسيب فيها مناطق تقسيم مياه.

بذلك، فإنه تتنوع مقاطع الأشكال التضاريسية على امتداد الحد السياسي الفلسطيني اللبناني، وتتفاوت هذه الأشكال بين مناطق مرتفعة، ومتمثلة في أراضي ما بين الأودية وقممها، ومناطق مرتفعة، متمثلة في أراضي ما بين الأودية وقممها، ومناطق تقسيم المياه، ومناطق منخفضة، متمثلة في الأودية المنحدرة من الكتلة الجبلية في عدة اتجاهات. وتتوزع هذه الأشكال على أجزاء الحد السياسي المذكور

الفلسطينية والإسرائيلية المتوافرة للمناطق على جانبي الحد السياسي، لذلك كان لابد من اعتماد الأسماء من الخرائط الفلسطينية، لا سيما وأن الاستعمار الصهيوني أجرى تغيرات كثيرة فيما يتعلق بالاستيطان، كان من شأنه تسمية المناطق بأسماء إسرائيلية.

ب- **فروض البحث:**

تم تحديد الفروض الآتية؛ لتكون أساساً لهذه الدراسة:-

1- تتنوع الأشكال التضاريسية التي يمر منها أو يقطعها الحد السياسي الفلسطيني اللبناني، ضمن كتلة جبلية واحدة بين الدولتين.

2- يتباين اتجاه محاور الظاهرات التضاريسية مع اتجاه الحد السياسي في كثير من أجزائه، مع سيادة نمط عام لها، وهو قطعها بواسطته.

3- تتعدد الوظائف التي يخدمها من خلال تنوع الأشكال التضاريسية المارة بها.

هذا، وسوف يتم دراسة هذه الفروض والتحقق منها خلال هذه الدراسة.

الأشكال التضاريسية

يعتمد هذا الجزء على قراءة الخريطة الكنتورية من حيث أنواع الأشكال التضاريسية على طول امتداد الحد السياسي الفلسطيني اللبناني، وتصنيفها ثم التعرف على قَطْعِهِ لهذه الأشكال، أو السير في محاورها، لا سيما وأنه يتواجد في منطقة جبلية تتميز بتقطعها بأودية معظمها فصلية الجريان، تتجه عبر الأراضي الفلسطينية اللبنانية نحو البحر المتوسط، وسهل الحولة، ونهر الأردن، بادئة معظمها من منطقة الحد السياسي، وتكرار أشكال تضاريسية معينة على طول امتداده مثل أراضي ما بين الأودية، وقممها، والأودية، ومناطق تقسيم المياه، ويمكن التعرف على مثل هذه الأشكال وغيرها الواردة في البحث من الخريطة الكنتورية على النحو الآتي:[10]

1- المقطع الطولي للوادي (Longitudinal Valley Profile) ويبلغ عدد مرات تكراره

8,1٪ للمقاطع الطولية للأودية، ثم 1,6٪ للحافات شديدة الانحدار.

يتضح من ذلك أن أكثر الظاهرات التضاريسية تكراراً التي يقطعها الحد السياسي هي الأودية، وتتكون معظمها من روافد عليا تتجه إما إلى الأراضي اللبنانية أو الأراضي الفلسطينية التضاريسية التي تمتد مع الحد السياسي فتتمثل في المقاطع الطولية للأودية، ومناطق تقسيم المياه.

الجدول رقم (1): مقاطع الأشكال التضاريسية، عددها، نسبتها، وطولها

جدول رقم (1) مقاطع الأشكال التضاريسية، عددها، نسبتها وطولها من أجزاء الحد السياسي الفلسطيني اللبناني

الظاهرة	التكرار	النسبة المئوية	الطول/كم	ملاحظات
الجزء الغربي				
الطول الإجمالي			22.5	%28.3 من طول الحد السياسي
مقطع طولي للأودية	1	6.6	3	
مقطع عرضي لوادي	4	26.7		يبدأ من لبنان ويتجه إلى البحر المتوسط من أراضي شمال فلسطين.
مقطع قمم أراضي ما بين الأودية	4	26.7		
مقطع أراضي ما بين الأودية	4	26.7		
مقطع منطقة تقسيم مياه	2	13.3	9	بين أودية تتجه إلى لبنان وأخرى إلى فلسطين.
المجموع	15	%100		
الجزء الأوسط				
الطول الإجمالي			23.5	%29.7 من طول الحد السياسي
مقطع طولي للأودية	2	7.7	3	
مقطع عرضي لوادي	13	50.0		العدد الأكبر منها يبدأ من فلسطين ويدخل لبنان نحو البحر المتوسط.
مقطع قمم أراضي ما بين الأودية	3	11.5		
مقطع أراضي ما بين الأودية	6	23.1		
مقطع منطقة تقسيم مياه	2	7.7	4.5	بين أودية تتجه إلى لبنان وأخرى إلى فلسطين نحو البحر المتوسط ونهر الأردن.
المجموع	26	%100		
الجزآن الشرقي والشمالي				
الطول الإجمالي			19.5 شرقي 7.8 شمالي	%41.8 من طول الحد السياسي
مقطع طولي للأودية	2	9.5	5.9	
مقطع عرضي لوادي	11	52.4		يبدأ معظمها من لبنان إلى فلسطين نحو سهل الحولة
مقطع قمم أراضي ما بين الأودية	2	9.5		
مقطع أراضي ما بين الأودية	3	14.3		
مقطع منطقة تقسيم مياه	2	9.5		بين أودية تتجه إلى لبنان وأخرى باتجاه نحو فلسطين.
حافة	1	4.8		
المجموع	21	%100		
المجموع الكلي لمقاطع الظاهرات	67			

المصدر: من تحليل الباحث اعتماداً على:

- Survey of Israel: Topographic map of Israel (Palestine), (25M. contour map), op. Cit.

على النحو الآتي:

1- **الجزء الغربي:**

تبلغ نسبة عدد الظاهرات التضاريسية لكل من المقاطع العرضية للأودية، وقمم أراضي ما بين الأودية، وأراضي ما بين الأودية 26,7٪ من مجموع عددها في هذا الجزء، وتبلغ نسبة عددها لمناطق تقسيم المياه فيه 13,3٪، وللمقاطع الطولية للأودية 6,6٪ وتظهر الخريطة رقم (3) امتداد هذا الجزء منه.

2- الجزء الأوسط:

تبلغ نسبة المقاطع العرضية للأودية فيه 50,0٪ من مجموع عددها في هذا الجزء، وتتوزع النسبة الباقية على أراضي ما بين الأودية (23,1٪)، وقمم أراضي ما بين الأودية (11,5٪)، أما نسبة المقاطع الطولية للأودية، ومناطق تقسيم المياه فتبلغ 7,7٪ لكل منها، وتظهر الخريطة رقم (4) هذا الجزء من الحد السياسي.

3- الجزءان الشرقي والشمالي:

تبلغ نسبة عدد المقاطع العرضية للأودية 52,4٪ من مجموع عددها فيه، يليها أراضي ما بين الأودية (14,3٪)، وتتوزع النسبة الباقية على الأشكال التضاريسية الأخرى على النحو الآتي: 9,5٪ لكل من المقاطع الطولية للأودية، وقمم أراضي ما بين الأودية، ومناطق تقسيم المياه، أما الحافات شديدة الانحدار فتبلغ نسبتها 4,8٪، وهي الحافات التي يقطعها الحد السياسي، الخريطة رقم (5)، و (6).

هذا ويوضح الجدول رقم (1) توزيع عدد مقاطع الأشكال التضاريسية على أجزاء الحد السياسي الفلسطيني اللبناني.

وبشكل آخر فإن توزيع الأشكال التضاريسية على امتداد الحد السياسي يكون على النحو الآتي:

تبلغ نسبة عدد المقاطع العرضية للأدوية 45,2٪من مجموع عددها، يليها أراضي ما بين الأودية 20,9٪، ثم قمم أراضي ما بين الأودية 14,5٪، وتتوزع النسب الباقية على الأشكال التضاريسية الأخرى على النحو الآتي: 9,7٪ لمناطق تقسيم المياه،

1- تبلغ نسبة المقاطع الطولية للأودية من الطول الكلي للحد السياسي 14,7٪، ومعظمها فصلية الجريان، تتفاوت في مدة جريانها تبعاً لكمية الأمطار التي تسقط على المنطقة فصل الشتاء.

2- تبلغ نسبة مقاطع مناطق تقسيم المياه (خطوط تقسيم المياه) 25,3٪ من الطول الإجمالي للحد السياسي، وهى نسبة مرتفعة بالنسبة لعدد مقاطع الأشكال التضاريسية تدل على أهمية المياه بالنسبة للاستعمار عند ترسيمه لهذا الحد السياسي. (11)

في نهاية هذا التوزيع للأشكال التضاريسية نذكر الملاحظات الآتية:-

1- تم ترسيم الحد الفلسطيني اللبناني عن طريق الاستعمار البريطاني وبدفع من الصهيونية للسيطرة على أكبر جزء من المياه لا سيما فيما يتعلق بالجزء الشرقي والشمالي للحد السياسي حيث روافد نهر الأردن. (12)

2- سميت نقاط الحد السياسي بأسماء الأودية والقمم ومفترقات الطرقات التي تمر منها، باستثناء أول نقطة عند رأس الناقورة حيث حدّدت بخط طول ودائرة عرض. (13) ويعني ذلك أن الاستعمار ترك فجوة في تسمية نقاط الحد بين فلسطين ولبنان، لتكون مجالاً للخلاف في المستقبل.وبذلك فإن الحد السياسي المذكور مفروض على البيئة الطبيعية في هذه المنطقة.

الخلاصة:

من العرض السابق للنسب المئوية لمقاطع الأشكال التضاريسية التي يقطعها الحد السياسي الفلسطيني اللبناني، أو تلك التي يسير من محاورها، نجد الآتي:

1- إن نسبة 92,3٪ من عدد مقاطع الظاهرات الموجود عليها الحد السياسي تقطع بواسطته، في حين أن هذا الحد يسير في محاور مقاطع ظاهرات تضاريسية تبلغ نسبتها 9,7٪ من مجموع عددها.

2- إن نسبة 60,0٪ من طول الحد السياسي تقع ضمن مقاطع ظاهرات

الجدول رقم (2) :مقاطع الأشكال التضاريسية، عددها، نسبتها، وطولها

الظاهرة	التكرار	النسبة المئوية	الطول/كم	ملاحظات
الطول الإجمالي			79	من رأس الناقورة إلى نقطة التقاء الحدود السياسية الفلسطينية-السورية-اللبنانية.
مقطع طولي لوادي	5	8.1	11.6	
مقطع عرضي لوادي	28	44.2		أودية تتجه إلى البحر المتوسط عبر لبنان وأخرى تتجه إلى البحر المتوسط وسهل الحولة ونهر الأردن عبر فلسطين.
مقطع قمم أراضي ما بين الأودية	9	14.5		
مقطع أراضي ما بين الأودية	13	20.9		
مقطع منطقة تقسيم مياه	6	9.7	20	بين أودية تتجه إلى لبنان وأخرى تتجه إلى فلسطين.
حافة	1	1.6		
المجموع	62	%100		

المصدر:

انظر بيانات الجدول رقم (1).

هذا، ويوضح الشكلان البيانيان رقمي (1) ، و(2) النسب البيانية الواردة في جدولي (1) ، (2)[10] الآتي:

1- التفاوت في النسب المئوية لعدد مقاطع الظاهرات التضاريسية بين أجزاء الحد السياسي الشمالي لفلسطين.

2- زيادة نسبة المقاطع العرضية للأودية التي يقطعها الحد السياسي بالنسبة للظاهرات التضاريسية الأخرى المار بها أو التي يقطعها، حيث تبلغ نسبتها المئوية الإجمالية 44,2٪، ثم تأتي مقاطع أراضي ما بين الأودية المقطوعة به بنسبة مئوية تبلغ 20,9٪.

3- تتوزع مقاطع الأشكال التضاريسية الأخرى على امتداد الحد السياسي على النحو الآتي:-

2- رسمت المقاطع التضاريسية المتداخلة، ومقاطع البانوراما لمسافة 14كم على جانبي الحد السياسي الفلسطيني اللبناني في جزأية الغربي والأوسط، وبمسافة بينهما تبلغ 3 كم، مع ملاحظة الآتي:-

أ- تُظهر المقاطع التضاريسية المتداخلة والبانوراما سطح الأرض في جزأيه الغربي والأوسط للناظر من جهة الغرب (البحر المتوسط) نحو جهة الشرق (وسط الكتلة الجبلية).

ب- تغطي المقاطع التضاريسية المتداخلة للجزء الشرقي مسافة مقدارها 10 كم على جانبي الحد السياسي، بحيث تظهر الحافة الجبلية وما بجوارها من أشكال تضاريسية، ويظهر فيها سطح الأرض للناظر من الجنوب (جبال الجليل الأعلى شمال صفد) نحو الشمال (المطلة).

ج- رسمت المقاطع التضاريسية المتداخلة للجزء الشمالي من الحد السياسي في اتجاه جنوبي شرقي - شمالي غربي، من أجل إظهار سطح الأرض للناظر من الجنوب الشرقي (مجري نهر الحاصباني) نحو الشمال الغربي (المطلة)، ورسمت المقاطع المتداخلة لهذا الجزء بمسافة بينها مقدارها 2 كم ، لتغطي مساحة عرضها 10,5 كم على جانبي الحد السياسي.

هذا، وقد تم تحديد اتجاهات المقاطع التضاريسية، واتجاه خط الناظر للمنطقة لبيان أكبر قدر ممكن للأشكال التضاريسية في منطقة الحد السياسي.

المقاطع التضاريسية:

أولاً: الجزء الغربي من الحد السياسي:

1- المقطع التضاريسي البسيط:

يُظهر المقطع التضاريسي البسيط لهذا الجزء من الحد السياسي، الشكل رقم (3)، الحقائق التضاريسية الآتية:

أ- يرتفع سطح الأرض بصفة عامة من الغرب (خط الساحل) إلى الشرق (وسط

تضاريسية مقطوعة، في حين تقع النسبة الباقية (40,0٪ من طوله) ضمن مقاطع ظاهرات تضاريسية غير مقطوعة (محاور الظاهرات).

تعني هذه الحقائق أن الجزء الأكبر من الحد السياسي الفلسطيني اللبناني يقطع الأشكال التضاريسية الموجود عليها، ويفسر ذلك أن الاستعمار قد أوجد في المنطقة مشكلات لا تنتهي، لا سيما وأنه أصبح يفصل بين الاستعمار الصهيوني من جهة، ولبنان من جهة.

المقاطع التضاريسية

المقدمة:

تم رسم عدة مقاطع تضاريسية (Profiles) لمنطقة الحد السياسي الفلسطيني اللبناني، بهدف إبراز الأشكال التضاريسية له، وقد تم اختيار أنواع المقاطع التضاريسية لتلبي الغرض منها، فقد رسمت مقاطع تضاريسية بسيطة (Simple Profiles) لأجزاء الحد السياسي بهدف بيان الأشكال التضاريسية التي يقطعها أو يمر منها. ورسمت مقاطع تضاريسية متداخلة (Superimposed Profiles) لأجزائه الوسطى والشرقية والشمالية، كما رسم للجزء الغربي منه مقطع البانوراما (Projected Profile)، وتهدف هذه المقاطع إلى بيان الأشكال التضاريسية في المناطق الموجودة على جانبي الحد السياسي، ويلاحظ على المقاطع التضاريسية المرسومة للمنطقة الآتي:-

1- لم تزد نسبة المبالغة (Vertical Exaggeration) على (10)، وهي النسبة بين مقياس الرسم الأفقي للخريطة (Horizontal Scale)، ومقياس الرسم الرأسي للمقطع التضاريسي (Vertical Scale)، [14] وتدل هذه النسبة على مقدار التشويه بين شكل الأرض في المقطع التضاريسي، والشكل الحقيقي لها، ويفضّل ألاّ تزيد هذه النسبة على (10)، وقد تم تطبيقها على جميع المقاطع التضاريسية المرسومة للحد السياسي.

ب- تبدو المناطق الواقعة إلى الشمال منه (جنوب لبنان)، ولمسافة تزيد على 6 كم أقل انخفاضاً من المناطق الواقعة جنوبه (شمال فلسطين)، وهذا أمر يستفيد منه الاستعمار الصهيوني في مراقبة الأراضي اللبنانية الواقعة شماله.

ج- يظهر أيضاً من المقطع التضاريسي كثرة الأودية الواقعة جنوب الحد السياسي بالنسبة لتلك الواقعة شماله. وهو أمر حرصت عليه الجماعات الصهيونية لإشباع شهوتها من المياه قبل ترسيم الحدود قبل بريطانيا وفرنسا، فقد عملت الصهيونية منذ عام 1915م (قبل توقيع اتفاقات الحدود تحت الظل مع بريطانيا لإشباع رغباتها المستقبلية في فلسطين) [15].

ثانياً : الجزء الأوسط:

1- **القطاع التضاريسي البسيط:**

يتبين من دراسة المقطع التضاريسي البسيط الشكل رقم (5) للجزء الأوسط من الحد السياسي الآتي:

أ- تتباين تضاريس سطح الأرض بين ارتفاع وانخفاض، مع ميلها إلى الارتفاع التدريجي كلما اتجهنا شرقاً حيث يدخل الحد السياسي ضمن كتلة صفد (Safed Block) المكونة من الحجر الجيري (Lime Stone). (16)

- يتميّز المقطع التضاريسي في هذا الجزء بتكرر ثلاث ظاهرات تضاريسية وهي الأودية، وأراضي ما بين الأودية، وخطوط تقسيم المياه، ومن ثَمَّ فإن الحد السياسي يسير صعوداً وهبوطاً مع هذه الأشكال التضاريسية.

ج- يقع الحد السياسي ضمن هذا المقطع في جزأين صغيرين منه على محاور لتقسيم المياه، إلا أن السمة الغالبة له قطعه للأشكال التضاريسية، لا سيما الأودية وأراضي ما بين الأودية.

د- يصلح العديد من مناطقه المرتفعة التي يمر منها؛ لأن تكون هذه المناطق نقاط مراقبة ورصد، إلا أنها ليست أعلى المناطق ضمن هذه الكتلة الجبلية، ومن ثَمَّ فإن

الكتلة الجبلية).

ب- تتنوع الأشكال التضاريسية على طوله، وتتمحور جميعها حول الأودية وأراضي ما بين الأودية، ومناطق تقسيم المياه، ويعني ذلك وقوع الحد السياسي في معظم أقسامه لهذا الجزء ضمن مناطق مرتفعة.

ج- تقع أجزاء من الحد السياسي في هذا الجزء منه على محاور أشكال تضاريسية رئيسة تتمثل في مناطق تقسيم المياه، وتقطع الأجزاء الأخرى منه أشكالاً تضاريسية مثل الأودية وأراضي ما بين الأودية.

د- تصلح العديد من الأشكال التضاريسية على امتداده؛ لأن تكون نقاط مراقبة ورصد، حيث تتكرر المناطق المرتفعة، وفي هذا الصدد يمكن تمييز ثلاث نقاط رئيسة تصلح لهذا الغرض:-

النقطة الأولى: تقع على بعد 4 كم من خط الساحل، ترتفع بنحو 350 متراً فوق مستوى سطح البحر، ومنها يمكن مراقبة المنطقة الساحلية، والمياه الإقليمية والدولية أمام السواحل اللبنانية والفلسطينية شمال مدينة حيفا.

النقطة الثانية: تقع على بعد 13 كم من الساحل، يبلغ منسوبها 600 متر فوق مستوى سطح البحر، ويمكن منها مراقبة المنطقة الوسطي للحد السياسي في هذا الجزء منه.

النقطة الثالثة: تقع في نهاية هذا الجزء من الحد السياسي وعلى بعد 18 كم من خط الساحل، يصل منسوبها إلى 700 متر فوق مستوى سطح البحر، ويستفاد منها في مراقبة الجزء الأوسط من الحد السياسي.

2- **مقطع البانوراما:**

نستنتج من المقطع التضاريسي، الشكل رقم (4)، الآتي:

أ- يُظهر هذا المقطع وقوع الحد السياسي في مناطق مرتفعة تتوسط منطقة جبلية بين فلسطين ولبنان.

ب ـ تتنوع الأشكال التضاريسية على امتداده وفي جزأيه (الشرقي والشمالي)، وتنتمي معظمها إلى المناطق المرتفعة، حيث توجد خطوط تقسيم المياه، وبدايات الأودية المتجهة شرقاً نحو سهل الحولة، وغرباً عبر أراضي لبنان إلى البحر المتوسط. تنتقل التضاريس فجأة في الجزء الشمالي لتقطع حافة انحدارها شديد، حتى نقطة التقاء الحدود السياسية الفلسطينية - السورية - اللبنانية.

ج-يقع الحد السياسي في جزأيه هذين على محاور تضاريسية في أقسام منه، تتمثل في الآتي:

-خطوط تقسيم مياه في وسط جزئه الشرقي، وامتداده مع بعض الأودية لمسافات محدودة.

-امتداد الجزء الشمالي (الرابع) منه مع قاع أحد الأودية المتجهة نحو وادي البريغيث (أحد روافد وادي الأردن العليا).

2- المقاطع التضاريسية المتداخلة:

أ- الجزء الشرقي للحد السياسي:

يُظهر المقطع التضاريسي المتداخل لهذا الجزء من الحد السياسي (الشكل رقم (8)) الحقائق الآتية:-

1- يقع الحد السياسي في أعالي منطقة مرتفعة تفصل بين نطاقين تضاريسيين، الأول: الحافات الغربية المحيطة بسهل الحولة، وهي حافات انكسارية شديدة الانحدار تتبع امتداد الأخدود الأفريقي في فلسطين، المكون للمنخفضات الشرقية الفلسطينية ونهر الأردن.[17]

2- يقع الحد السياسي في معظمه على قمم جبلية، تفصلها رقبات تشرف على النطاق الجبلي الأقل انخفاضاً في جنوب لبنان، بمعني أن المناطق الواقعة على جانبيه مكشوفة للرؤية من نقاطه العليا.

3- يعمل هذا الحد عند استكماله بحدود فلسطين الشمالية الشرقية على إدخال

دورها يتركز على المناطق القريبة للحد السياسي، والموجودة على امتداده، وترتبط نقاط المراقبة الجيدة فيه بمناطق تقسيم المياه - انظر الشكل رقم (5) - في جزء المقطع التضاريسي الأوسط، وفي نهايته من الشرق بالقرب من بلدة المالكية.

2- **المقاطع المتداخلة:**

نستنتج من المقاطع التضاريسية المتداخلة (الشكل رقم (6)) لهذا الجزء من الحد السياسي الآتي:

أ- يقع الحد السياسي في منطقة منخفضة نسبياً عن المناطق الواقعة جنوبه (شمال فلسطين) والواقعة شماله (جنوب لبنان).

ب- يقع الحد السياسي في منقطة تقطعها الأودية، وهي روافد صغيرة تمثل بدايات لأودية متجهة نحو لبنان وفلسطين.

ج-يبدو أن المنطقة الواقعة شماله (جنوب لبنان) أكثر ارتفاعاً من المنطقة الواقعة جنوبه (شمال فلسطين)، وهو أمر لا يعزز كثيراً اتخاذ الأشكال التضاريسية المار فيها الحد السياسي كنقاط مراقبة لجنوب لبنان.

ثالثاً: الجزءان الشرقي والشمالي:

1- **المقطع التضاريسي البسيط:**

نستنتج من دراسة المقطع التضاريسي البسيط للجزأين الشرقي والشمالي للحد السياسي الشكل رقم (7) الآتي:

أ- يرتفع سطح الأرض المار به الحد السياسي الشرقي كثيراً في منتصفه، حيث مناطق تقسيم المياه الأعلى من 950 متراً فوق مستوى سطح البحر، ثم ينخفض تدريجياً نحو طرفيه الشمالي والجنوبي إلى ما بين 500 –600 متر فوق مستوى سطح البحر. ويتبع الشمالي الجزء منه (الرابع) الانحدار العام لأسفل نحو قاع المنخفض الشرقي، قاطعاً حافة شديدة الانحدار حتى التقائه مع نهر الحاصباني (أحد روافد نهر الأردن العليا).

أو المناطق المرتفعة.

نستنتج من ذلك أنه عند ترسيم الحد السياسي بين فلسطين ولبنان لم يؤخذ في الاعتبار طبيعة الأشكال التضاريسية في المنطقة، وإنما كانت الاعتبارات الاستعمارية الموزعة بين الاستعمار البريطاني والاستعمار الفرنسي لبلاد الشام هي الأساس في ذلك، مع الأخذ في الاعتبار الأطماع الصهيونية التي كانت تعمل في الظل متسترة بالاستعمار البريطاني للمنطقة.

نتائج البحث

يتبين من العرض السابق لمقاطع الأشكال التضاريسية في منطقة الحد السياسي الفلسطيني اللبناني، المار بها، أو القاطع لها، والمقاطع التضاريسية على طول امتداده، وعلى جانبيه، أنه فرض فرضاً على منطقة تتميز بوحدة جغرافية واحدة، من قبل الاستعمار البريطاني، والاستعمار الفرنسي لبلاد الشام، ومن ثَمَّ لم يسع الاستعمار في ترسيمه لهذا الحد السياسي إلى خلق وضع يسوده الأمن والسلام، وإنما وضع دون الأخذ في الاعتبار طبيعة الأشكال التضاريسية في المنطقة، وتلبية لرغبة الصهيونية عام 1984م، وتحضيراً لإقامة دولتهم التي استعمرت فلسطين، وأراضي من الدول العربية المجاورة لفلسطين لاحقاً.

هذا، وقد توصل البحث إلى النتائج الآتية:

1 - الحد السياسي الفلسطيني اللبناني مرفوض بشكل تضاريسه التي يمر منها أو يقطعها ،ويعود ذلك إلى أنه لا يمر على امتداد طوله بمحاور تضاريسية رئيسة ،وأنه فرض على سكان المنطقة دون مراعاة للخصائص الديموغرافية لهم.

2 - يقع الحد السياسي الفلسطيني اللبناني ضمن كتلة جبلية امتدادها الجغرافي واحد بين فلسطين ولبنان، ليفصلها إلى جزأين، يكوّن الجنوبي منها جبال الجليل في شمال فلسطين، ويكوّن الثاني جبل عامل في جنوب لبنان.

نهر الأردن (شمال بحيرة طبريا) وسهل الحولة ذات التربة الخصبة، وروافد نهر الأردن العليا (البريغيث، الحاصباني، ودان - القاضي، وبانياس) داخل أراضي فلسطين، حيث استعمره الإسرائيليون. [18]

ب- الجزء الشمالي للحد السياسي:

نستنتج من دراسة المقاطع التضاريسية المتداخلة لهذا الجزء (الشكل رقم (9)) الآتي:

1- يمر الحد السياسي في جزئه الشمالي على طول محور تضاريسي ممثلاً في قاع وادي منحدر من الحافة الجبلية نحو وادي البريغيث، الخريطة رقم (6).

2- حصر هذا الجزء من الحد السياسي أراضي مرتفعة فوق مستوى سطح البحر داخل فلسطين، أكثر ارتفاعاً من الأراضي اللبنانية الواقعة على جانبه الآخر.

يتضح من العرض السابق للمقاطع التضاريسية البسيطة والمتداخلة التي رسمت للحد السياسي الفلسطيني اللبناني الآتي:-

1- لا تعتبر كل الأشكال التضاريسية المار بها أو القاطع لها الحد السياسي الفلسطيني اللبناني أكثر المناطق ارتفاعاً ضمن الكتلة الجبلية المتواجد عليها، وإنما يمر في مناطق منخفضة تشمل الأودية أو الرقبات الموجودة بين قمم جبلية أو لأراضي ما بين الأودية.

2- تتكرر على طول امتداد الحد السياسي أشكال تضاريسية محدّدة تتمثل في الأودية وأراضي ما بين الأودية بصورة رئيسة.

3- لا يمر الحد السياسي على امتداد طوله مع محاور أشكال تضاريسية، وإنما يمتد أجزاء منه مع بعضها، إلا أن الجزء الشمالي منه يمتد مع قاع أحد الأودية الفرعية لروافد وادي نهر الأردن الأعلى (البريغيث).

4- يُعَدُّ معظم الأشكال التضاريسية المار بها، أو القاطع لها الحد السياسي الفلسطيني اللبناني أشكالاً تضاريسية ثانوية لا سيما فيما يتعلق بروافد أودية الأنهار

الفرعية لوادي البريغيث إلا أنه يقطع حافة شديدة الانحدار تواصل امتدادها من شمال فلسطين (إصبع الجليل) إلى جنوب لبنان.

د-تظهر المقاطع التضاريسية المتداخلة للمناطق المتواجدة على جانبي الحد السياسي الآتي:

1- يرتفع الحد السياسي في جزئه الشرقي عن المناطق الواقعة على جانبيه (الفلسطينية واللبنانية)، مما أتاح لهذا الحد المراقبة الأمنية والإشراف على مصادر المياه الفلسطينية الواقعة في إصبع الجليل.

2- يرتفع سطح الأرض جنوب الحد السياسي (فلسطين) في جزئه الأوسط عن سطح الأرض الواقع شماله (لبنان). وهو أمر يؤكد عدم الأخذ في الاعتبار تضاريس سطح الأرض عند ترسيم الحد السياسي.

3 - يقع الحد السياسي ضمن أشكال تضاريسية ثانوية قاطعاً معظمها، تتمثل أساساً في روافد عليا لأودية الأنهار، ومناطق مرتفعة لأراضي ما بين الأودية، وخطوط تقسيم مياه، وتقع جميعها ضمن كتلة جبلية واحدة، وتنقسم هذه الأشكال التضاريسية على امتداده على النحو الآتي:-

أ- تبلغ نسبة قطعه للأودية 44,2٪، ونسبة امتداده مع أودية 8,1٪ من عدد الأشكال التضاريسية على امتداده.

ب- تبلغ نسبة أراضي ما بين الأودية القاطعة له 20,9٪، ونسبة قممها ومحاورها المار بها 14,5٪ من عددها.

ج- وتبلغ نسبة مناطق تقسيم المياه المار بها 9,7٪، أما نسبة قطعه للحافات شديدة الانحدار 1,6٪ من عددها.

4 - تظهر المقاطع التضاريسية البسيطة على طول الحد السياسي تردده بين ارتفاع وانخفاض فوق مستوى سطح البحر، وفقاً للأشكال التضاريسية المار بها، أو القاطع لها، ويبدو منها:-

أ- تعتبر بعض القمم الجبلية وقمم أراضي ما بين الأودية نقط مراقبة جيدة، لا سيما فيما يتعلق بتلك الموجودة في الجزأين الغربي والشرقي منه، إذ يمكن منها مراقبة المياه الإقليمية أمام ساحل جنوب لبنان، وشمال فلسطين، ومراقبة المناطق التي هي أقل منها انخفاضاً في جنوب لبنان.

ب- تقل الأشكال التضاريسية المار بها أو القاطع لها في جزئه الأوسط ارتفاعاً عن المناطق المجاورة لها في جنوب لبنان، وعلى الرغم من ذلك تظهر فيها بعض القمم الجبلية التي يمكن منها مراقبة المناطق المجاورة له في جنوب لبنان، ويدل المقطع التضاريسي المرسوم لهذا الجزء على أنه لم يعط الأشكال التضاريسية أهمية كبيرة عند تحديد الحد السياسي.

ج-على الرغم من امتداد الحد السياسي في جزئه الشمالي مع قاع أحد الروافد

3- الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثاني، 1984م، ص ص 290 - 294 .

4-الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثاني، 1984م، ص ص 405 -411 .

5-طه محمود جاد: تحليل الخرائط الكنتورية باهتمام جيمورفولوجي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2, 1984م.

6-فايز محمد العيسوي: خرائط التوزيعات البشرية، أسس وتطبيقات، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987م، ص ص 32 .45 -

7-فلاح شاكر أسود: خرائط التوزيعات، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، اليمن، 1994م، ص 74 –80.

8-عبد العزيز طريح شرف: مناخ العالم، الجزء الثاني، التقسيمات المناخية ومناخ أفريقية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، الشكل (1)، (2)، 1963م.

9-عبد العظيم قدورة مشتهي: الخرائط الكنتورية، مبادئ أساسية باهتمام جيمورفولوجي، الطبعة الأولى، غزة، 2001م، الشكل (53)، ص 152.

10-محمد صبحي عبد الحكيم وزميله: علم الخرائط، مكتبة الأنجلو المصرية، 1969م.

11–Dielcinson, G.C.: Statistical Mapping and Presentation Statistics, 1st, 2nd, Edward Arnold, London, 1973, 1977.

الملاحق

الملحق رقم (1) نقاط الحد الفلسطيني اللبناني حسب اتفاقية 1922م

ر.النقطة	الموقـع
1	تقع شمال نقطة البوليس على طريق عكا - صيدا بمسافة 50 متراً
2	خربة دانيان Danian
3	جنوب غرب قرية لابونا Labuna بمسافة 400 متر.
1)	شرق جنوب شرق قرية لابونا بمسافة 1 كيلو متر واحد
2)	جنوب غرب الأراضي الزراعية لوادي كوتاية Kutayeh
3)	قمة بين وادي كوتاية Kutayeh والدليم .El-Dalem
4)	التقاء وادي الدليم مع شعب ثلويج Thalweg، وعلى بعد 700 م ج.ج.ق النقطة رقم (6) بمسافة 700م.
5)	على الطريق بين علمه الشعب Alma El-Shaub ويادرث .Yardeth
6)	تقع جنوب شرق خربة بلاط Khirbet Balat بمسافة 700م.
7)	تقع جنوب الجنوب الشرقي لنقطة (9) بمسافة 600م.
8)	جنوب شرق راميّة بمسافة كيلو متر واحد.

المراجع

أولاً: المراجع المتخصصة:

1- حسن سيد أحمد أبو العينين: أصول الجيمورفولوجيا، دراسة الأشكال التضاريسية لسطح الأرض، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ط 4 .1976 م، ص ص 68 - 80 .

2- صبحي يوسف الأستاذ: المياه والأمن القومي العربي، مع التطبيق على فلسطين، رسالة دكتوراه غير منشورة، الخرطوم، جامعة النيلين، 1999م.

3- محمد محمود إبراهيم الديب: حدود فلسطين، دراسة تحليلية لوثائق الانتداب، جامعة عين شمس، 1980م.

4-محمود توفيق محمود: الجغرافيا السياسية لإسرائيل، معهد البحوث والدراسات العربية، الدراسات الخاصة، العدد 13, 1977م، ص 98.

5-يان نيلسون، تعيين الحدود الشمالية لفلسطين (1918 - 1920) شئون فلسطينية، العدد 52, ديسمبر 1975م، ص ص 87 - 89 .

6- Ephraim Orni and Elisha Efrat: Geography of Israel, Third Revirsed Edition, Israel Universities press, Jerusalem, 1976, P. 77.

ثانياً: الخرائط:

1- خريطة فلسطين: جمعية الدراسات العربية، مقياس رسم 1:1000000, القدس، 1988م.

2- خريطة فلسطين (1948م): تخطيط وتدقيق سعيد الصباغ، مقياس رسم 1:250000, عامة.

3- خريطة فلسطين: تخطيط وتدقيق سعيد الصباغ، مقياس رسم 1:650000, سياسية.

4–Picard, L.Y. and Golani, U.: Geological Map, Palestine and West of Jordan, Northern Sheet, Scale, 1:250000, Israel, 1990.

5- Survey of Israel: Topographic Map of Israel (Palestine), Scale, 1:100000 (25 M. Contour map), Sheet No. 1, North of Israel, 1986.

6- Survey of Israel: Physical map of Israel (Palestine) Scale, 1:250000, Tel Aviv, 1986.

7- Survey of Egypt: Map showing Boundary Between Syria and Palestine, No. 21/677/1, Scale 1:50000, Sheet No. 1,2, 1943.

ثالثاً: مراجع عامة:

1-أحمد أحمد مصطفى: الخرائط الكنتورية، تفسيرها وقطاعاتها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1, 1988م.

2-أحمد نجم الدين فليجة، جميل نجيب عبد الله: علم الخرائط والدراسة الميدانية، مركز الإسكندرية للكتاب، 1995, ص ص 149 - 169 .

1 - انظر الملحق رقم (1)

2 - البيانات اعتماداً على:

– Survey of Israel: Topographic Map of Israel (Palestine), Scale: 1:10000, (25 M. Contour map), Sheet No.1, North of Israel, 1986.

- محمود توفيق محمود: الجغرافيا السياسية لإسرائيل، معهد البحوث والدراسات العربية، الدراسات الخاصة، العدد 13 ,I977 م ، ص 98.

– محمد محمود الديب: حدود فلسطين، دراسة تحليلية لوثائق الانتداب، جامعة عين شمس، 1980 م.

3 - التقسيم المذكور للحد السياسي من قبل الباحث.

4 - التحديد والمسافات من قياس الباحث.

5 - تقع بلدة الناقورة شمال الحد السياسي، وهي بلدة لبنانية صغيرة ضمن السهل الساحلي اللبناني الجنوبي.

6– Picard, L-Y. And Golani, U: Geological Map, Palestine and West of Jordan, Northern Sheet, Scale: 1:250000, Israel, 1995.

7- Efraim Orni and Elish Efrat: Geography of Israel, Third Reversed Edition, Israel Universities Press, Jerusalem, 1976, P.77.

8 - عبد العزيز طريح شرف: مناخ العالم، الجزء الثاني، التقسيمات المناخية ومناخ أفريقيا، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، الشكل رقم (1)، (2)، 1963.

9 - محمد محمود الديب: حدود فلسطين، مرجع سابق، 1980, ص 37.

10 - للمزيد عن هذا الموضوع ارجع إلى:

– أحمد أحمد مصطفى: الخرائط الكنتورية، تفسيرها، وقطاعاتها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1, 1988م.

– أحمد نجم الدين فليجة وجميل نجيب عبد الله: علم الخرائط والدراسة الميدانية، مركز الإسكندرية للكتاب، 1995م، ص 149–169.

– طه محمود جاد: تحليل الخرائط الكنتورية باهتمام جيمورفولوجي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2, 1984م.

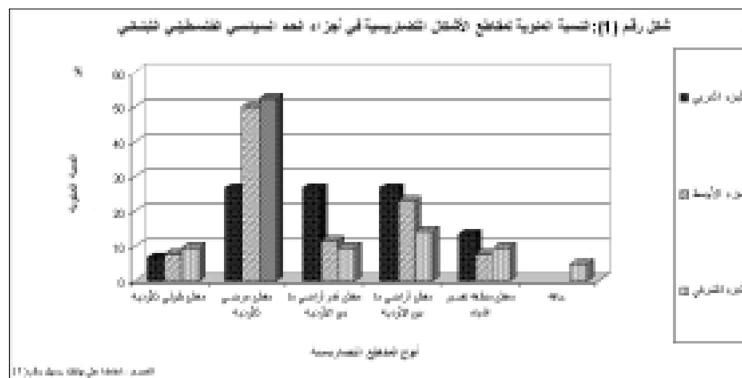
– محمد صبحي عبد الحكيم وزميله: علم الخرائط، مكتبة الأنجلو المصرية، 1969م.

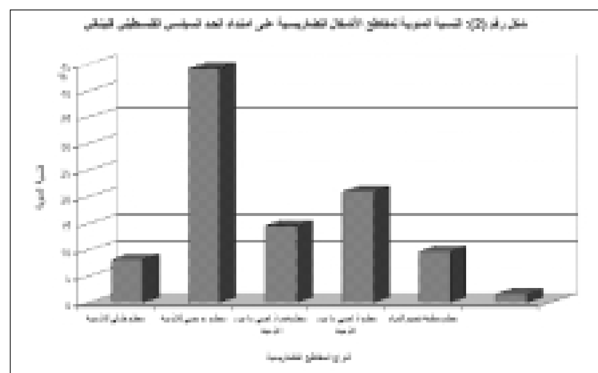
11 - للمزيد عن هذه الأشكال ارجع إلى:–

– فايز محمد العيسوي: خرائط التوزيعات البشرية، أسس وتطبيقات، دار المعرفة الجامعية،

9) تقع على قمة ارتفاعها 700 م غرب عيطه الشعب Aita El-Shaub
10) جنوب النقطة (12) على تل الرحيب Tel-Rahib
11) غرب عين كاتمون Ain Katmmun بمسافة 600 متر.
12) في وادي بدية .Bedieyh
13) التقاء وادي بدية مع وادي خلال .Kelal
14) القمة الغربية لجبل حرمون .Harmon
15) القمة الشرقية لجبل حرمون.
16) تل مرتفع جنوب شرق يارون Yarun بمسافة 2100 متر.
17) بروز شرق يارون بمسافة 2 كيلو متراً.
18) قمة جبل العاصي.
19) حافة غرب وادي شمال خربة أيوب بمسافة 600 م.
20) قمة جبل غابيه Ghabieh جنوب دير الغابة بمسافة 600 متر.
21) بروز شرق جبل غابيه.
22) شمال غرب قرية المالكية بمسافة 600م.
23) تقاطع ممر قادس - Kades – يثرون .Aitherun
24) غرب الشمال الغربي لقرية قادس وبمسافة 700 متراً عنها.
25) تقاطع طريق قادس - ميس Meis مع وادي عطابية .Atabeh
26) التقاء وادي عطابية مع خلة غزلية .Khallet Ghuzeleh
27) حافة شرق مرج طوفة .Tufeh
28) بروز شرق قرية ميس Mais الشرقية بمسافة 800 متر.
29) شرق قرية المنارة بمسافة 300 متراً.
30) نقطة مثلثات الشيخ عباد .Abbad
31) وادي حنين شمال الشمال الغربي لقرية حنين.
32) خط تقسيم المياه بين نهر الليطاني وأودية الحولة شمال قرية حنين بمسافة 1300م.
33) قمة جبل المروج .El-Meruj
34) داخل رقبة أوديسا Col of Odeissa وعلى بعد 800م من أبعد منزل في القرية.
35) تل يبعد 900 متر شمال شرق قرية عبل .Abl

المصدر: محمد محمود إبراهيم الديب: حدود فلسطين، دراسة تحليلية لوثائق الانتداب، جامعة عين شمس، 1980م، ص 54 .58 -





الإسكندرية، 1978م، ص ص 32–45.

– فلاح شاكر أسود: خرائط التوزيعات، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، اليمن، 1994م، ص ص 74–80.

– Dickinson, G.C.: Statistical Mapping and Presentation Statistics, 1st., 2nd, Edward Arnold, London, 1973, 1972.

12 ـ النسب الواردة من احتساب الباحث.

13 ـ للمزيد عن هذا الموضوع ارجع إلى:

– بان نيلسون: تعيين الحدود الشمالية لفلسطين (1919 - 1920)، شئون فلسطينية، العدد 52, 12/1975م، ص ص 87–89.

14 ـ محمد محمود الديب: حدود فلسطين، مرجع سابق، 1980م، ص ص 54 .64 -

15 ـ أحمد أحمد مصطفى: الخرائط الكنتورية، مرجع سابق، 1998.

16 ـ محمد محمود الديب: حدود فلسطين، مرجع سابق، 1980, ص ص 9- 15 .

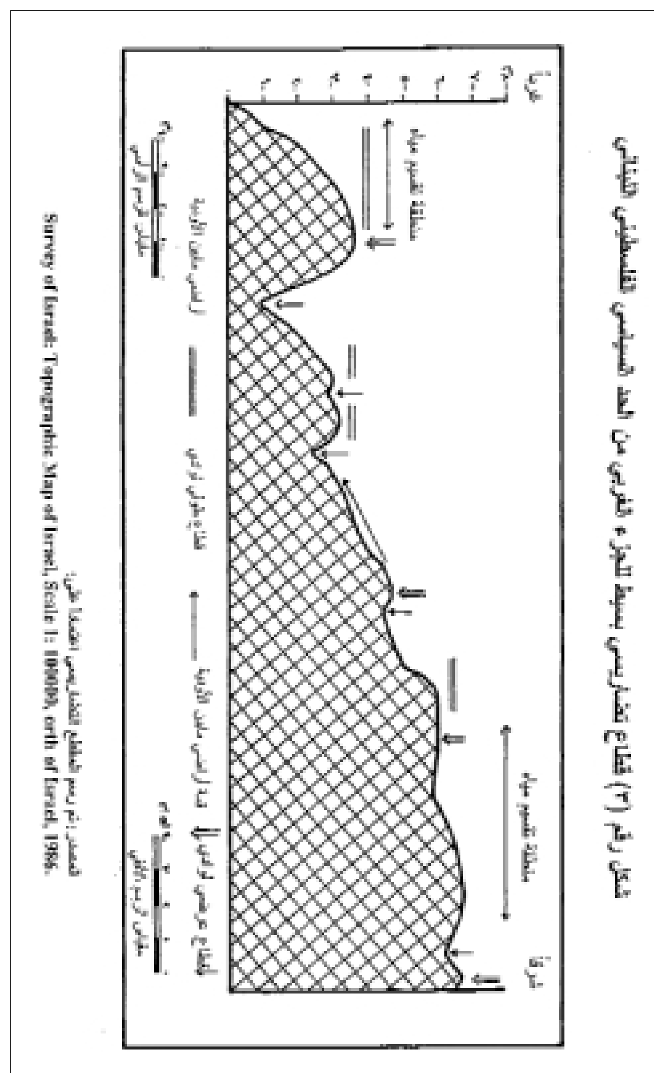
17- Efraim Orni and Elish Efrat: Geography of Israel, Op. Cit. 1976, P. 77.

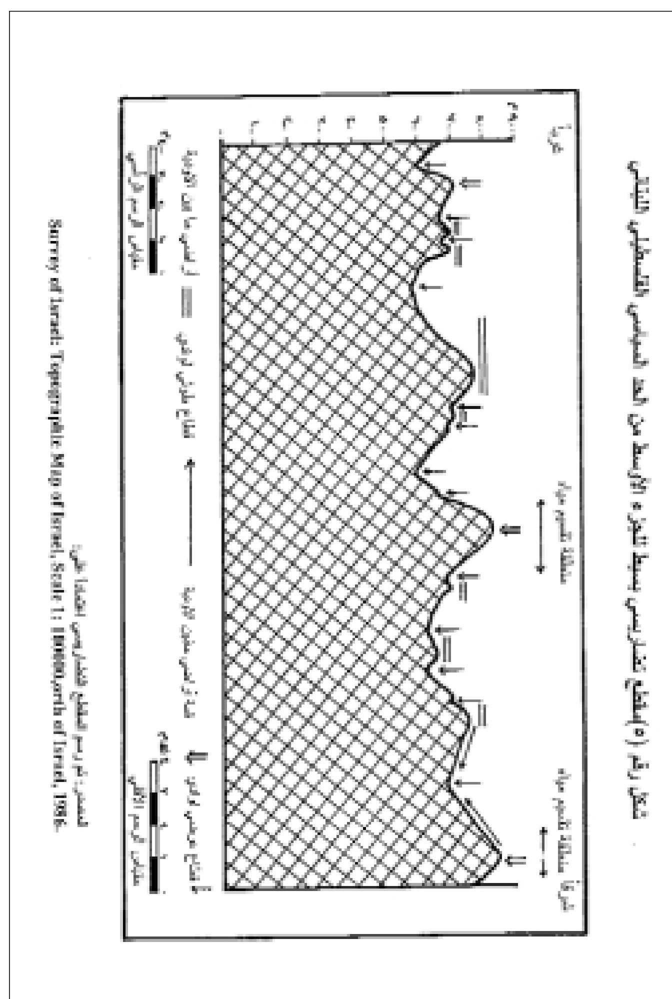
18 ـ للمزيد عن هذا الموضوع ارجع إلى:

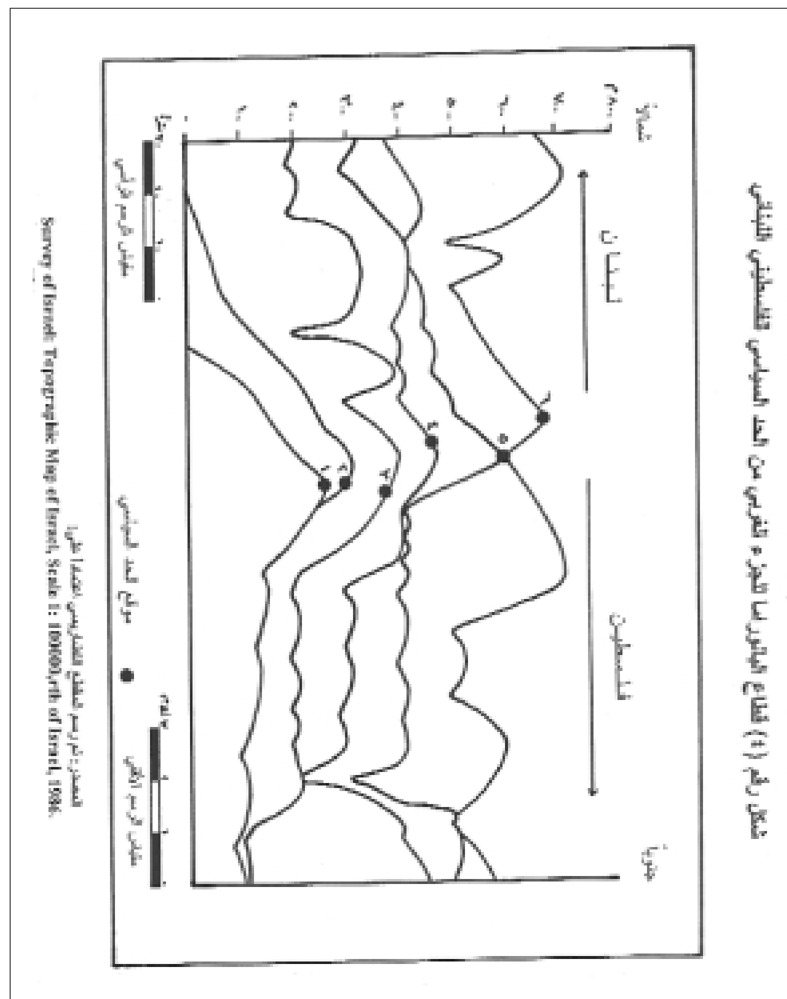
– حسن صالح: سهل الحولة، الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثاني، 1984م، ص ص 290 - 294.

- حسن صالح: نهر الأردن، الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الأول، 1984م، ص ص 405 .411 -

19 ـ للمزيد عن هذا الموضوع ارجع إلى: صبحي يوسف الأستاذ: المياه والأمن القومي العربي، رسالة دكتوراه غير منشورة، الخرطوم، جامعة النيلين ، 1999م.



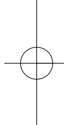




شكل رقم (٤) قطاع البانوراما للجزء الغربي من الحد السياسي الفلسطيني اللبناني

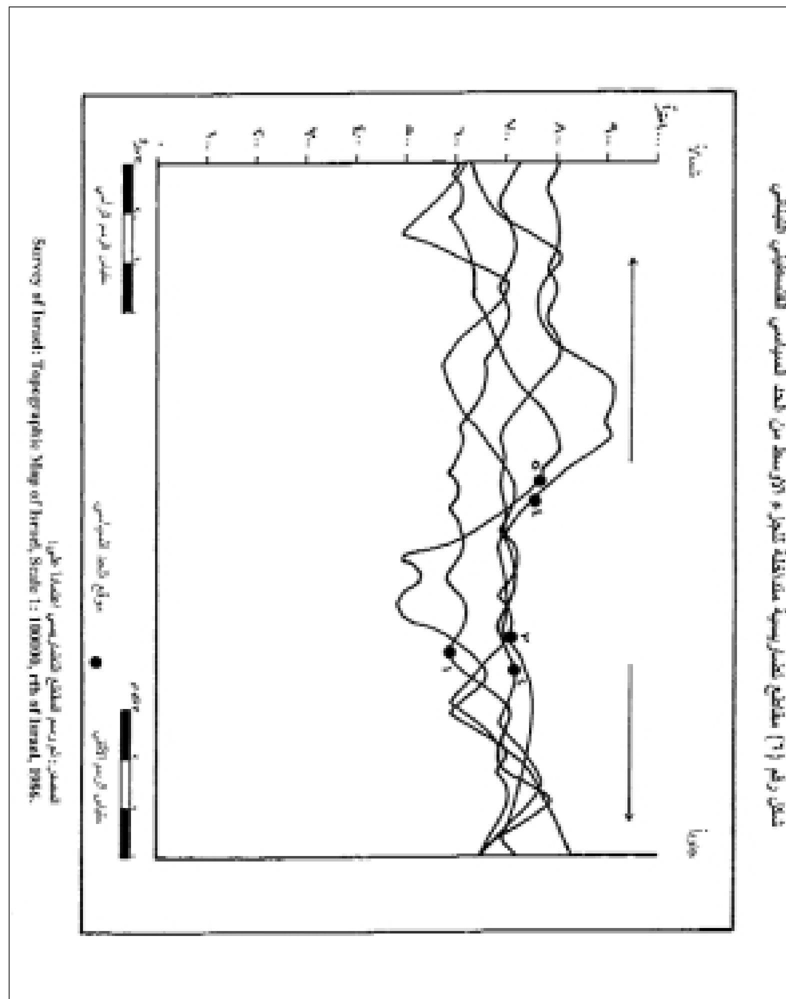
المصدر: تم رسم المقطع التضاريسي اعتماداً على:
Survey of Israel: Topographic Map of Israel, Scale 1: 100000,rth of Israel, 1986.

شكل رقم (٧) مقطع تضاريسي بسيط للجزئين الشرقي والشمالي من الحد السياسي الفلسطيني اللبناني

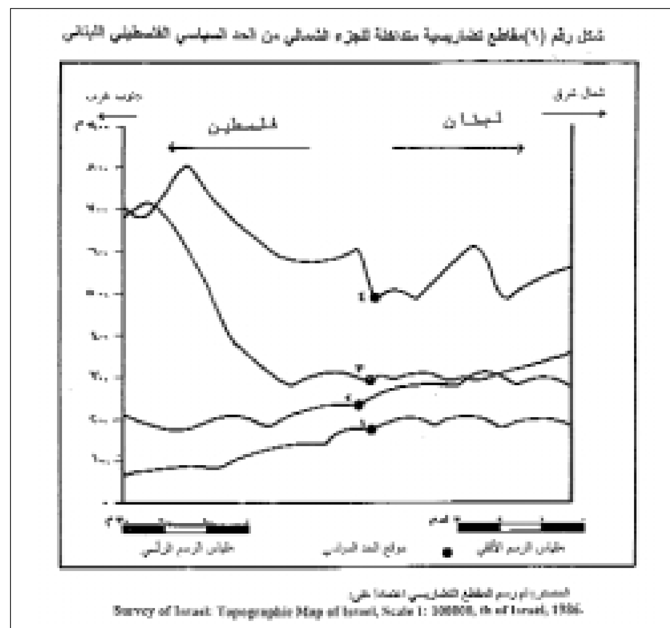


المصدر:

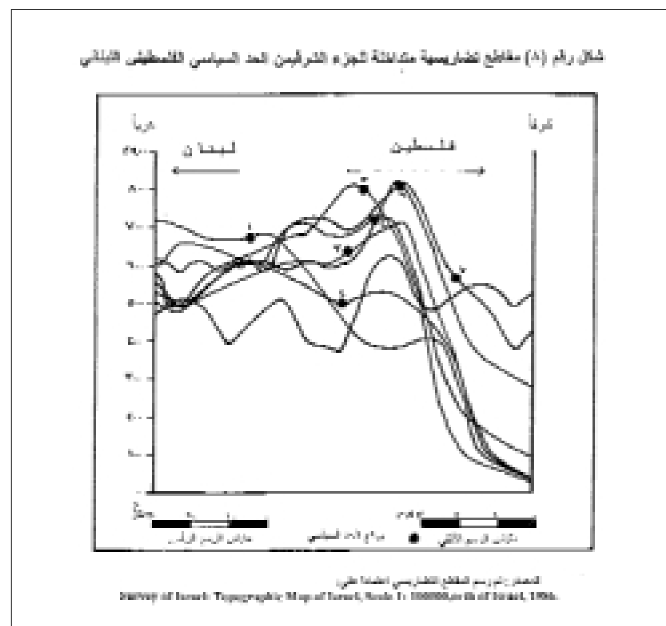
Survey of Israel: Topographic Map of Israel, Scal 1: 100000, (25 M Contour Map), Sheet No. 1, North of Israel, 1985.



شكل رقم (٩) مقاطع تضاريسية متداخلة للجزء الشمالي من الحد السياسي الفلسطيني اللبناني



المصدر: تم رسم المقطع التضاريسي اعتمادا على:
Survey of Israel: Topographic Map of Israel, Scale 1: 100000, th of Israel, 1986.



Zionist Strategy towards the City of Jerusalem

1949 - 1917

Dr. Akram Adwan

Abstract

The Research work deals with the Zionist strategy towards Jerusalem City, under British mandate between 1977 and 1949. This study concentrates on the main policies and Zionist methods carried out to control Jerusalem and to see how the British Conspire along the British rule for Palestine, that ended by British quit Palestine issue, for U.N in 1947. Consequently, the Zionist movement managed to rule and Control many parts over Jerusalem as a result of 1949 war and Zionism dream Come true.

الاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس

1917 - 1949م

د. أكرم عدوان *

الملخص

يتناول البحث بالدارسة، موضوع الاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس في المرحلة الواقعة بين عامي 1917م - 1949م، وهى المرحلة التي شهدت السيطرة البريطانية على فلسطين، بحيث تركز الدراسة على أهم السياسات و الأساليب الصهيونية التي قامت الحركة الصهيونية باستخدامها للسيطرة على مدينة القدس، ومدى التواطؤ البريطاني مع هذه السياسات والأساليب طوال فترة الحكم البريطاني لفلسطين التي انتهت بقرار بريطانيا رفع القضية الفلسطينية إلى هيئة الأمم المتحدة عام 1947 م، ومن ثم نجاح الحركة الصهيونية بالسيطرة على جزء كبير من هذه المدينة نتيجة حرب عام 1948م وتحقيق جزء لا بأس به من الحلم الصهيوني.

* أستاذ في الجامعة الإسلامية غزة - كلية الآداب - قسم التاريخ والآثار.

والدينية وجوانبها الإنسانية والقانونية على حد سواء، فتاريخ القدس لا يمكن أن نفصله بأي شكل من الأشكال عن تاريخ فلسطين وعروبة وإسلامية هذه المنطقة.

من هنا تأتي أهمية الدراسة، فهي تركز وبشكل عميق على السياسة الصهيونية للسيطرة على مدينة القدس في مرحلة حرجة من تاريخ القضية الفلسطينية، مرحلة تمكنت من خلالها الحركة الصهيونية - وبتواطؤ بريطاني - من تحقيق معظم أهدافها تجاه المدينة، فمن زيادة الهجرة الصهيونية إلى المدينة ومن ثم مصادرة أملاك سكانها الأصليين لصالح الصهيونية واضطهادهم، إلى السيطرة الفعلية على جزء كبير من المدينة (القدس الغربية) وجعله عاصمة لدولتهم المزعومة عام 1948م، الأمر الذي يعتبر نصراً مهمًا لمجهوداتهم السابقة وصولاً إلى الاحتلال الكامل لها عام 1967م.

أهداف الدراسة:

- إبراز - وبشكل واضح - السياسات، والأهداف الصهيونية تجاه مدينة القدس منذ نشأة الحركة الصهيونية وحتى قيام دولة إسرائيل عام 1948م.
- توضيح مدى التواطؤ البريطاني والدولي تجاه تمكين الصهاينة من فرض السيطرة والهيمنة على مدينة القدس.
- إظهار أن محاولات الصهاينة السيطرة على مدينة القدس، لا تنفصل إطلاقاً عن أهداف الصهيونية بالسيطرة على كامل أرض فلسطين، فكلا الهدفين مكملان لا ينفصل أحدهما عن الآخر في الاستراتيجية الصهيونية.
- إظهار دور الأمم المتحدة في ترسيخ الوجود اليهودي الصهيوني في هذه المدينة وفي فلسطين بشكل عام. فقد لعبت الأمم المتحدة دوراً رئيساً في السيطرة اليهودية على القدس وفلسطين.

حدود الدراسة:

تتناول الدراسة موضوع الاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس في المرحلة

المقدمة

نظراً لأهمية مدينة القدس سياسيًّا وتاريخيًّا ودينيًّا، فقد مرت منذ نشأتها على يد اليبوسيين (2500) ق.م بالعديد من المشكلات والكوارث، وعلى الرغم من هذه المشكلات والكوارث ظلت المدينة قائمة وصامدة حتى يومنا هذا. وقد عاصر العرب والمسلمون من أحداث القدس، وتاريخها القديم، والوسيط، والحديث ما لم تعاصره أمة أو أي طائفة أخرى من المحتلين الغاصبين، فأصبحت المدينة تمثل إرثاً حضارياً ودينياً لهم، وحق الدفاع عن ترابها وأركانها ومقدساتها، وأصبح ذلك واجبا مقدساً، وقد قام العرب والمسلمون من بعدهم بواجبهم في هذا المجال على أكمل وجه، ولم يميزوا أبداً بين مسلم أو مسيحي أو يهودي داخل المدينة.

وقد شهد اليهود أنفسهم بهذا، ففي المذكرة التي قدمتها الوكالة اليهودية للجنة البريطانية الفنية وودهيد عام 1938م ذكرت الوكالة اليهودية في هذه المذكرة، أنه ما من شك أن الفتح العربي في القرن السابع الميلادي للمدينة، مثل تقدماً ملحوظاً في مركز اليهود بالمدينة المقدسة، وأن المسلمين سمحوا لليهود بتعمير أماكن قضائهم الديني وبناء معابد لهم.

والحقيقة أنه لم يحدث في تاريخ مدينة القدس ما يشكك في عروبة وإسلامية هذه المدينة في السنوات السابقة لوعد بلفور عام 1917م، فقد ظلت المدينة إسلامية عربية طوال تلك المرحلة، هادئة آمنة لا يعكر صفوها شيء، إلى أن قررت بريطانيا منح اليهود وطناً قومياً على أرض فلسطين كما جاء في وعد بلفور، ومن ثم قيام بريطانيا باحتلال المدينة وفلسطين تحقيقاً لهذا الهدف عام 1914م.

أهمية الدراسة:

ترجع أهمية الدراسة، إلى كونها تتناول قضية مهمة جداً ومؤثرة في السياسة والعلاقات الدولية والتاريخ الدولي، فهي تتناول قضية القدس. التي تعتبر جزءًا لا يتجزأ من قضية فلسطين الكبرى، في أبعادها القومية والدولية، السياسية منها

يهودا إحدى المملكتين اليهوديتين في فلسطين قبل ثلاثة آلاف سنة. [2] وعلى أنها تضم المعبد اليهودي المقدس. [3]

وغفل الصهاينة أن من أسس هذه المدينة وأنشأها من أقدم العصور هم العرب (اليبوسيون) أحد فروع الكنعانيين القبيلة العربية العريقة التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام حوالي عام 2500 قبل الميلاد، وخلال هذه الفترة بدأ استعمال اسم (أورشليم) بمعنى (مدينة السلام) للتعريف بهذه المدينة، وقد استمرت سيطرة اليبوسيين على القدس حتى العام الألف قبل الميلاد بحيث كانت القدس خلال هذه المرحلة مدينة مقدسة يحكمها ملوك اشتهر من بينهم (ملكيسيديك). [4]

قد اعترفت التوراة بهذا الواقع في سفر التكوين، عندما أطلقت على سكان فلسطين تحديداً اسم الكنعانيين ثم عادت التوارة في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين فأطلقت على أرض كنعان اسم أرض فلسطين، وبهذا اعترفت التوارة بأن الكنعانيين أولاً والفلسطينيين ثانياً هما الجنسان اللذان تواجدا في فلسطين منذ أقدم عصور التاريخ، وكل ما عداهما لا يمت إلى فلسطين بصلة. [5]

أما فيما يتعلق بالمعبد اليهودي المقدس «الهيكل» - وهذه القصة المزعومة - فإن حدثت، فقد حدثت في مغارة أورشليم (كهف المتعبدين في جبل غاق) وإن كان هناك شك حقيقي حول واقعية حدوثها أصلاً، ومن المرجح أن يكون ذلك من كتّاب أسفار التوراة، الذين دونوا تلك المعلومات عن هذا المعبد بعد سليمان بما يقارب من ستمائة عام، قد نقلوا هذه القصة عن التاريخ العربي الشائع والمعروف آنذاك منذ الزمن العربي الموغل في القدم. وألصقوها لسليمان كما نقلوا كثيراً غيرها من قصص التراث العربي القديم كقصة التكوين البالية، وقصة الطوفان، وقصة أيوب ودانيال. [6]

مما سبق نستطيع القول إن الادّعاء الصهيوني التاريخي والديني في مدينة القدس ما هو إلا ادعاء باطل، لا أساس له من الصحة، وهو ادعاء يعتمد على

الواقعة بين الأعوام 1917م– 9491 م. أما لماذا عام 1917م؟ فنقول إنها بداية مرحلة تمثل خروج مدينة القدس من تحت الحكم الإسلامي وسقوطها تحت الحكم الأجنبي المتمثل في بريطانيا وبداية مرحلة جديد في تاريخ هذه المدينة – أما نهاية الدراسة في عام 1949م، فهي السنة التي نجحت فيها الحركة الصهيونية من إقامة دولة معترف بها على أرض إسرائيل تكون القدس عاصمة لهذه الدولة، فخلال هذه المرحلة نجحت الحركة الصهيونية في السيطرة على جزء كبير من المدينة، (القسم الشرقي) وهو ما يمثل مرحلة جديدة من تاريخها المعاصر.

منهج الدراسة:

استخدم الباحث المنهج التاريخي التحليلي في تناوله للأحداث والتطورات التاريخية والسياسية خلال مرحلة الدراسة معتمداً على العديد من الوثائق والمراجع في هذا المجال.

لم يكن وقوع مدينة القدس تحت السيطرة الصهيونية نتيجة حربي عام 1948م – 1967م فحسب بل جاء كنتيجة محتومة لسلسلة من المخططات الدقيقة والمدروسة التي تم تنفيذها على مراحل متعددة تلاءمت والقدرات البشرية والمادية والسياسية والعسكرية الصهيونية.

تلك المخططات التي بدأت تأخذ الشكل الفعلي والتطبيقي على الأرض مع نشوء الحركة الصهيونية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في أعقاب المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة بازل بسويسرا سنة 1897م.

فالصهيونية التي نسبت نفسها إلى أحد جبال القدس وهو جبل (صهيون) لم تتردد منذ القرن التاسع عشر، في جمع شتات اليهود على أرض فلسطين وإقامة دولة يهودية. تكون مدينة القدس عاصمة لتلك الدولة مستندة إلى مزاعم وحقوق تاريخية ودينية تربطها بهذه المنطقة [1]، ويعتمد الادعاء الصهيوني على أحقية اليهود في السيطرة على القدس واعتبارها عاصمة لهم على أساس أنها كانت عاصمة مملكة

أرض فلسطين، وأن التناقض بين الاعتراف الدولي، الذي كانت تتوق إليه الصهيونية الجديدة، وبين السيادة الصهيونية على الأماكن المقدسة للمسلمين والمسيحيين، في فلسطين وكان واضحاً لزعماء الحركة الصهيونية منذ البداية.

فقد رأى هرتزل، ومنذ عام 1896م أن السيادة الصهيونية على أرض فلسطين لا تعنى بصورة تلقائية بأن تكون مدينة القدس عاصمة لهذا الكيان الذي سيتمتع بالسيادة، وأنه لم يجد صعوبة من أن يعتبر القدس وما حولها إقليماً خارجياً، وذلك مقابل الحصول على اعتراف دولي بالسيادة الصهيونية على بقية أجزاء فلسطين، لذلك كان يرى في القدس بأنها عقبة مركزية على طريق إقامة الدولة اليهودية.[8]

ومن خلال زيارته التي قام بها لمدينة القدس أواخر عام 1898م بلور هرتزل خطة أكثر تعقيداً لمستقبل المدينة، فقد رأي في هذه الخطة بأن تكون مدينة القدس القديمة بما فيها الأماكن المقدسة الموجودة فيها، منطقة دولية تابعة لكافة الشعوب كمركز للإيمان والمحبة والعلم، وفي بلدة القدس القديمة سيكون بمقدور اليهود أن يبنوا لأنفسهم هيكلاً للصلاة يكون بمثابة إعادة بناء للهيكل القديم، بحيث يقام على مسافة ما من الحرم القدسي الشريف، وأراد هرتزل أن يقيم خارج أسوار المدينة مدينة وفق الطراز الأوروبي الحديث، بحيث تصبح العاصمة السياسية والثقافية والعلمية للشعب اليهودي.[9]

كما يتضح من الطرح السابق، أن الحركة الصهيونية الحديثة بزعامة هرتزل، أرادت السيطرة على مدينة القدس، ولكن بسياسة الخطوة خطوة، فمنذ البداية أوضح هرتزل أهمية هذه المدينة للصهاينة ولكنه أوضح في الوقت نفسه أنه في سبيل تحقيق الحلم الأكبر وهو الحصول على اعتراف دولي بكيان صهيوني على أرض فلسطين من الممكن المساومة على القدس في هذه المرحلة، ولكنه لم يغفل أبداً أن القدس تمثل قلب هذه الدولة، وأنه لا يمكن التنازل عنها أو نسيانها خاصة الجزء الغربي من المدينة، وهي الفكرة التي أرسيت منذ هذا التاريخ وذلك بفصل المدينة

مغالطات وافتراءات تاريخية ودينية. تم وضعها وتأليفها على يد أحبارهم في القدم. وعلى يد زعمائهم الجدد في الحركة الصهيونية، والذين لا يمتون للديانة اليهودية بشيء، وذلك تحقيقاً للأهداف السياسية والاقتصادية والعسكرية التي تم وضعها من خلال حركة الاستعمار الجديد للمنطقة العربية مع بدايات القرن الخامس عشر، مما أدى إلى تلاقي المصالح الصهيونية مع المصالح الاستعمارية الغربية للسيطرة على هذه المنطقة المهمة من العالم.

وبالعودة إلى أطماع الصهيونية الحديثة في مدينة القدس، والتي بدأت تظهر قبل الإعلان عن الحركة الصهيونية كمؤسسة سياسية،خاصة في عهد السلطان العثماني عبد المجيد عام 1849م، وهي المرحلة التي شهدت فترات ضعف وتراجع الدولة العثمانية، والتي استغلها اليهود والأوروبيون أفضل استغلال، ففي هذه المرحلة نجح الصهيوني (موسى مونتفيوري) في الحصول على فرمان من السلطان عبد المجيد يسمح بموجبه لليهود بشراء بعض الأراضٍ وبمساعدة من السفير البريطاني في العاصمة العثمانية، وهي أراضٍ تقع بين يافا والقدس، وتم عليها إقامة أقدم المستوطنات اليهودية في فلسطين كما تمكن من الحصول على فرمان آخر مكن من شراء أول قطعة أرض في مدينة القدس، خارج سور المدينة القديمة، وبدلاً من أن يقام عليها مشفى كما جاء في نص الفرمان، أقيم عليها مساكن شعبية لليهود، وقد عرف الحي فيما بعد باسم "حي مونتفيوري" والذي بدأ العمل فيه عام 1859م. ليصبح النواة الأولى للجزء اليهودي من مدينة القدس، ثم انتشر البناء في الأعوام اللاحقة، فلم تمض سوى فترة وجيزة حتى تم بناء ثمانية أحياء في القدس عام 1892م وانتشر البناء اليهودي من بداية يافا إلى بوابة دمشق. [7]

بعد ظهور هرتزل أو بمعنى آخر ظهور الصهيونية الجديدة التي يمثلها هرتزل، بدأت تتبلور أفكار وخطط واستراتيجية جديدة تجاه مدينة القدس، ترتكز على مفهوم الحاجة الماسة إلى ميثاق واعتراف دولي بالمشروع الصهيوني القومي على

ومزرية وتعطي أسوأ الانطباعات لدى كل زائر. ومعبدنا في مدينتنا المقدسة هو الآن في أيدي المغاربة الكفار. إننا على أتم الاستعداد لإرضاء هذه الجماعة البائسة وسنعمل على تطهيره ورفع شأنه". [12]

لهذا وتحقيقاً للهدف الصهيوني قام الحاكم البريطاني العسكري للقدس باستدعاء مفتي القدس في حينها المرحوم "كامل الحسيني" وأسمعه طلب وايزمن بشأن بيع الممر والدور المجاورة لحائط البراق، إلا أنه لم يقم بذكر الحائط بالذات، وجاء الجواب القاطع من السيد كامل الحسيني قائلاً: "لا يستطيع أي إنسان أن يتصرف في أملاك الوقف، ولا سيما هذا المكان على وجه الخصوص، بأي مبلغ مهما كان، حتى إلى مسلم، فكيف إذا كان الطالب يهوديا، ونحن نعرف أهدافهم لامتلاك الحائط وما في جواره" .

ولقد استمرت المحاولات الصهيونية في هذا الاتجاه، فقد ذكر الجنرال "بولز" رئيس الإدارة العسكرية البريطانية لفلسطين في تقرير رسمي رفعه إلى الحكومة البريطانية في لندن، بأن الحاخام الأكبر للقدس وهو "إبراهام إسحاق كوك" قدم له طلباً بتسليم اليهود ساحة المسجد الأقصى كلها، وكان زعماء اليهود في لندن برئاسة الدكتور وايزمن قد قاموا بتقديم الطلب نفسه إلى رئيس الوزراء البريطاني. [13]

إلى جانب ذلك نجحت الحركة الصهيونية في هذه المرحلة بإنشاء العديد من المؤسسات والمراكز الصهيونية داخل المدينة، مثل (إنشاء فرع بنك إفيك ومؤسسة الهستدروت الصهيونية العالمية عام 1904م، ومعهد (بتسليئل) للفنون 1906م، وافتتاح الكلية العبرية الأولى 1909م ووضع حجر الأساس للجامعة العبرية 1918م) . [14]

واستمرت النجاحات الصهيونية للسيطرة على المدينة وبتواطؤ بريطاني، ووصلت قمة هذه النجاحات في قيام بريطانيا بتعيين مندوب سامي بريطاني على فلسطين، أنهت من خلاله مرحلة الحكم العسكري، ألا وهو السيد "هربرت صموئيل" عام 1920م أول حاكم مدني لفلسطين.

وتقسيمها إلى قسمين - الجزء الشرقي وهو الجزء الذي سيصبح دولياً تتمتع فيه كل الأديان بالسلطة عليه، والقسم الغربي وهو الجزء الصهيوني الخالص والعاصمة للدولة الصهيونية العتيدة. وهي الفكرة أو النظرية التي ظلت محوراً للتحركات الصهيونية تجاه مدينة القدس حتى عام 1967م.

الاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس (مرحلة الحكم العسكري البريطاني لفلسطين) 1917 - 1920م

استمر في هذه المرحلة العمل الصهيوني المنظم للسيطرة على مدينة القدس، بالرغم من وقوع الحرب العالمية الأولى 1914م - 1918م والتي أدت إلى تجميد النشاط الصهيوني في القدس، إلا أنه فور انتهاء الحرب في عام 1918م تجدد النشاط الصهيوني في المدينة وبدعم دولة بريطانيا التي سيطرت على فلسطين في هذه المرحلة. ولقد لعب الحاكم العسكري البريطاني لمدينة القدس الكولونيل "رنالدستورس" دوراً رئيساً في تحقيق الأطماع الصهيونية في المدينة، وذلك من خلال العديد من الإجراءات، جاء في مقدمتها، إلغاء المجلس البلدي السابق للمدينة وتعيين مجلس بلدي جديد أدخل في عضويته العديد من الصهاينة وصلوا إلى النصف، كما قام بإنشاء ما يسمى "بجمعية مؤازرة القدس بعد الحرب" والتي تكونت من القادة الدينيين للعقائد الثلاث، وكانت أول مرة يشترك فيها صهاينة في مؤسسة تعنى بشئون القدس. (10)

كما سمحت بريطانيا باستيطان ما يسمى بلجنة المندوبين، وهي المفوضية الرسمية للهستدروت الصهيوني العالمي وكانت برئاسة "حاييم وايزمن"، ومنذ وصولها إلى فلسطين قامت بزيارة رسمية إلى مدينة القدس وحائط البراق. (11)

وفي مايو 1918 م طلب "وايزمن" من السلطة العسكرية البريطانية تسليم حائط البراق لليهود، وقال في هذا الصدد: "لنا في فلسطين عدة مقدسات ولكن كلها في أيدي المسيحيين والمسلمين، والمبكى جزء من الهيكل وجميع الأمكنة التي حوله فقيرة

البطريركية اليونانية الأرثوذكسية، وأطلق على شارعها الرئيس اسم "اليسار بن يهودا" عالم اللغويات الذي أحيا اللغة العبرية، وجعلها لغة حديثة ملفوظة، كما بدأ بتشييد سوق محاناه يهودا. [15]

وقد سمح هربرت صموئيل، بتدفق الأموال القادمة من الخارج لليهود، وذلك لاستثمارها في دعم المشاريع الصهيونية داخل فلسطين وتحديداً مدينة القدس [16]، التي حصلت على نصيب وافر من هذه الأموال، والتي استثمرت في إنشاء العديد من المؤسسات الصهيونية، لجعلها مركزاً سياسياً وإدارياً وثقافياً، فقد نجحت الحركة الصهيونية في هذه المرحلة في جعل مدينة القدس مقراً للعديد من المؤسسات مثل (اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية، والوكالة الصهيونية، والصندوق التأسيسي الصهيوني، والصندوق القومي اليهودي، والمجلس الوطني لليشوف، الحاخمية الرئيسة لليهود. [17]

وقد شهدت المرحلة نفسها طفرة إنشائية سكانية صهيونية داخل وحول أسوار المدينة فقد تم إنشاء العديد من الأحياء الجديدة لإسكان المهاجرين الصهاينة الجدد، مثل (حي روميما الذي أنشئ عام 1921م، وحي تل بيوت 1922م، وبيت هاكيرم 1923م). [18]

ولعل من أهم النجاحات التي حققتها الصهيونية في هذه المرحلة، افتتاح الجامعة العبرية عام 1925م على جبل سكوبس (جبل المشارف) حيث شهد اللورد بلفور افتتاح الجامعة. إلى جانب نجاح الحركة في إنشاء العديد من المدارس الصهيونية داخل المدينة، وقد رفضت الحركة في حينها اقتراحاً بريطانياً بإنشاء جامعة بريطانية في المدينة، وأصرت على أن الجامعة الوحيدة التي يجب أن تكون داخل الجامعة هي الجامعة العبرية. [19]

في هذه المرحلة حاول الشعب الفلسطيني التصدي للإجراءات البريطانية- الصهيونية، فقد عقدت الجمعيات الإسلامية والمسيحية في فلسطين المؤتمر الفلسطيني الأول في شهر يناير 1919م. في مدرسة دار الأيتام بمدينة القدس وحضر المؤتمر ممثلون عن الشعب الفلسطيني، وخرج المؤتمر بالعديد من القرارات التي ترفض السياسة البريطانية والصهيونية في فلسطين,وقد تم إرسال مندوبين عنه إلى مؤتمر الصلح في فرنسا بهدف فضح الممارسات البريطانية والصهيونية ضد الشعب الفلسطيني أمام العالم .

وتم عقد فلسطيني آخر في شهر ديسمبر الذي خرج بالعديد من القرارات والتي على رأسها إدانة السياسة البريطانية والصهيونية والعمل على التصدي لهذه السياسة.

ويمكن القول إن المواقف الوطنية الفلسطينية خلال تلك المرحلة ظلت في إطار المواجهة السياسية فقط.

الاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس مرحلة (السيد/ هربرت صموئيل) (1920م - 1925م)

منذ اليوم الأول لتعيين هربرت صموئيل مندوبًا ساميًا على فلسطين، بدأ باستخدام سياسة مفادها تطبيق كامل لما جاء في وعد بلفور بالرغم من أنه أطلق العديد من الوعود للعرب من ضمنها أنه لن يتم مصادرة أراضيهم ولن تتولى حكومة يهودية حكم الأغلبية العربية. فقد شهدت الهجرة اليهودية إلى القدس اتساعاً محموماً في عهده، وظهر العديد من الضواحي والمساكن الصهيونية داخل المدينة وخارجها مثل (حي تالبويت، ورهافيا، وبيت فيجان، وقريت موشيه، وبيت حاكيريم) وقد تم إنشاء هذه الأحياء والضواحي غرب المدينة القديمة كما تم إقامة مركز تجاري يهودي جديد غرب أسوار المدينة القديمة على أرض مصادرة من

ثم قام اليهود بمظاهرة ضخمة في شوارع مدينة القدس، واتجهوا نحو حائط البراق حيث قاموا برفع العلم الصهيوني من جديد، وأنشدوا النشيد الوطني الصهيوني، الأمر الذي أدى إلى استفزاز مشاعر المسلمين، الذين قاموا في اليوم الذي يليه بمظاهره مضادة حطموا خلالها منضدة لليهود على رصيف الحائط، وأحرقوا أوراق الصلوات اليهودية الموجودة في ثقوب الحائط، فكانت هذه الأحداث مقدمة للصدامات الكبيرة التي وقعت بين الطرفين في 23 أغسطس 1929م، في مدينة القدس وامتدت إلى جميع أنحاء فلسطين، ووقع على أثرها العديد من القتلى والجرحى بين الطرفين. (24)

والحقيقة أن محاولة الصهاينة إيجاد موضع قدم في مدينة القدس عام 1929م، سبقتها محاولات أخرى، خاصة في العهد العثماني، ففي خريف عام 1839م، قام اليهود بمحاولة أكثر طموحاً للحصول على حق مكتسب في حائط البراق، وذلك حين طلب القنصل البريطاني في القدس السماح لبعض اليهود بتبليط الرصيف الكائن أمام الحائط، وكان قد أنشئ لمرور سكان مَحَلَّة المغاربة وغيرهم من المسلمين في ذهابهم إلى مسجد قبة الصخرة، ومن ثم إلى الحرم الشريف، وبما أنه ليس لليهود حقوق في ذلك المكان، وأن سلوكهم إلى الحائط في أيام معلومة ليس إلا من قبيل التسامح الذي أبداه نحوهم المسلمون، فلم يمانع المسلمون في حينها السماح لليهود بهذا السلوك. (25)

وقد حاول اليهود في حينها تقديم طلب رسمي إلى إبراهيم باشا* بالسماح لهم بتبليط هذا الرصيف، إلا أن إبراهيم باشا أصدر مرسوماً يقضي بمنعهم من تبليط رصيف حائط البراق، مع إعطائهم حق الزيارة له على الوجه القديم. (26) وفي الوقت نفسه سمح لهم بإنشاء العديد من الكنس واعترفت في حينها السلطات العثمانية بحاخامهم كناطق رسمي باسمهم. (27)

على أثر أحداث عام 1929م تقرر إرسال لجنة دولية للتحقيق في الأحداث، منبثقة

الاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس في المرحلة الواقعة بين عامي (1929م - 1938م)

استمرت في هذه المرحلة المحاولات الصهيونية للسيطرة على مدنية القدس، فقد تحددت في بدايات هذه المرحلة المحاولات الصهيونية بالمطالبة بحائط البراق، وهو الحائط الذي يشكل جزءاً من الحائط الخارجي الغربي للمسجد الأقصى، ويقدسه اليهود حسب اعتقادهم بوصفه يمثل البقية الباقية من الهيكل المزعوم، فقد اعتاد اليهود منذ القدم على زيارة هذا المكان في المناسبات الدينية خاصة يوم الصيام المعروف بيوم (تسع آب) والذي يحتفل به بذكرى خراب آخر هيكل لليهود من قبل هيردوس. [20]

وقد جرت العادة أن يسمح لليهود بزيارة حائط البراق وممارسة شعائرهم الدينية دون أي اعتراض من المسلمين، وذلك من باب التسامح الديني، ومن باب أنها مجرد شعائر يؤدونها دون أن يكون لهم أي حق مكتسب في هذا المكان. [21]

وبعد الاحتلال البريطاني لفلسطين ومدينة القدس، حاول اليهود استغلال التواطؤ البريطاني معهم، محاولين إجراء بعض التغييرات في الوضع القائم داخل مدينة القدس، ففي 24 سبتمبر1928م، وبمناسبة عيد الغفران، قام الصهاينة بنصب المقاعد أمام الحائط وجلب الكراسي والمصابيح والحصر وتابوت العهد وكتب التوراة وأقاموا الستار الخشبي الذي يفصل بين الرجال والنساء، وذلك تمهيداً لإقامة كنيس يهودي في هذا المكان [21]، ثم قاموا برفع العلم الصهيوني على الحائط وهتفوا قائلين: "الحائط حائطنا" ثم نفخوا البوق. [22]

وعندما حل عام 1929م، حاول الصهاينة تكرار ما حدث في عام 1928م، وذلك بعد أن استعدوا له استعداداً مسلحاً، وقاموا بجلب الكراسي والمصابيح والستائر وقاموا بنصبها أمام حائط البراق [23]، معتمدين في الوقت نفسه على الدعم البريطاني، ذلك الدعم الذي سمح لهم بممارسة هذا العمل دون أية معارضة تذكر

للبحث عن أساليب جديدة يحاولون من خلالها الولوج إلى المدينة سراً وبالطرق الملتوية.

وكان من أبرز هذه الأساليب محاولتهم التقرب للعرب المسلمين داخل فلسطين ومدينة القدس ووضع مشاريع وحلول حاولوا من خلالها إيجاد موضع قدم داخل المدينة.

فقد قام أحد زعمائهم في تلك المرحلة وهو "ديفيد بن غوريون" بإعداد خطة حل لقضية فلسطين أطلق عليها في حينها اسم "مبادئ أساسية لنظام الحكومة في فلسطين" قامت هذه الخطة على أساس تقسيم فلسطين إلى مناطق معتمدة على نظام البلديات التي تتمتع بحكم ذاتي، على أن تكون مدينة القدس مقراً للحكومة وللهيئة التشريعية. (30)

عموماً لم تتوقف المحاولات الصهيونية للسيطرة على مدينة القدس، وظلت الأفكار والاستراتيجية الصهيونية على إصرارها وتخطيطها الدءوب بالعمل على إيجاد كل الطرق والأساليب لفرض أمر واقع صهيوني على هذه المدينة.

استمرت المحاولات الصهيونية في هذا الاتجاه إلى أن وقعت أحداث عام 1936م (الثورة الفلسطينية الكبرى) والتي على أثرها قررت الحكومة البريطانية تشكيل لجنة ملكية للتحقيق في الأحداث، وهي السياسة التي اتبعتها بريطانيا منذ احتلالها لفلسطين.

بعد أن حققت اللجنة في الأحداث، قامت بوضع مشروعها الذي تناول تاريخ القضية الفلسطينية منذ القدم وحتى وقوع أحداث عام 1936م.

وخلصت اللجنة من خلال التقرير، إلى وضع تصورها تجاه حل القضية الفلسطينية من خلال توصيتها الشهيرة بإنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، وتقسيم فلسطين إلى دولتين، واحدة عربية، والأخرى يهودية، ومنطقة ثالثة تبقى تحت سيادة الانتداب البريطاني، وهي المنطقة التي تشمل مدينة القدس إلى جانب

من عصبة الأمم، وبالفعل وافق مجلس العصبة على تشكيل هذه اللجنة في يوم 15مايو1930م. التي باشرت أعمالها يوم 19يونيو1930م، وبعد التحقيق، أقرت اللجنة النقاط الآتية:

فيما يخص ملكية الحائط قالت اللجنة في تقريرها:«... إنَّ حق ملكية الحائط وحق التصرف فيه وما جاوره من الأماكن عائد إلى المسلمين، وإن الحائط نفسه هو ملك للمسلمين؛ لأنه جزء لا يتجزأ من الحرم الشريف: كما ثبت للجنة من التحقيق سواء في المحكمة الشرعية أو من الشهادات والبيانات التي أدلى بها الشهود أن الرصيف الكائن عند الحائط حيث يقيم اليهود صلواتهم، هو أيضاً ملك للمسلمين. "[28]

بالرغم من هذا التقرير فإن صهاينة العالم لم يوقفوا ممارساتهم فبعد الأحداث الأخيرة عام 1929م، وتقرير اللجنة الدولية 1930م، قام رئيس حاخامي رومانيا "إبراهام روزنباخ" بإرسال كتاب أؤرخ في 20 نوفمبر1930م، إلى رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الحاج "أمين الحسيني"، يطلب منه تسليم المسجد الأقصى لليهود، ليتمكنوا من ممارسة عباداتهم فيه، كذلك أرسل كتاب آخر مماثلاً إلى السكرتير العام لحكومة فلسطين.[29]

مما سبق يتضح لنا أن الممارسات الصهيونية المدعومة من بريطانيا، لم تتوقف ولو للحظة واحدة، في محاولاتها للسيطرة على مدينة القدس، وبالرغم من الإقرار الدولي بأن كل ادعاءات اليهود في هذه المدينة باطلة وغير صحيحة، نجد أن الصهاينة ظلوا على عنادهم واستفزازاتهم ومحاولاتهم؛ لإيجاد موطئ قدم في هذه المدينة المقدسة.

وعلى أثر فشل الحركة الصهيونية في إيجاد موضع قدم داخل مدينة القدس، وكذلك فشلهم في إقرار أمر واقع بمساعدة بريطانيا داخل مدينة القدس، خاصة بعد رفض اللجنة الدولية الادعاءات والحجج التي جاءوا بها، بدأ زعماؤهم يعملون

سوى القليل جداً فيما يطمح إليه اليهود، وهي دولة تشمل كل فلسطين، وأن الأمر المهم لديه هو مدينة القدس، وليس أرض إسرائيل، وأنه بدون القدس فإن أرض إسرائيل ليست أكثر من مجرد غيتو يهودي آخر. (36)"

وقد عارض الخطة أيضاً كلٌّ من موش شارتوك وإسحاق بن زفي، وهما من زعماء الحركة الصهيونية. وبالرغم من تحفظ ورفض بعض قادة الحركة الصهيونية لخطة اللجنة الملكية تجاه مدينة القدس، ظهر بعض قادة الحركة الذين رأوا في تلك الخطة بداية حقيقية ونجاحاً كبيراً لمجهوداتهم في الحصول على موضع قدم ودولة داخل فلسطين، وهو أمر اعتبر من وجهة نظر أولئك الزعماء الصهاينة نصراً كبيراً للصهيونية العالمية، وذلك بالرغم من خروج مدينة القدس من تلك الدولة، وكان من أبرز أولئك الزعماء (حاييم وايزمن) و(ديفيد بن غوريون).

فقد تخلى ديفيد بن غوريون عن القدس حتى قبل أن يطلب منه أي شخص القيام بذلك، ففي يناير7391م، قال بن غوريون لرفاقه في حزب عمال أرض إسرائيل (ماباي) إنه مستعد للحصول على دولة بدون القدس. (37) وأضاف "أنه من الواضح أن مدينة القدس وبيت لحم ينبغي أن تخرجا من الحساب، على أن تكون هذه المنطقة منطقة دولية، تحت سلطة الانتداب الإنجليزي وإدارة محلية يهودية عربية. (38)"

ولقد علق بعض زعماء الحركة على أقوال بن غوريون، بأنه كان يقصد منطقة لواء القدس، وليس مدينة القدس نفسها؛ لأن منطقة لواء القدس تشمل إلى جانب مدينة القدس العديد من القرى والمدن المحيطة بها كما اشتمل على المدن العربية المسيحية الثلاث وهي بيت لحم، وبيت جالا، وبيت ساحور، وكان العرب في هذه المنطقة أغلبية خلافاً للوضع داخل مدينة القدس نفسها، حيث كان لليهود هناك أغلبية، وعلى ذلك قصد بن غوريون لواء القدس، وليس مدينة القدس نفسها. (39)

لم يستمر موقف بن غوريون السابق من القدس طويلاً، فقد تراجع وذلك أمام المعارضة الشديدة لآرائه من معظم زعماء الحركة الصهيونية، ففي نقاش داخلي

المناطق المجاورة لها، وقامت اللجنة بتحديد هذه المنطقة جغرافياً بحيث تمتد حدودها من نقطة شمال القدس إلى نقطة جنوب بيت لحم، وييسر لها الاتصال بالبحر بواسطة ممر يمتد من القدس إلى يافا شمالاً بين مدينتي اللد والرملة. على ألا يسري على هذه المنطقة ما جاء في تصريح بلفور، وتكون اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية الوحيدة لها. (31)

وجاءت حجة اللجنة في إبقاء منطقة القدس تحت سيادة سلطة دولة الانتداب لكونها منطقة مقدسة، ويجب المحافظة على قدسيتها، وتأمين الوصول إليها بحرية وطمأنينة من كافة أنحاء العالم، وأضافت أن هذه المهمة هي أمانة مقدسة في عنق الحضارة العالمية. (32) ثم أضافت اللجنة، أن الأماكن المقدسة في فلسطين خاصة مدينة القدس، بوضعها تحت سلطة الانتداب، سيزيل جميع ما يساور البعض من قلق وخوف أن تصبح الأماكن المقدسة في يوم من الأيام تحت سيطرة اليهود. (33)

لقد عبر قادة الحركة الصهيونية عن موقفهم إزاء ما طرحته اللجنة الملكية بخصوص مدينة القدس، وذلك من خلال المؤتمر الصهيوني العالمي الذي شاركوا فيه في مدينة زيورخ والذي عقد في الفترة الواقعة في الثالث من أغسطس 1937م واستمر حتى السادس عشر منه. (34)

فقد أحدث تقرير اللجنة الملكية تجاه مدينة القدس، نقاشاً وخلافاً حاداً بين صفوف الحركة الصهيونية، فقد تصاعد العديد من الأصوات الرافضة لذلك التقرير وما جاء فيه بخصوص القدس، وكان على رأس أولئك الرافضين زعيم حركة التصحيحيين الصهاينة "فلاديمير جابوتنكس" والذي قال: «لا دولة يهودية بدون صهيون، وأن ما وضعته اللجنة بخصوص القدس يعتبر انتصاراً للإرهاب العربي وأضاف كيف السبيل لطمأنة اليهود في العالم، وأنه لو أقسمنا بأغلظ الأيمان على قناعتنا بهذا الممنوح لنا من أرض إسرائيل فإن ذلك يعتبر كذبة كبيرة. (35)"

كذلك عارض الخطة الصهيوني "مناحم يوسشكين، وقال: «إن المشرع لم يقدم

وهو الحل القائم على أساس تقسيم مدينة القدس - الجزء الشرقي، الذي يقوم في أساسه على الأماكن المقدسة، والجزء الغربي الذي يقوم في أساسه على المدينة العبرية الجديدة، وتزعم هذه الخطة بن غوريون، بحيث رأى أن السيطرة على مدينة القدس الشرقية ذات الأماكن المقدسة، سيحملهم متاعب كثيرة في هذه المرحلة، ولن يستطيع اليهود تقسيم القدس حسب صورتها وروحها التي يراها الصهاينة، ولذا فقد أراد بن غوريون بصورة واضحة في هذه المرحلة على الأقل، التخلص من عبء الأماكن المقدسة، والبقاء على القدس الغربية العبرية الخالية من الثقل التاريخي والديني والسياسي المسيطر على الجزء الشرقي من المدينة. (45)

وفي حزيران 1937م، بعث بن غوريون رسالة من لندن إلى رفاقه، أوضح من خلالها الموقف النهائي من مسألة التقسيم في القدس، وخلاصته، أن التقسيم هو من مصلحة اليهود في القدس، ولقد جرى تبني هذا الموقف من قبل الزعامة الصهيونية خلال هذه المرحلة. (46)

أمام هذا التباين في الآراء بين زعماء الحركة الصهيونية تجاه وضع مدينة القدس، توصل المجتمعون في المؤتمر إلى حل وسط، تبنوا من خلاله الفكرة القائمة على أساس تقسيم القدس إلى قسمين، شرقي يخضع تماماً للسيطرة البريطانية، وغربي يبقى عاصمة للدولة الصهيونية، وخرجوا في نهاية المؤتمر بخطة جديدة قاموا بعرضها على بريطانيا.

كان من أهم ما جاء في تلك الخطة، تقسيم المدينة بين الدولة اليهودية المقترحة، ومنطقة الانتداب الخاضعة لبريطانيا، بحيث يكون جبل سكوبس والقدس الغربية تحت السيطرة الصهيونية، أما القدس الشرقية والواقعة داخل السور، فتؤول إلى سلطة الانتداب البريطاني، مع وضع الأماكن المقدسة في القدس الشرقية تحت وصاية دولة الانتداب كراعٍ دولي، وحددت الخطة توجهات الحركة الصهيونية تجاه

حول التقسيم في نيسان1937م، قال لأعضاء حزبه: "إنه لا يعتقد بأن أحداً في (ماباي) سيؤيد خطة تقسيم، تخرج القدس من حدود السيادة اليهودية. [40]

كما تراجع "حاييم وايزمن" عن آرائه السابقة التي كانت ترى أن لا ضرورة لدولة يهودية تكون القدس عاصمة لها، وذكر "أنه لا منطق في دولة يهودية بدون مدينة القدس. [41]"

لذلك نجد أن وايزمن ومن خلال المؤتمر الصهيوني السابق، طالب بأن تكون الأحياء اليهودية في القدس بما فيها سكان قدرهم بنحو سبعين ألف نسمة ضمن الدولة اليهودية. [42]

ورأى في فصل القدس الحديثة عن الدولة اليهودية هو ظلم لكليهما، فعوضاً عن الخسارة الروحية والسياسية التي ستنتج عن خروج القدس من الدولة اليهودية، فإن هناك خسارة أخرى من حيث عدد السكان والمركز الاقتصادي والقدرة على فرض الضرائب، الذي سيأتي من خلال هذا الوضع. [43]

بالرغم من هذا الموقف المتشدد من قبل زعماء الحركة الصهيونية تجاه خطة التقسيم وإخراج مدينة القدس من الدولة اليهودية، فقد ظهر العديد من زعماء الحركة الصغار الذين أيدوا وجهة نظر كلٍّ من وايزمن وبن غوريون السابقة، والقائلة إنه يجب الحصول على دولة يهودية مهما كان الثمن باهظاً حتى ولو بدون مدينة القدس، أمثال (بنحاس روتنبرغ) الذي قام بإنشاء شركة الكهرباء، و(إبراهام كتسنلسون) عضو اللجنة القومية الصهيونية. [44]

لهذا وجد الزعماء المؤيدون لفكرة التقسيم بدون القدس، أن المطالبة بالقدس كلها في تلك المرحلة ليست مطالبة واقعية، وأنها ليست مجدية، فمن يطمع في كل شيء قد يخسر كل شيء، ورأوا في هذه المطالبة نوعاً من المبالغة السياسية، سيتبعها الكثير من النتائج السياسية خاصة أنه سيكون هناك ردة فعل إسلامية مسيحية بريطانية لا يمكن تجاهلها. لهذا يجب اللجوء إلى حل وسط يجنبهم هذا الموقف،

العربي بكاملها، لوافق الصهاينة عليها؛ لأنهم كانوا يؤمنون في حينها أنه يجب الحصول على أي شيء يمكنهم من فلسطين، ومن ثم السيطرة التدريجية على كامل هذه المنطقة وصولاً للقدس كاملة.

إلا أن الرفض العربي للخطة وكذلك وصول بريطانيا إلى نتيجة مفادها عدم إمكانية تطبيقها على أرض الواقع؛ نظراً للعديد من المشكلات أدي إلى تراجع بريطانيا عنها في النهاية، مما مثل ضربة قاصمة للأحلام والأطماع الصهيونية في هذه المرحلة.

تجددت الآمال الصهيونية بقدوم لجنة بريطانية جديدة مهمتها العمل على تطبيق ما جاء من توصيات في تقرير لجنة (بيل) الملكية على أرض الواقع.

ولكن سرعان ما تلاشت الآمال الصهيونية، وذلك عندما أوصت لجنة وودهيد الفنية 1938م باستحالة تطبيق ما جاء في لجنة (بيل) الملكية على أرض الواقع؛ نظراً للمشكلات الجمة التي تواجه تطبيقها - كان من أهمها مشكلات فنية.

وعلى أثر قيام لجنة وودهيد الفنية برفض مقترحات اللجنة الملكية، قامت لجنة وودهيد بوضع مشروع جديد لتقسيم فلسطين ابتعد كثيراً عما وضعته اللجنة الملكية، ولكنهما اتفقتا حول مصير مدينة القدس.

فقد اقترحت لجنة وودهيد تقسيم فلسطين إلى ثلاثة أقسام: القسم الشمالي – القسم الجنوبي – القسم الأوسط.

أما ما يخص القسم الأوسط، فاقترحت اللجنة تقسيمه إلى ثلاثة كيانات سياسية رئيسة، القسم الأول: (دولة عربية)، القسم الثاني: (دولة يهودية)، والقسم الثالث: (منطقة القدس) واقترحت اللجنة أن يبقى القسم الثالث تحت سلطة دولة الانتداب البريطاني.[48] على أن تشمل منطقة القدس أو القسم الثالث، كل الأماكن المقدسة في مدينة القدس، وبيت لحم ومنطقة الناصرة، وقامت اللجنة برسم الحد الجغرافي للمنطقة، بحيث تبدأ من نقطة شمال القدس إلى نقطة جنوب بيت لحم، وأن يهيأ

المدينة في المراحل اللاحقة وهي على النحو الآتي:

1. إن الحركة الصهيونية لن تتنازل عن القدس كعاصمة للدولة اليهودية.
2. بدون القدس لن يكون هناك فرصة لأن يؤيد اليهود فكرة التقسيم.
3. ينبغي الفصل بين الأماكن المقدسة في شرقي المدينة وبين الجزء الغربي من المدينة، هذا الفصل يجب أن يكون إقليمياً والأهم من ذلك مبدئياً.
4. لا مناص من إشراف بريطاني دولي، وليس الإشراف العربي على شرقي المدينة.
5. بدون حد إقليمي يربط بين القدس وتل أبيب، فإن السيادة اليهودية في غرب القدس ستكون صعبة التطبيق.
6. إن سكان القدس من اليهود أياً كانوا سيكونون مواطني الدولة اليهودية.
7. إن هذه المبادئ الستة ستكون هي المنهج والخطة الرئيسة للحركة الصهيونية تجاه مدينة القدس في كل المناقشات حول مصير هذه المدينة في المستقبل. [47]

عموماً فإن المؤتمر الصهيوني العشرين، الذي عقد في مدينة زيورخ عام 1937م، لم يرفض في الحقيقة مبدأ التقسيم، إلا أنه لم يقبل مشروع اللجنة كما هو عليه خاصة فيما يتعلق بمدينة القدس.

وفي اعتقادي أن الموقف الصهيوني من خطة لجنة (بيل) شابَهُ بعض الغموض المقصود كعادتهم في مثل هذه المواقف، ففي الواقع أنهم وجدوا في خطة التقسيم البريطانية ومنحهم موضع قدم على أرض فلسطين بمنحهم قسماً منها يقيمون عليه دولتهم التي طالما حلموا بها إنجازاً عظيماً في هذه المرحلة، ولو أن بريطانيا أصرت على موقفها من خطة لجنة (بيل) للتقسيم، وقامت بتطبيقها كما هي لما رفضها الصهاينة بالرغم من أنها تخرج مدينة القدس من دولتهم المزعومة، فالمعارضة كانت مجرد تكتيك سياسي، وليست مبدأية قائمة على أساس عقائدي، ولكن الصهاينة كعادتهم يحبون المناورة للحصول على أرباح ومكاسب أخرى، خاصة أن المانح لا يبخل عليهم بشيء. وأرى أنه حتى لو منحت اللجنة مدينة القدس للجانب

القدس اليهودية الجديدة وضواحيها (منطقة جبل سكوبس، والجزء الغربي خارج الأسوار في الدولة اليهودية. [51] بحيث يمتد خط الحدود حتى يحيط بالجامعة العبرية، بممر يصلها بالسهل الساحلي، جنوب يافا مع العلم أن اللجنة أوضحت أن هذه المنطقة يبلغ عدد سكانها 74500 نسمة تقريباً منهم 17000 من اليهود فقط، أما الممر فمعظم سكانه من العرب، وبينهم عدد قليل من اليهود. [52] وهي منطقة تقع بجوار المدينة القديمة من الشمال والغرب، وهي تتاخم أيضا مقبرة مأمن الله الإسلامية، وتضم في حدودها عدداً من الكنائس والمستشفيات والمدارس المسيحية ومقبرة للجنود البريطانيين، وتضم قسماً من الطريق العام الذي يربط القدس بمنطقة السهل الساحلي، كما يصل قسم آخر من هذه الطريق إلى منطقة اللطرون.[53]

أمام هذه المطالب الصهيونية التي تم تقديمها إلى لجنة وودهيد الفنية، لم تجد تلك اللجنة حلاً لهذه المدينة المقدسة، إلا أن تضعها من جديد تحت سيطرة الانتداب البريطاني كما اقترحت لجنة (بيل) الملكية؛ لأنها وجدت أنه من المستحيل بمكان إدخالها تحت السيطرة اليهودية؛ نظراً لما تمثله هذه المدينة من أهمية خاصة للإسلام والمسلمين، وفي إطار تفنيدها ورفضها للمطالب الصهيونية بخصوص المدينة، ذكرت اللجنة.

- أن هناك العديد من الصعوبات الدينية والسياسية التي ستنشأ عن تقسيم مدينة القدس، وهي في اعتقادها أشد خطورة من الصعوبات الإدارية، فالحرم الشريف الذي يقع داخل مدينة القدس يعتبر ذا قدسية خاصة ومهمة لدى المسلمين. ويقع في المنطقة نفسها حائط البراق، وهو المكان الذي ربط فيه البراق الذي عرج به الرسول إلى السماء وما تزال ساحة الحرم الشريف، والأبنية القائمة عليها حتى اللحظة ملكاً للمسلمين منذ عدة قرون، وتعد هذه المناطق من أغلى وأهم الممتلكات للعالم الإسلامي، لهذا رأى أعضاء اللجنة أن إلحاق أي قسم من القدس للدولة

لها أمر الاتصال بالبحر، بواسطة ممر يمتد إلى شمال الطريق العامة وإلى جنوب السكة الحديدية، ويشمل مدينتي اللد والرملة، وينتهي في يافا.[49]

إذن قررت لجنة وودهيد وضع منطقة القدس تحت السيطرة البريطانية من جديد، ولم تغير من واقعها شيئًا، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رفضت مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين كما اقترحت لجنة (بيل) الملكية، مما مثل ضربة قاسمة لأحلام الصهاينة كما ذكرنا في السابق، بالرغم من قيام الصهاينة بتشكيل لجنة فرعية خاصة تعنى بشئون القدس، والتي قامت منذ وصول لجنة وودهيد إلى فلسطين بتقديم مقترحاتها ورؤيتها الخاصة حول مدينة القدس والتي كانت قائمة على أساس الأفكار التي سبق وأن توصل إليها المؤتمر الصهيوني العشرون في زيورخ، وهي تقسيم المدينة إلى قسمين، يهودي يكون عاصمة لدولتهم، وعربي يبقى تحت سلطة دولة الانتداب، وممر إقليمي متواصل من المدينة اليهودية إلى تل أبيب، ثم قامت اللجنة الفرعية الصهيونية، بطرح تفاصيل جديدة حول مدينة القدس، تمثلت في رؤيتها حول حدود المدينة والحياة اليومية فيها، واعتمدت الخطة الصهيونية الجديدة التي تم تقديمها للجنة وودهيد على نقطتين رئيستين.

الأولى: تقول بضرورة أن تكون هناك غالبية صهيونية بارزة في الجزء اليهودي من مدينة القدس، وتحقيقاً لهذا الفرض، فقد تخلت الوكالة اليهودية عن ضواح يهودية منقطعة عن الكتلة اليهودية الرئيسة في القدس.

الثانية: قالت إنه يجب تشجيع بريطانيا على توسيع حدود سلطتها في القدس الكبرى، على حساب المنطقة المخصصة للدولة العربية، وفي هذا السبيل اقترحت الوكالة اليهودية، أن تكون منطقة الخليل، والشاطئ الغربي للبحر الميت ومدينة رام الله مشمولة كلها في حدود سلطة الانتداب البريطاني في القدس الكبرى، وفي الوقت نفسه رفضوا كليًّا استمرار سلطة الانتداب البريطاني على شرقي المدينة.[50]

- كما اقترحت اللجنة الفرعية الصهيونية على لجنة وودهيد، إدخال مدينة

ومما زاد الطين بلة في هذه المرحلة، ارتباط الصهيونية بالولايات المتحدة الأمريكية وأصبحت هذه الدولة الجديدة الثور الذي يجر العربة الصهيونية بدلاً من بريطانيا، وتمادى الرئيس الأمريكي "هاري ترومان" إلى أبعد الحدود في دعمه للصهيونية العالمية.

ونجح الصهاينة في عقد مؤتمرهم العالمي في دورة استثنائية في فندق بلتيمور بمدينة نيويورك في 11مايو 1942-م، حيث تقرر من خلاله وبدعم أمريكي، جعل فلسطين لليهود فقط والعمل على إخراج العرب منها، والعمل بكل جهد مستطاع لتهويد فلسطين بكاملها. [56]

وقد وصل الدعم الأمريكي في هذه المرحلة للصهيونية إلى درجة أن يتسابق رؤساء أمريكا المتنافسين على السلطة في إرضاء اليهود، وأن يوقع خمسة آلاف قسيس بروتستانتي أمريكي في فبراير 1945م، عريضة رفعوها للحكومة الأمريكية والكونجرس يطالبون فيها بفتح أبواب فلسطين على مصراعيها للهجرة اليهودية، وأن يقع مؤلفو قاموس "وستمنستر" للكتاب المقدس بأنها وهم من رجال اللاهوت، في خطأ التضليل الفاحش، حين يعرفون بالقدس عاصمة يهودا المقدسة وعاصمة اليهود في جميع أنحاء العالم. [57]

وبلغ ذروة التدخل الأمريكي في المشكلة الفلسطينية خلال هذه المرحلة، من خلال اللجنة الأنجلو أمريكية 1946م والتي رسخت ومكنت للسيطرة الصهيونية على فلسطين، والتي انبثق منها ما سمي فيما بعد بمشروع موريسون - جرايدي - أو نظام المقاطعات 1946م.

هذا المشروع الذي نص على تقسيم فلسطين من جديد بناءً على رغبة الصهاينة، بحيث نص المشروع على تقسيم فلسطين إلى العديد من المقاطعات العربية واليهودية والبريطانية. أما القدس، فنصمم على بقائها تحت الإدارة البريطانية. [58]

وبهذا لم يختلف هذا المشروع بالنسبة للقدس عن المشاريع البريطانية السابقة

اليهودية المقترحة وفقاً لخطة التقسيم، سيؤدي لا محالة إلى أشد أنواع العنف.[54]

- لقد واجه الشعب الفلسطيني مشروعي لجنة بيل الملكية ولجنة وودهيد الفنية بكل قوة، فقام الشعب الفلسطيني بالعديد من الثورات والمظاهرات وأعمال المقاومة ضد المصالح البريطانية والصهيونية داخل فلسطين، وقد شهدت هذه المرحلة تطورا نوعيا في أعمال المقاومة ,فقد تم قتل حاكم منطقة الجليل البريطاني ومرافقيه وتدمير العديد من المخافر البوليسية والمعسكرات البريطانية، وتفجير العديد من أنابيب البترول، ونسف العديد من خطوط السكك الحديدية والجسور.

كما يتضح لنا, رفضت لجنة وودهيد الفنية البريطانية، كل المطالب والمزاعم الصهيونية في مدينة القدس، رفضاً مبرراً بالحقائق والوثائق والأسانيد السياسية والدينية. مما خلق نوعاً من الصدام والتوتر بين الحركة الصهيونية وبريطانيا في هذه المرحلة، خاصة أن الحكومة البريطانية وافقت على مقترحات لجنة وودهيد ورفضت مبدأ تقسيم فلسطين كما ذكرنا سابقاً.

الاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس في المرحلة (1942م - 1949م)

على الرغم من الفشل الصهيوني في حمل بريطانيا على تأييد مشروع تقسيم فلسطين، نجد أن محاولاتهم في هذا الاتجاه لم تتوقف، فقد استفاد الصهاينة من وقوع الحرب العالمية الثانية (1939م – 1945م). عندما بالغوا وهولوا فيما أسموه المذابح النازية ضدهم، واستطاعوا خلال هذه المرحلة كسب عطف العالم الغربي للسماح لهم بالهجرة إلى فلسطين، وذلك في إطار حل للمشكلة اليهودية هناك، فقد ارتفع معدل الهجرة الصهيونية في هذه المرحلة إلى درجات كبيرة جداً، فبعد أن كان عدد المهاجرين في أوائل مرحلة الانتداب لا يزيد على تسعة آلاف في السنة، ارتفع إلى اثنين وستين ألفاً عام 1935م وزاد في أثناء الحرب العالمية الثانية بدرجات أكبر.[55]

المنظمة ستخدم المصالح الصهيونية وأهدافها أكثر بكثير منها في هذه المرحلة.

دخلت قضية فلسطين لأول مرة أروقة هيئة الأمم المتحدة التي أنشئت عام 1945م. وهي المؤسسة التي جاءت على أنقاض المؤسسة السابقة عصبة الأمم المتحدة.

فقد عقدت الجمعية العامة التابعة لهيئة الأمم المتحدة دورة استثنائية للنظر في القضية الفلسطينية بناءً على طلب بريطانيا، في شهر مايو1947م، واتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم (106) الذي تم بموجبه تأليف لجنة دولية خاصة لفلسطين، تم إرسالها إلى فلسطين بتاريخ 15 أيار 1947 م، وكلفت اللجنة النظر في القضية وإعداد تقرير بشأن الحل المناسب لها وتقديمه للجمعية العامة في دورتها العادية المقبلة، وبالفعل قامت اللجنة بزيارة فلسطين وإعداد التقرير، الذي أوصت من خلاله بضرورة تقسيم فلسطين إلى دولتين، إحداهما عربية، والأخرى يهودية، كما أوصت بأن توضع مدينة القدس، تحت "حكم دولي خاص". وفي 29 نوفمبر 1947م، نظرت الجمعية العامة في دورتها الثانية في مشروع اللجنة وبعد مناقشات مستفيضة، أصدرت قرار 1 يحمل رقم 2/181 وهو القرار الخاص بخطة تقسيم فلسطين، ومما جاء في الجزء الثالث من القرار "أن مدينة القدس لها كيان منفصل، خاضع لنظام دولي خاص، بحيث تتولى الأمم المتحدة إدارتها، ويعين لها مجلس وصاية؛ ليقوم بأعمال السلطة القائمة نيابة عن الأمم المتحدة. وذكر القرار أن حدود القدس، تشمل مدينة القدس، مضافاً إليها القرى والبلدات المجاورة، أبعدها شرقاً أبو ديس، وأبعدها جنوباً بيت لحم، وأبعدها غرباً عين كارم، وتشمل المدينة المنطقة المبنية من قرية قالونيا، وأبعدها شمالاً شعفاط. على أن ينشأ مجلس وصاية للمدينة، تكون مهمته وضع دستور مفصل للمدينة يتضمن جوهره الأحكام الآتية:

1. الإدارة الحكومية، مقاصدها الخاصة، وعلى السلطة القائمة بالإدارة أن تتبع في أثناء قيامها بالتزاماتها الإدارية الأهداف الآتية:

ا. حماية المصالح الروحية والدينية الفريدة الواقعة ضمن مدينة الأديان

(لجنتي بيل وودهيد) ولم يأتِ بأي جديد بخصوصها.

رفض الصهاينة ما جاء في مشروع موريسون - جرايدي - وقام بن غوريون، في الاجتماع الطارئ للإدارة الموسعة للوكالة اليهودية في باريس في أغسطس 1946م، بوضع خطة عامة للقدس وفلسطين، بأن تمنح منطقة القدس الصفة الدولية. وبهذا سيكون بمقدور القدس أن تكون جزءًا من تسوية شاملة تتعلق بالأماكن المقدسة كلها في أرض فلسطين، أو أن ترث هيئة الأمم المتحدة مكان بريطانيا السيطرة على منطقة القدس.[59]

يمكن القول إن اقتراح بن غوريون الأخير بخصوص القدس لم يأتِ من فراغ، فقد رفض العرب مشروع موريسون جرايدي رفضاً تاماً وأبدوا استعدادًا كاملاً لمقاومته بكل الوسائل هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فمشروع موريسون جرايدي، لم يأتِ بجديد عن المشاريع البريطانية السابقة بخصوص القدس، بل على العكس فالمشروع قلص كثيراً من مساحتها وأخرجها نهائيا من الدولة اليهودية. ومن ناحية ثالثة أصبح اليهود في هذه المرحلة من القوة والمكانة ما كانت تمكنهم من السيطرة على معظم فلسطين وذلك أمام الدعم الأمريكي البريطاني اللامحدود خلال هذه المرحلة والذي ظهر وبشكل واضح عندما عرضت القضية الفلسطينية أمام هيئة الأمم المتحدة عام 1947م. لهذا وجد بن غوريون أن توضع القدس بكاملها تحت الإدارة الدولية، أفضل بكثير من تقسيمها أو إدخالها تحت إدارة سلطة دولة الانتداب البريطاني، وبذلك ينجح في انتزاع أجزاء مهمة جداً من القدس الشرقية من السيطرة العربية الإسلامية على الأقل في هذه المرحلة.

أمام الرفض العربي والصهيوني لمشروع موريسون - جرايدي ، وأمام عجز بريطانيا من إيجاد حل مناسب للقضية الفلسطينية يرضي جميع الأطراف، وأمام التواطؤ البريطاني الواضح لصالح الأهداف الصهيونية، قررت بريطانيا في النهاية التخلي عن القضية لصالح هيئة الأمم المتحدة، لعلمها الأكيد بوجود دول في هذه

بتقسيم القدس، وهذه المرة يكون التقسيم بين الأمم المتحدة وبين الدولة اليهودية.

الثالث: في حالة إصرار هيئة الأمم على تدويل المدينة، يجب المطالبة بتوسيع المنطقة الدولية على حساب الدولة العربية. (62)

وأمام هذا التضارب الصهيوني تجاه المدينة، سارع بن غوريون إلى نقل آرائه بخصوص القدس إلى الوفد الصهيوني هناك، والقائمة على أساس ضرورة الإصرار على أن سكان القدس اليهود يجب أن يكونوا جميعاً مواطني الدولة اليهودية حتى في حالة أن أصبحت المدينة دولية، وأنه يجب عدم تمكين العرب من أن تكون لهم سلطة حتى ولو جزئية على المدينة. (63)

وفي الخامس عشر من نوفمبر 1947م، وقبل نحو أسبوعين من الاقتراع الحاسم في الجمعية العامة على مشروع اللجنة الخاصة، طرح وللمرة الأولى «شرتوك» الموقف الصهيوني الجديد، بخصوص مدينة القدس، وهو الموقف الذي قدم إلى إحدى اللجان الفرعية التي كانت تناقش مقترحات اللجنة الخاصة، وهو الموقف الذي استند إلى النقاط الآتية:

أولاً: طالب شرتوك بأن يكون النظام الدولي لمدينة القدس نظاماً مؤقتاً ومحدداً مسبقاً بزمن معين، بحيث يجري في نهاية هذه المدة استفتاء حول مستقبل السلطة هناك. كما طالب بحق الهجرة الحرة إلى المنطقة الدولية في القدس من خلال الافتراض والأمل بأن غالبية المهاجرين سيكونون من اليهود.

ثانياً: لقد حاول شرتوك أن يحد من سلطة الأمم المتحدة المستقبلية للسيطرة على مدينة القدس، ومحاولة ترسيخ السلطة الصهيونية داخلها، لذلك طلب شرتوك أن تتولى إدارة شئون المدينة مجموعة من ممثلي الدول الأعضاء في الأمم المتحدة مناصفة مع الدولة الصهيونية والدولة العربية، على أن تقوم هذه الهيئة بوضع صفة النظام الذي سيدير القدس.

ثالثاً: لم يمانع شرتوك في هذه المرحلة بالعمل على فصل المدينة غربيها عن

التوحيدية الكبيرة الثلاث المنتشرة في العالم.

اا. تعزيز روح التعاون بين سكان المدينة جميعهم.[60]

لقد حاول الصهاينة قبل صدور القرار من الجمعية العامة التأثير في أعضاء لجنة التحقيق الخاصة بفلسطين، وطرحوا العديد من الأفكار على تلك اللجنة عند بداية عملها داخل فلسطين، ومن أهم تلك الأفكار، الأفكار التي طرحها رئيس الوكالة اليهودية في حينه، "ديفيد بن غوريون" والتي تعود في أصلها إلى عام 1937م، والتي تقوم على أساس الفصل بين الأماكن المقدسة شرقي المدينة وبين غربي مدينة القدس، وأضاف بن غوريون فكرة جديدة إلى هذه الفكرة القديمة، وهي الفصل المبدئي الوظيفي فقط، وليس الفصل الإقليمي بين المنطقتين، وحاول إدخال مناطق مقدسة أخرى داخل فلسطين في هذه الفكرة ذاكراً "أن جميع الأماكن المقدسة بما في ذلك الموجودة في القدس تتطلب ترتيباً دولياً خاصاً، وعليه فإن كل صاحب مصلحة دينية، مسيحية - إسلامية - يهودية، يستطيع أن يتمتع بحرية العبادة، وأن كافة المناطق في فلسطين مفتوحة للتفاوض استعداداً للتقسيم.[61]

يبدو أن محاولة بن غوريون تلك كانت محاولة خبيثة، فهو يريد أن تصبح القدس وحدة واحدة لا تتجزأ من الناحية السياسية، على أن يكون الفصل في المسائل المدنية والإدارية فقط، على أمل أن تمنح اللجنة الدولية القدس بهذا المفهوم للدولة الصهيونية.

وعشية المناقشات في الجمعية العامة بعد رفع اللجنة تقريرها، طلب "شرتوك" ممثل اليهود في الأمم المتحدة، من إدارة الوكالة اليهودية في القدس، بعض الردود والتوجيهات بخصوص موضوع القدس، وطرح «شرتوك» ثلاثة تصورات لا بديل لها بخصوص التصور الصهيوني لوضع مدينة القدس، ومنها:

الأول: قبول توصية لجنة التحقيق نصاً وروحاً أي القدس الكبرى كمنطقة دولية.

الثاني: الإصرار على المطلب الصهيوني الذي يعود إلى عام 1937م والقاضي

مستقلة على أرض فلسطين، ولا يوجد أي مبرر حتى ولو أدى ذلك إلى خروج القدس من هذه الدولة إلى رفضه، خاصة أن قرار تدويل القدس جاء كجزء لا يتجزأ من قرار التقسيم. [65]

فقد اعتبرت الوكالة اليهودية هذا القرار بمثابة انتصار كبير للسياسة الصهيونية على مدى القرون السابقة، وأن المشروع يعد مكسباً لهم على المدى الطويل باعتبار أن قرار تدويل منطقة القدس هو قرار مؤقت مدته عشر سنوات فقط، ثم سيعاد النظر فيه بعد انقضاء هذه المدة، وسيكون لسكان هذه المنطقة دورٌ رئيسٌ في تحديد مصيرها، لهذا رأت الوكالة اليهودية أن عامل الوقت سيكون لصالح اليهود في المدينة، وذلك عن طريق العمل خلال هذه المدة وبجهد كبير لزيادة عدد سكانها من اليهود ومن ثم السيطرة عليها. [66]

إلى جانب ذلك فقد كان هناك من الصهاينة من وجد في مشروع قرار التدويل، وإخراج مدينة القدس من تحت السيطرة الصهيونية، بمثابة ضربة قاسمة لتطلعاتهم وأطماعهم في هذه المدينة، والتي عملوا من أجل تحقيقها منذ سنوات خلت، فقد ذكر "دوف جوزيف" المتحدث باسم المجتمع الصهيوني في مدينة القدس "كنا نأمل أن تكون مدينة القدس في النهاية جزءًا من الدولة اليهودية، كنا نعتقد أن ذلك ممكن؛ لأننا نمتلك أغلبية سكانية واضحة فيها، أما الآن وبعد هذا القرار فإننا لا نستطيع أن نتوقع ماذا سيحدث خلال السنوات العشر القادمة. [67]" كذلك عارض هذا المشروع كلٌّ من "غولدا مئير" وهي أحد زعماء حزب الماباي، والحاخام "فيجمين ميمون" وموشى شابيرا من حزب همزراحي." [68]

بالرغم من تباين الآراء الصهيونية حول قرار الجمعية العامة تدويل منطقة القدس، نجد أن هذه الآراء، عادت واتفقت في النهاية على قبول مبدأ التقسيم وتدويل المدينة، فبعد مناقشات مستفيضة، تغلب الرأي الصهيوني القائل، إن هذا القرار هو أول قرار دولي يمنح الحركة الصهيونية ويهود العالم دولة معترفًا بها على

شرقيها إلا أنه طالب بأن يكون ذلك الفصل بلدياً وظيفياً فقط وليس إقليمياً جغرافياً على أن تبقى البلدة القديمة تحت مسئولية الأمم المتحدة، في حين يقوم اليهود والعرب بالاشتراك في إدارة هذا الجزء وفقاً للمعايير السكانية.[64]

عموماً لم تنجح المحاولات الصهيونية في إقناع أعضاء اللجنة الدولية أو حتى أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة، في قبول تصورهم تجاه مدينة القدس، وكما سبق أن ذكرنا، قررت اللجنة الخاصة وكذلك الجمعية العامة في توصيتها رقم 2/181 جعل مدينة القدس بكاملها منطقة دولية تدار من قبل هيئة الأمم المتحدة، وهو ما مثل فشلاً ذريعاً للاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس في هذه المرحلة وضربة قاصمة لتطلعاتهم تجاه المدينة.

في اعتقادي أن هذا الفشل كان نابعاً من تخبط القيادة السياسية الصهيونية في هذه المرحلة، في وضع استراتيجية موحدة تجاه مدينة القدس، وقد ظهر هنا التخبط بشكل واضح وجلي خلال طروحاتهم المستقبلية لمدينة القدس أمام لجنة التحقيق الدولية. كذلك لعب الموقف الفلسطيني الموحد والموثق تجاه مدينة القدس أمام لجنة التحقيق دوراً رئيساً في عدم اقتناع لجنة التحقيق بالمزاعم الصهيونية تجاه المدينة. إلى جانب أن بعض الدول الأعضاء في اللجنة كان لها أطماع شخصية في هذه المدينة، خاصة تلك الدول التي كانت تتأثر بالمذهب الكاثوليكي التابع للبابوية المسيحية، والتي رأت في تدويل المدينة ما يمنحها فرصة في إيجاد موضع قدم في إدارتها والسيطرة عليها.

جاء الموقف الصهيوني من قرار الجمعية العامة بتدويل مدينة القدس مشابهاً إلى حد كبير المواقف السابقة عام 1937م – 1938م – 1946م، فقد انقسمت الآراء بينهم بين معارض للقرار وبين مؤيد له.

أما المؤيدون للقرار، وعلى رأسهم بن غوريون، والوكالة اليهودية، فقد وجدوا فيه فرصة لن تتكرر على الإطلاق، فالقرار يعتبر أول اعتراف دولي لهم بإقامة دولة

جمعية الصليب الأحمر السويدية.(71)

وبالفعل بدأ الكونت برنادوت ممارسة عمله وتوجه إلى فلسطين، وبدأ اتصالاته مع الفرقاء، وبعد مداولات ومناقشات مستمرة، قام الكونت برنادوت في أوائل سبتمبر1948/م بوضع مشروع للحل السلمي داخل فلسطين تضمن النقاط الآتية:

- الانتقال من مرحلة وقف القتال إلى تحقيق هدنة دائمة.
- تقسيم فلسطين إلى دولتين كما جاء في قرار الجمعية العامة رقم 2/181.
- أما منطقة القدس فتبقى ضمن القسم الذي يشمل الدولة العربية مع توفير حكم ذاتي بلدي للجالية اليهودية في المدينة، وضمان الوصول إلى الأماكن المقدسة فيها.(72)

وبذلك يكون الكونت برنادوت قد أقر أن مدينة القدس جزء لا يتجزأ من الدولة العربية. كان لاقتراح برنادوت السابق جعل مدينة القدس من ضمن الدول العربية وقع الصدمة على الحركة الصهيونية وزعمائها، ومثل ضربة موجهة لكل تطلعاتهم، خاصة بعد أن وافقوا على قرار تقسيم فلسطين وتدويل المدينة، لذلك رفضوا رفضاً تاماً مشروع الكونت برنادوت وقرروا مقاومته بالقوة.

وفي معرض رد الحركة الصهيونية على مقترحات الكونت برنادوت بشأن القدس، قام "موش شاريت " الذي كان يمثل في حينها وزير خارجية دولتهم المزعومة، بإرسال مذكرة إلى الوسيط الدولي بتاريخ 5 يوليو 1948م كان من أهم ما جاء فيها "أن حكومة إسرائيل قد أصيبت بجرح عميق في كرامتها من جراء ما اقترحت بشأن مدينة القدس، واليهود يعتبرون اقتراحك بمثابة كارثة لهم، وأن فكرتك القائمة على أساس ضم مدينة القدس للدولة العربية، إنما هي فكرة من يتجاهل تاريخ وحقائق هذه القضية، وحقائق تاريخ اليهود المتعلق بالقدس، ومكانة القدس في تاريخ اليهود القديم وفي حياتهم الحاضرة.. وتريد حكومة إسرائيل أن تعلن لك أنه لا الشعب اليهودي ولا حكومة إسرائيل، ولا يهود القدس، يقبلون بأي حال وضع القدس تحت

أرض فلسطين، وهو أمر لا يمكن معه الرفض، خاصة أن القرار منح الصهاينة العديد من الامتيازات داخل المدينة، كان من أهمها حرية الهجرة إليها، وحرية كاملة في الأمور المتعلقة بالفرد كالتعليم والثقافة والعبادة الدينية، الأمر الذي يتفق والتطلع الصهيوني لجعل مدينة القدس خلال العشر سنوات القادمة مركزاً روحياً وثقافياً للشعب اليهودي بأكمله.(69)

كما ذكرنا قبل الصهاينة قرار الجمعية العامة رقم 2/181 أما العرب فقد رفضوا هذا القرار وقرروا منع تطبيقه على أرض الواقع بالقوة.

فقد شكل الشعب الفلسطيني في هذه المرحلة قوات عسكرية أطلق عليها اسم قوات الجهاد المقدس، وقد خاضت هذه القوات معارك طاحنة مع الصهاينة، ولعبت دورا رئيسًا في سير القتال، وحققت العديد من النتائج على الأرض.

فقد قررت الحكومات العربية في حينه بالاشتراك مع الجامعة العربية، دخول جيوشها إلى فلسطين بمجرد انتهاء الانتداب البريطاني عليها ليلة 15مايو 1948م، وبالفعل تدخلت الجيوش العربية وفرضت حصاراً برياً وبحرياً على فلسطين، مما أشعل الحرب في كل أجزاء فلسطين، وخلال الحرب تمكنت الحركة الصهيونية من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من فلسطين، وكذلك أجزاء كبيرة من مدينة القدس، التي عرفت فيما بعد بالقدس الغربية، كما سيطر الفلسطينيون والعرب على القدس القديمة، حيث الأماكن المقدسة.(70)

وبهذا خضعت مدينة القدس لما يسمى لسياسة الأمر الواقع، فقسمت المدينة إلى قسمين، قسم غربي سيطر عليه الصهاينة، وقسم شرقي خضع للسيطرة العربية الأردنية.

أمام هذا الواقع الجديد، قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة في يوم 15مايو 1948م إلى اتخاذ قرار بتعيين وسيط دولي تكون مهمته الرسمية، إيجاد حل سلمي للصراع في فلسطين، ووقع اختيار الجمعية على "الكونت فولك برنادوت" رئيس

السيادة الصهيونية على القسم الغربي من المدينة، ففي الثامن عشر من أيلول 1948م ألغت الحكومة الصهيونية القرار الذي سبق وأن اتخذته في تشرين الثاني 1947م والذي اعترفت من خلاله بتدويل مدينة القدس، وفي الرابع عشر من أيلول شكلت في القدس الغربية المحكمة العليا لدولة إسرائيل. (76)

وبدأت الاستراتيجية الصهيونية منذ نهاية عام 1948م وبدايات عام 1949م، تعمل على إقرار الوضع القائم في مدينة القدس الغربية في كل المجالات، ومن ناحية أخرى، بدأ الزعماء الصهاينة يركزون الضغط على هيئة الأمم المتحدة للاعتراف بهذا الوضع، وبدءوا بالضغط في سبيل إقرار سلطة دولية على الأماكن المقدسة شرقي المدينة والتي كانت خاضعة للسلطة العربية. وكان ذلك بمثابة صيغة مستحدثة لمشروع الوكالة اليهودية الذي وضع في عام 1938م، وقد حاول زعماء الحركة الصهيونية تجنيد العديد من الدول، وعلى رأسهم الفاتيكان في سبيل تحقيق هذا الهدف. (77)

وفي 15 يوليو 1948 م. قرر المجلس المحلي الصهيوني لغرب القدس، أن يدعو حكومة إسرائيل المؤقتة أن تعلن عن غرب القدس أنها جزء من دولة إسرائيل، وقد استجابت الحكومة المؤقتة لطلب المجلس المحلي، وأصدرت إعلانين في 2 أغسطس 1948م:

الإعلان الأول (جاء فيه): أن غرب القدس يعتبر من أرض إسرائيل المحتلة. وأضاف، أن الأمم المتحدة كانت قد فشلت في توفير إطار قانون للقدس وأن عمل الحكومة المؤقتة كان مخططاً له لملء هذه الفجوة من أجل الجزء الواقع تحت السيطرة اليهودية.

الإعلان الثاني: يقر بتعيين "دوف جوزيف" حاكماً ومحافظاً عسكرياً للمدينة. (78)

وبعد نجاح إسرائيل دخول هيئة الأمم المتحدة في مايو1949 م، بدأت باستخدام استراتيجية جديدة تجاه مدينة القدس، مفادها، أن إسرائيل سوف لا تقبل إنشاء

الحكم العربي، وسوف يقاومون أي فكرة كهذه، ويؤسف حكومة إسرائيل أن تقول لك أن اقتراحك عن القدس هو اقتراح يشجع العرب في أمانيهم، ويجرح شعور اليهود، وسوف لا يعمل للسلام الذي تنشده، ولهذا يجب عليك مواجهة المشكلة من جديد وبمقترحات جديدة.» [73]

وقد رد برنادوت على رسالة شاريت بخصوص اقتراحه أن تكون مدينة القدس ضمن الدولة العربية بقوله: "تقع القدس في قلب ما يجب أن يكون إقليمياً عربياً في أي مشروع لتقسيم فلسطين، وأن محاولة عزل هذه المدينة سياسياً أو بغير ذلك عن الإقليم المحيط بها، يثير صعوبات جمة، والمركز الخاص للقدس بما فيها من سكان يهود عديدين ومؤسسات دينية يتطلب عناية خاصة، ولم يكن المقصود من اقتراحات بشأن المدينة في أي وقت من الأوقات تحكم العرب في المصالح المشروعة غير العربية في المدينة، يهودية كانت أو غير يهودية، إلا أنني مع إدراكي الكامل لما تثيره مسألة القدس من أهمية بالغة لدى الطائفة اليهودية بفلسطين لأسباب تاريخية وغيرها، فإنه يلاحظ أن أحداً لم يفكر في أي وقت من الأوقات في إدخال القدس في الدولة اليهودية.» [74]

وجاء أقوى رد صهيوني على مقترحات برنادوت بشأن القدس، عندما قادت عصابة "شتيرن الصهيونية" باغتياله في مدينة القدس في 17 سبتمبر 1948م.[75] وذلك بالرغم من تراجع الكونت برنادوت عن آرائه ومقترحاته بخصوص القدس، وقام بوضع مقترحات جديدة بشأنها تدعو إلى خضوع المدينة إلى الإدارة الدولية كما جاء في نص قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 2/181..

إن تدويل القدس الذي عاد إليه الوسيط الدولي برنادوت خلال صيف 1948م، بعد المعارضة الشديدة الصهيونية والعربية، لم تكن مجدية عند الحركة الصهيونية فقد وضعت الحركة الصهيونية قبل اغتيال الوسيط الدولي استراتيجية واضحة وغير قابلة للنقاش تجاه مدينة القدس، وهي الاستراتيجية القائمة على أساس تثبيت

غرب القدس لعودة الفلسطينيين القاطنين غرب المدينة.[80]

وقع الاتفاق عن الجانب الصهيوني "موش ديان"، القائد العسكري للقوات الصهيونية، وعن الجانب الأردني "عبد الله التل"، القائد العسكري العربي لمنطقة القدس، وبتوقيع هذا الاتفاق، ضربت كلٌّ من إسرائيل والأردن عرض الحائط كل القرارات والمشاريع الدولية بخصوص القدس، وطبقت ما سمي في حينها بسياسية الأمر الواقع تجاه مدينة القدس، وكان هذا الاتفاق مقدمة للاتفاق النهائي من خلال اتفاقية الهدنة التي وقعت بين الطرفين في 16 مارس 1949م والذي أقر الاتفاق السابق نهائياً.

رفضت هيئة الأمم المتحدة الاعتراف بالاتفاق الصهيوني الأردني حول القدس، وأكدت ما جاء في قرارها 2/181 بجعل المدينة دولية، وذلك من خلال قرارها الجديد رقم 275.[81]

بالرغم من المعارضة التي أبدتها هيئة الأمم المتحدة بخصوص الاتفاق الأردني الإسرائيلي حول القدس، فإن الموقف الصهيوني لم يتغير، فلم يعد هناك شك في أن الصهاينة لم يعد لديهم أي قابلية للتنازل عن هذه الاتفاقية ولا بأي حال من الأحوال، فقد أرادت إسرائيل من وراء التمسك بالاتفاقية أن تقرر الأمر الواقع الذي أسسته على العدوان، سواء ذلك العدوان الذي كان قبل جلاء القوات البريطانية، أو ما وضعت يدها عليه قبل اتفاقيات الهدنة وما بعدها. فهذه الاتفاقيات، كانت هي السياسة الوحيدة التي يمكن أن تكسب الصهاينة أرضاً جديدة في سبيل ترسيخ احتلال القدس كلها، وأن تجعل منها عاصمة على الحدود تنتشر من حولها إلى داخل الأرض العربية لتوسع من رقعة الدولة حول عاصمتها. والاستناد إلى اتفاقيات الهدنة فيما اكتسب بالعدوان، يمكن أن يصبح في رأي إسرائيل على الرغم من بطلانه، مركزاً قانونياً يدعم بقاءها في القدس التي لم يكن فيها من الصهاينة في حقيقة الأمر إلا 38 من السكان يملكون 2 من الأراضي والأملاك، في حين كان بها من العرب

جسم منفصل للقدس، وذلك حسب ادعاء بن غوريون، لأسباب سياسية وتاريخية ودينية، وقد أبلغ بن غوريون لجنة القدس المنبثقة من لجنة التوفيق الدولية التي عينتها هيئة الأمم المتحدة للنظر في القضية، أن إسرائيل سوف تقبل وبلا تحفظ نظام حكم دولي على الأماكن المقدسة تحت إشراف الأمم المتحدة فقط.[79]

بالطبع هذا الاقتراح الصهيوني تجاه مدينة القدس، يحقق لهم العديد من الأهداف على رأسها الانفراد في حكم القسم الغربي من المدينة، ثم الاشتراك في الإشراف على القسم الشرقي من المدينة نفسها كعضو في هيئة الأمم المتحدة، وهو القسم الخاضع للحكم العربي في هذه المرحلة. وبهذا تكون إسرائيل باقتراحها السابق قد ضربت عصفورين بحجر واحد.

لذلك وكما ذكرنا سابقاً، بمجرد أن نجح الصهاينة في الحصول على مقعد داخل هيئة الأمم المتحدة، أعلنوا أنهم يرفضون تدويل القدس ومبدأ تقسيم فلسطين، وبدءوا يثيرون المشكلات في هذا الاتجاه، وطالبوا بأن يكون التدويل مقتصراً فقط على الأماكن المقدسة الواقعة في القسم الشرقي من المدينة.

وقد استغل الصهاينة الموقف الأردني من مشروع تدويل القدس، وهو الموقف الرافض لهذا المشروع ونجحوا في توقيع اتفاق ينهي العمليات العسكرية بينهم وبين المملكة الأردنية الهاشمية في 10 نوفمبر 1948م والذي كان من أهم بنوده تقسيم مدينة القدس إلى قسمين شرقي يتولاه ملك الأردن «عبد الله» ، وغربي تتولى السيطرة عليه إسرائيل، بحيث تبلغ المساحة التي ستسيطر عليها إسرائيل من المدينة 84,2 من المساحة الكلية لمدينة القدس، على أن تجري خطوط الهدنة من الشمال إلى الجنوب وسط القدس، على أن تضم شريطاً من الأرض يكون مفرغًا من الناس في الجزء القريب مباشرة من المدينة القديمة، وأن يكون هناك جيب تتولى أمره إسرائيل على جبل سكوبس يضم داخله مستشفى "أوجستا فكتوريا" كذلك نص الاتفاق على وجود مدخل رئيس إلى الأماكن المقدسة، ومدخل مشترك متبادل إلى

الخاتمة

بعد أن استعرضنا الاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس في المرحلة الواقعة بين 1917م – 1949م خلصنا من هذه الدراسة بالعديد من النتائج. وهي على النحو الآتي:

النتيجة الأولى: نجاح الحركة الصهيونية خلال هذه المرحلة في تحقيق هدفها السري والمعلن، والمتمثل في السيطرة على هذه المدينة، لعلم زعماء هذه الحركة ما تمثله تلك المدينة من أهمية تاريخية وسياسية ودينية، ليس للمسلمين فحسب بل لكل الديانات، وأن السيطرة على هذه المدينة يعتبر سيطرة على قلب فلسطين، وسيمثل فاتحة للسيطرة على كامل التراب الفلسطيني.

النتيجة الثانية: أن الصهيونية العالمية لم تكن تستطيع تحقيق أهدافها تجاه مدينة القدس، بدون التواطؤ الدولي مع هذه الأهداف، والدعم المالي والمعنوي الذي منح لهذه الحركة من قبل العديد من الدول التي تآمرت مع الحركة الصهيونية، ويأتي في مقدمة هذه الدول بريطانيا التي لعبت دوراً رئيساً وعميقاً في تحقيق الأهداف الصهيونية للسيطرة على مدينة القدس وعلى فلسطين بكاملها، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، الدولتان اللتان أخذتا على عاتقيهما بعد بريطانيا في تحقيق الهدف الصهيوني.

النتيجة الثالثة: لعبت هيئة الأمم المتحدة دوراً رئيسا في تحقيق الأهداف الاستراتيجية الصهيونية تجاه المدينة، وذلك من خلال اتخاذها موقفاً غير فعال تجاه السياسة الصهيونية بخصوص فلسطين ومدينة القدس.

النتيجة الرابعة: تتمثل في الموقف العربي الرسمي من قضية القدس وفلسطين، ذلك الموقف الذي تعامل مع هذه القضية بنوع من اللامبالاة، فالأنظمة العربية الرسمية لم تضع يوماً في برنامجها أو أجندتها بشكل رسمي قضية القدس وتحرير فلسطين بكاملها، وفي كثير من الأوقات وقفت بعض هذه الأنظمة موقف المتفرج من

62 يملكون 84 من الأراضي والأملاك.[82]

هذا، وإسرائيل أمام قرار هيئة الأمم المتحدة الجديد الذي يؤكد تدويل المدينة، شنت هجوماً سياسياً قوياً ضد هيئة الأمم المتحدة، وأصدر بن غوريون رئيس الحكومة الإسرائيلية بياناً ذكر فيه "أن القدس هي جزء لا يتجزأ من دولة إسرائيل، وأنها عاصمتها الأبدية، وأن قرار هيئة الأمم المتحدة الجديد لا يغير هذه الحقيقة التاريخية.[83] "

وتبع ذلك الإعلان، قيام الكنيست الإسرائيلي بإعلان ضم القدس الجديدة في 5ديسمبر1949م. وإعلانها عاصمة لدولة إسرائيل ومقراً للكنيست الصهيوني والدوائر الحكومية في 26ديسمبر1949 م.[84]

إذن نجحت الاستراتيجية الصهيونية في تحقيق أهدافها السياسية والعسكرية ولو جزئياً تجاه مدينة القدس خلال هذه المرحلة، وهو نجاح كان مقدمة للعديد من النجاحات التي حققتها الصهيونية في المراحل اللاحقة، خاصة بعد نجاحها في السيطرة على كامل القدس عام 1967م، ومن ثم جعل هذه المدينة ذات طابع يهودي خالص من خلال السياسات التي طبقتها الصهيونية بعد ضم المدينة، وعملت على تفريغها من طابعها العربي والإسلامي، وهي السياسة التي لا زالت تطبقها حتى يومنا هذا، في غياب موقف عربي إسلامي دولي مضاد لهذه السياسة، وعلى الرغم من غياب هذا الموقف نجد أن أهل هذه المنطقة من الشعب الفلسطيني كانوا ولا زالوا يقاومون هذه السياسة بكل إمكاناتهم المادية والمعنوية وظلوا دائماً على إيمانهم الراسخ أن القدس عربية إسلامية مهما كلفهم ذلك من تضحيات، وأن هذه المدينة ستعود يوماً ما إلى الحظيرة الإسلامية.

حواشي البحث:

1- د. عز الدين فوده قضية القدس في محيط العلاقات الدولية، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت مركز الأبحاث، 1969م، صـ33.

2- د.غازي ربابعة، القدس في الصراع العربي الإسرائيلي، عمان - الأردن، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط الثانية1993. م، صـ30.

3- كيت ماجواير، تهويد القدس، الخطوات الإسرائيلية للاستيلاء على القدس، بيروت، الآفاق الجديدة، مركز الدراسات العربية، ط الأولى، 1981م، صـ11.

4- المرجع نفسه، صـ11.

5- سامي حكيم، القدس، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط الأولى، 1970م، صـ 14.

6- أسمهان شريتح، القدس وأورشليم بين الحقيقة والخيال، صامد الاقتصادي،الأردن، العدد 901، دار الكرمل، 1997م، صـ88.

7- المرجع نفسه، صـ 95.

8- موطي غولان، السياسة الصهيونية تجاه القدس، 1937م - 1949م، ترجمة جواد الجعبري، وزارة الإعلام، ط الأولى، 1996م، صـ 10, 11.

9- المرجع نفسه، صـ 12.

10- سمير سمعان، موسوعة آرائيل «الصهيونية» مجلة الأفق العربي، العدد، 03، المركز الأردني للدراسات، عمان 1983م، صـ28.

11- محمود العايدي، قدسنا، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1972م، صـ140.

12- المرجع نفسه، صـ141.

13- المرجع نفسه، صـ141.

14- كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة، فاطمة خير، ومحمد عناني، سطور، 1996م، ص602.

- وانظر، سمير جريس، القدس، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط الأولى، 1981م، صـ16.

15- خليل تفكجي، الاستيطان في مدينة القدس، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد، 31, 1997م، صـ7.

16- كارين أرمسترونج، مرجع سابق، صـ605.

17- روحي الخطيب، القدس في ظل الاحتلال العسكري الإسرائيلي، شئون عربية (تونس) العدد 40, ديسمبر1984/م، صـ48.

18- جريس، مرجع سابق، صـ25.

الإجراءات الصهيونية تجاه مدينة القدس ولم تألوها أي اهتمام، بل على العكس فهناك بعض الأنظمة رسخت من السيطرة الصهيونية على تلك المدينة، وهو موقف لا زال حتى يومنا هذا يراوح مكانه، بالرغم من الإجراءات الصهيونية اليومية لتهويد المدينة، ولا زالت الأنظمة العربية لا تقدم للقدس وفلسطين سوى البيانات والمؤتمرات التي في اعتقادي زادت من الهجمة الصهيونية على المدينة.

وفي النهاية أؤكد أن القدس لم تَضعِ ولن تضيع ما دام هناك طفل فلسطيني يقاوم، وما نشهده اليوم وشاهدناه في السابق من ثورات وانتفاضات فلسطينية ضد الاستعمار الصهيوني لفلسطين ما يؤكد أن القدس وفلسطين ستعود يوماً ما للحظيرة العربية الإسلامية بالرغم من كل المعوقات والمؤامرات؛ لأن أهل فلسطين يؤمنون إيماناً قاطعاً بأن وعد الله واقع لا محالة وبأن النصر قريب إنْ شاء الله.

37- موطي غولان، مرجع سابق، صـ28.

38- المرجع نفسه، صـ29.

39- المرجع نفسه، صـ28.

40- المرجع نفسه، صـ29.

41- المرجع نفسه، صـ30.

42- د. محمود كامل خله، فلسطين والانتداب البريطاني، 1922م - 1939م.طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ط الثانية 1982م صـ454.

43- Bovis. H. Egue; Eugene; The Jerusalem Question 1917 - 1968 Hoover Press Stanford University Stanford California- 1971-p. 27

44- موطي غولان، مرجع سابق، صـ30.

45- المرجع نفسه، صـ31.

46- المرجع نفسه، صـ32.

47- المرجع نفسه، صـ35, 36.

48- المرجع نفسه، صـ36.

49- لجنة وودهيد الفنية، الكتاب الأبيض، رقم 5854، تشرين الأول، سنة 1938 ، صـ18.

50- المرجع نفسه، صـ 133.

51- موطي غولان، مرجع سابق، صـ40, 41.

52- Bovis. H. Eugene- op-cit-p. 31

53- لجنة وودهيد الفنية، مرجع سابق، صـ100.

54- المرجع نفسه، صـ100.

55- المرجع نفسه، صـ104.

56- محمود العايدي، قدسنا، مرجع سابق، صـ153.

57- د. عز الدين فوده، مرجع سابق، صـ168.

58- المرجع نفسه، صـ168

59- John, Robert and Sami Hadawi: The Palestine Diary V2 1945-1948- Foreword by Arnold J. Toynbee The Palestine Research Center. 1970-90

60- د. خيرية قاسمية - الصراع العربي الإسرائيلي في خرائط، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1979م، مطابع دار الشعب، صـ66.

61- Rnited Nations- Year Book - Department of Pubic Information New York. 1947 - .1948 P. 227

19- فاطمة خير، استيطان القدس قبل قيام إسرائيل، مجلة صامد الاقتصادي، العدد، 109, 1997م، دار الكرمل للنشر، عمان، صـ64.

20- تقرير لجنة التحقيق عن اضطرابات فلسطين التي وقعت في شهر آب 1929م (لجنة شو) القدس، مطبعة (دار الروم 1930م) ص ـ38.

21- بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917م 1948م (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1986م) ص 219.

22- سامي حكيم، مرجع سابق، صـ62.

23- المرجع نفسه، صـ 62.

24- الحوت، مرجع سابق، صـ220

25- د. أحمد طرابين، القدس في عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة، بحوث الندوة العالمية حول القدس وتراثها الثقافي، الرباط 19-21 أكتوبر1993م، منشورات إيسيسكو، 1995م صـ658.

* إبراهيم باشا هو الابن الأكبر لمحمد علي باشا والي مصر، وقد تولى حكم بلاد الشام نيابة عن أبيه في المرحلة الواقعة ما بين عام 18411831م. وذلك خلال سيطرة مصر على هذه **المنطقة.**

26- Al. Tibawi Jerusalem its Place in Islam and Arab History. I.P.S Beirut. 1469. P25

27- I bid. P.25

28- تقرير اللجنة الدولية المقدم إلى عصبة الأمم عام 1930م (الحق العربي في حائط المبكى في القدس) بيروت: منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1978م، صـ32.

29- محمود العايدي قدسنا، مرجع سابق، صـ152.

30- Coplan; Neil; Futile Diplomacy. Vol. II, Arab Zionist Negotiations the The Mandate. Frank Cass, London, 1986. P. 23

31- Palestine Royal Commissian Roport, Preseutat By The Secretery of state for Colonies to Parliament by Command of His Majesty July 1937. Cmd-5479 P 380.

32- I bid-p. 380

33- I bid-p. 382

34 – د. محمد عبد الرءوف سليم، مؤتمر زيورخ الصهيوني العالمي 1937م، ودور وايزمن في أعماله،القاهرة, دار الزهراء للنشر، 1993م، صـ 36.

35 - Bethell. Nicholas." The Palestine Triangle" the Trinity Press Worcaster and London, 1949. P- 27

36– I bid-p 27

81- الوثائق الرئيسة في قضية فلسطين، المجموعة الثانية، جامعة الدول العربية، الإدارة العامة لشئون فلسطين، القاهرة، 1957م، صـ513.

82- U.N. Year Book. 1950-op-cit-p. 337

83- د. عز الدين فوده، مرجع سابق، ص 208, 209.

84- موطي غولان، مرجع سابق، صـ211.

85- د. عز الدين فوده، مرجع سابق، صـ211.

- وانظر، الأمم المتحدة، منشأ القضية الفلسطينية وتطورها، 1917م - 1988م، أعدت للجنة المعنية بممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه، غير قاله للتعرف وتحت إرشادها، نيويورك 1990م.

62- موطي غولان، مرجع سابق، صـ66, 67.

63- المرجع نفسه، صـ67, 68.

64- المرجع نفسه، صـ 69.

65- المرجع نفسه، صـ78, 79.

66- Tomeh. Georye Jerusalem at The United Nation, Palestinian Liberation Originzation, Political department, 1983 p.4

67- Rsousun, Mahmoud, Palestine And the Internationalization of Jerusalem. The Ministry of Cultureumd Cuidubce. Paghdad- 1965- p50

68- د. محمد عبد الرءوف سليم، موقع القدس في الفكر الصهيوني، التأصيل النظري وديناميكية التنفيذ الندوة العلمية حول القدس، دراسات مقدمة من الاتحاد البرلماني العربي - الربـــــاط . /28- 26 نوفمبر 1998م /99، صـ58.

69- عبد القادر ياسين، كيف قوضت إسرائيل مشروع تدويل القدس، صامد الاقتصادي، العدد 107 شباط، 1997م، صـ135.

70- موطي غولان، مرجع سابق، صـ77, 78.

71- إبراهيم شكيب، حرب فلسطين 1948م - رؤية مصرية، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، 1976م، صـ15.

72- مؤسسة الدراسات الفلسطينية، قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين، مرجع سابق، صـ23.

73- U.N. Year Book-1947-1948- op-cit-p. 432

74- ملف وثائق فلسطين.. (مذكرة وزير الخارجية الإسرائيلي على مقترحات برنادوت) وزارة الإرشاد القومي، القاهرة، الجزء الأول، 1969م، صـ946.

75- المرجع نفسه، صـ964.

76- Kirk. George. Srvey of International Affairs: the Middle Est-1945-1950 London: Oxford University 1945-P-290 م وانظر موطي غولان، مرجع سابق، صـ 204.

77- موطي غولان، مرجع سابق، صـ 203.

78- المرجع نفسه، صـ 204.

79- Bovis. H. Eugene. O-cit-p 63

80- I Op. cif. bid -p-71-

The Relationship between Prince (Amir) Fakhr-eddin El-Ma'ani II and the local Palestinian leaders

999-1043 H (1590-1633 A.D.)

Dr. Osama Muhammad Abu Nahel

Abstract

This paper tackles a very important period of Ottoman Lebanon and Palestine history. It focuses on a distinguished character; Prince (Amir) Fakhr-eddin El-Ma'ani II. He worked hard to establish a regional Emirate on the Ottoman state.

The importance of this study emerges from the fact that few studies have tackled the relationship between Prince (Amir) Fakhr-eddin II and the local Palestinian families and leaders. It is also important in terms of explaining the actual motive, which encouraged Prince (Amir) Fakhr-eddin II to put Palestine on the top of his political and military agenda. This paper negates the adventurous nature of the Prince's (Amir's) behavior and refers his extensive behavior in Palestine mainly to his ambition in establishing a prestigious history in order to gain fame despite the shortage of available facilities.

I have tried through this study to put matter on the right track and to avoid being misled by other studies which concluded that Prince (Amir) Fakhr-eddin II's extensive projects in the Palestinian land came out of his far-reaching political and military power in Lebanon. I have made it clear that the only time which Prince (Amir) Fakhr-eddin II had transitory power over Palestine was a result of his rational policy in obtaining the positions from the Ottoman Porte. Through these positions, he managed to be the governor of all Arabstan; from Aleppo's to Jerusalem.

علاقة الأمير فخر الدين المعني الثاني بالزعامات المحلية الفلسطينية وموقف الدولة العثمانية منه

999 ـ 1043- هـ /1590 ـ 1633- م

د. أسامة أبو نحل *

الملخص

تتناول هذه الدراسة فترة مهمة من تاريخ لبنان وفلسطين العثماني ، حيث حاولت شخصية بارزة كشخصية الأمير فخر الدين المعني الثاني ، إقامة إمارة إقليمية على حساب الدولة العثمانية ، وقد أسميت هذه الدراسة : «علاقة الأمير فخر الدين المعني الثاني بالزعامات المحلية الفلسطينية ٩٩٩ ـ١٠٤٣هـ/١٥٩٠ـ١٦٣٣م».

وأهمية هذه الدراسة ناجمة عن قلة المراجع التي تناولت علاقة فخر الدين الثاني بالزعامات والأسر الفلسطينية ، كما تنبع أهميتها في بيان الدافع الرئيس لفخر الدين الذي جعله يضع فلسطين على سلم أولوياته السياسية والعسكرية ، وقد نفت هذه الدراسة عن فخر الدين صفة المغامرة ، وأرجعت تصرفاته التوسعية في فلسطين تحديداً إلي طموحه في بناء مجد ذاتي يخلده على الرغم من محدودية الإمكانات المتاحة لديه.

وقد حاولت من خلال هذه الدراسة إعادة الأمور إلي نصابها الحقيقي ، وعدم الانسياق وراء الدراسات التي تبنت نتائج مفادها أن مشاريع فخر الدين التوسعية في الأراضي الفلسطينية كانت ناجمة عن استشراء نفوذه السياسي والعسكري في لبنان ، وأوضحت أن المرة الوحيدة التي كان لفخر الدين نفوذ مؤقت في فلسطين كان ناجماً عن سياسته الحكيمة في شراء المناصب من الباب العالي، والتي تمكن من خلالها أن يصبح حاكماً علي كل عربستان من حدود حلب إلى القدس.

---

* *أستاذ مساعد في التاريخ الحديث، ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الأزهر - غزة*

الخالدي الصفدي ، وتاريخ حيدر الشهابي للأمير حيدر الشهابي ، وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحمد الأمين المحبي ، وتراجم الأعيان من أبناء الزمان للحسن بن محمد البوريني ، و العرب والعثمانيون لعبد الكريم رافق ، وغير ذلك من المراجع الأجنبية مثل: Holt (P.M),Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922.

التمهيد :

أصبح من الأمور المسلم بها في المصادر التاريخية ، أن بلاد الشام كانت تابعة لسلطة السلطان العثماني تبعية اسمية، حيث ترك العثمانيون الحكم في تلك الأنحاء لأصحاب السطوة والنفوذ المنتمين إلى بيوتات تمتلك الكثير من مقوّمات القوة والزعامة، واكتفوا بتعيين والٍ لإقرار الأمن والنظام في الولايات الثلاث التي أقاموها وهي: دمشق وطرابلس وحلب ، إضافة إلى بعض المأمورين [1].

كما أصبح من الأمور المسلم بها أيضا ، أن العثمانيين ذوي الباع الطويل في المسائل العسكرية وبحكم خبراتهم السابقة في نظم الإدارة ، خاصة العسكرية منها في الميدان الأوروبي ، وبحكم انشغالهم في الحروب المتتالية في أوروبا وعلى كافة الأصعدة ، كانوا أكثر ميلاً لترك أمور الحكم للأسر الإقطاعية الموجودة بكثرة في كافة أرجاء بلاد الشام مكتفين باعتراف تلك الأسر بسيادتهم على المناطق التي يحكمونها ؛ لأنهم في نهاية المطاف يحصلون على مشروعيّة حكمهم من الولاة العثمانيين في دمشق وطرابلس فيما عدا شمال سورية التي بقيت تحت الحكم العثماني المباشر.

ومن هنا فإن مصلحة السلطان العثماني سليم الأول اقتضت بعد استيلائه على دمشق الاعتراف بزعامة الأمراء اللبنانيين مثل الأمير فخر الدين المعني الثاني حاكم جبل الشوف (لبنان) ، بعد اشتراكه إلى جانب العثمانيين في موقعة مرج دابق عام 922 هـ/1516 م [2] ، وجعله حاكماً على لبنان من يافا إلى طرابلس [3].

المقدمة

على الرغم من وفرة المصادر والمراجع التاريخية التي تناولت سيرة حياة الأمير اللبناني فخر الدين المعني الثاني ، نجد أن معظمها تناول أهم أعماله في لبنان مع لفتةٍ موجزةٍ لاهتماماته بضم فلسطين إلى ممتلكاته ، وقليلة جداً تلك المراجع التي تناولت مشاريعه التوسعية بفلسطين مع بعض الإسهاب ، والحقيقة أن معظم هذه المراجع كان يعوزها التحليل.

وفيما يخص المراجع التي اهتمت بتفاصيل حملات فخر الدين الثاني على الأراضي الفلسطينية ، فقد اشتطّ بعضها في ذكر دوافع تلك الحملات وأعادها إلى دوافع طائفية في المقام الأول ، غير أن الدراسة التي بين أيدينا نفت ذلك ، وأرجعت تلك الدوافع لأسبابٍ حزبية ليس إلاّ.

ولما تقاعست المراجع التاريخية في بيان أهمية فلسطين في مشروع فخر الدين الثاني التوسعي ، وجدنا أنه لا بأس من التطرق إلى تلك الفكرة في محاولة متواضعة لكشف اللثام عما أغفله البعض ، صحيح أن شخصية كفخر الدين لم تكن مجهولة أو مغمورة ، بل بالغة الصيت ومرموقة ، حتى أن صيته وسمعته وصلت إلى أوروبا قبل أن يصلها بجسده ، ولا ندّعي لأنفسنا إضافة الكثير إلى تلك الشخصية التي تستحق الدراسة أكثر من مرة ؛ وإن اختلفنا معها في تحليل دوافعها ونتائج تصرفاتها.

أما المنهج الذي اعتمدته الدراسة ، فهو مزيج من السرد التاريخي والتحليل الوصفي؛ نظراً لأهميتهما في إيصال الفكرة إلى القارئ بشكل سلس مباشر ومبسط ، ودون الإخلال بالوقائع التاريخية الأخرى ، التي وقعت أحداثها خارج فلسطين وكان لها ردود أفعال سياسية تأثرت بها الساحة الفلسطينية كموقعة عنجر الشهيرة عام 1033هـ/1623 م.

وما يخص مصادر ومراجع الدراسة فهي كثيرة ومتنوعة ، بعضها كانت فائدته بصورة مباشرة ككتاب تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني لأحمد بن محمد

اللبناني كانت تحكمه الأسرة الشهابية ، والبقاع يحكمه آل حرفوش الشيعة ، وجبل عامل كان يحكمه عدة أسر إقطاعية شيعية . وفي فلسطين كانت الأسر الإقطاعية هي من تتولى إدارة زمامها ، وإن كانت مؤيدة ومحالفة للسلطة العثمانية.

ويؤكد البعض صحة هذا الطرح ؛ بأنه لم يقع تحت سلطة الحكم العثماني المباشر سوى القليل من مدن الشام وضواحيها ،حيث ظل الكثير من المناطق خاصة المناطق الجبلية تحت حكم أمرائها وشيوخها المتوارثين ، الذين كانوا كالسابق يعقدون الكونفدراليات فيما بينهم ، ويقومون بالحملات مع قواتهم ، ويخوضون الحروب ضد بعضهم ، كما أن لبنان كان في بداية العهد العثماني لبلاد الشام بمثابة إمارة ذات استقلال ذاتي تحت سيطرة الأسرة المعنية [8].

وكما الحال مع أمراء لبنان ، فإن النهج نفسه اتبعه السلطان سليم الأول مع الزعامات المحلية في فلسطين وهي ذات مرتكزات بدوية وإقطاعية ، وقد وازنت السلطات العثمانية فيما بين هذه الزعامات واستغلتها كأدوات في الحكم ، وفي تصريف الشئون الإدارية المحلية ، وكانت فلسطين تتبع إدارياً ولاية دمشق ، وقسمت إلي خمسة سناجق [9] أو ألوية هي : القدس وغزة وصفد ونابلس واللجون ، إضافة إلى سنجقي عجلون والكرك مع الشوبك في شرقي الأردن [10].

والجدير بالذكر ، أن العثمانيين قسّموا فلسطين وحدها على صغر مساحتها إلى خمسة سناجق ، في حين بقية ولاية الشام كانت تضم على اتساعها أربعة سناجق فقط ، وهذا يعود لأهمية موقع فلسطين وحيويته ؛ فهي تربط دمشق بمصر والحجاز، أي أنها محور الطرق الرئيسة وعصبها ، فقرب فلسطين من الطريق السلطاني الذي كانت تستخدمه قافلة الحج الشامي المتجهة من دمشق إلي الحجاز ، زاد من أهميتها الأمنية بالنسبة لهذه القافلة ؛ لأن عدداً من القبائل الموجودة فيها أو القريبة منها كان يهدد طريق الحج ، وكانت هذه القافلة عندما تشعر بخطر تلك القبائل في طريق العودة من الحجاز، تضطر لتحويل طريقها السلطاني إلى غزة ، حيث الطريق

ومهما يكن من أمر ، يجب أن نضع نصب أعيننا حقيقة لا يمكن تجاهلها ، مفادها أن الطائفة الدرزية في لبنان كانت تتمتع بحس سياسي يتسم بالذكاء المطلق نتيجة لوجودها في منطقة تتقاطع فيها الانتماءات المذهبية والسياسية ، فلبنان على صغر مساحته ، يضم بين دفتيه العديد من المذاهب الدينية المختلفة ، وكان الدروز تائهين بين الاستقلالية الدينية وانتمائهم الإسلامي.

هذا الحس السياسي ، جعل من الدروز - إن جاز التعبير- أساتذة في المكيافيللية (الانتهازية) على مدار تاريخهم حتى قبل ظهور ساسة البندقية بزمن طويل [4] ، وفي حالة الأمير فخر الدين الأول يؤكد حيدر الشهابي صحة هذا الوصف ، بأنه لم يشارك منذ الوهلة الأولى في موقعة مرج دابق ، بل آثر البقاء على الحياد بين الطرفين المتحاربين (أي العثمانيين والمماليك) حتى يرى لمن ستكون الغلبة ، ثم يدخل القتال إلى جانب الطرف المنتصر[5] ، ليبدو في مظهر المسعف له ، ومن ثَمَّ يحصل على ثمن مساعدته له.

ويقول عادل إسماعيل: إنه كان لدى سليم الأول من الحكمة ما جعله يوافق على أن يحكم الدروز أمراء منهم ، فأعطى فخر الدين الأول إمارة الشوف التي بقيت خاضعة لنفوذ المعنيين حتى القرن السابع عشر[6]. والحقيقة أن الحكمة التي دفعت سليماً وما تلاه من سلاطين العثمانيين لجعل حكام لبنان يحكمون مناطقهم، لا يعود في المقام الأول لضعف السلطة العثمانية في توطيد نفوذها في لبنان بقدر ما يعود إلى خشيتها من التورط في المستنقع اللبناني الآسن المليء بالتناقضات المذهبية والسياسية ، لذا وجد السلطان سليم نفسه في غنى عن هذا التورط الذي قد يبذل من أجله خسائر جسيمة قد تؤثر في موقف دولته في أوروبا.

ويستطرد عادل إسماعيل في القول : «في حين أعطيت بقية المقاطعات السورية واللبنانية في هذا العهد إلى حكام أجانب» [7] ؛ لكن هذا القول تعوزه الدقة فيما يخص لبنان وفلسطين باستثناء مناطق سورية الشمالية ، فمن المعلوم أن وادي التيم

الحديث ، فقد اتصف فخر الدين بأنه سياسي ماهر ، بارع في حبك الدسائس، كما كانت له عيون في الآستانة وفي قصور الباشوات ودور الأتباع ، وبذر الشقاق في صفوف أعدائه ، ولإرضاء السلطان العثماني عنه ، قام بدفع أموال ضخمة لخزينة الدولة ، وتقاسم معه الغنائم الحربية [17].

ولم يتوان فخر الدين بعد ذلك في إعادة بناء موقع أسرته في الشوف بثبات ، ومن ثمّ تمكن من الحصول على قيادة لا ينازعه فيها أحد على كامل جبل لبنان والمقاطعات المجاورة ، واتباعًا لسياسته الحكيمة ، فقد اتخذ من الأسرة الشهابية حكام وادي التيم حلفاء مخلصين له [18].

وقبل التطرق إلى كيفية تمكن فخر الدين من إقامة إمارة معنية مترامية الأطراف على شكل مؤقت ، نجد لزاماً علينا بسط الخريطة السياسية اللبنانية والفلسطينية بما عليها من قوى محلية متصارعة وتكتّلات متحالفة ؛ لنعرف المدى الذي نجح من خلاله في إقامة تلك الإمارة.

ففي منطقة بعلبك وسهل البقاع اللبناني ، كان آل حرفوش الشيعة (1000 ـ 1282 هـ/1591 ـ1865 م) يتمتعون بشبه استقلال سياسي في مقاطعاتهم. ولم يقتصر نفوذ الحرافشة على البقاع ، بل كثيراً ما كانوا يتدخلون في شئون المقاطعات المجاورة لهم[19] ، وفي جبل عامل بيوتات إقطاعية شيعية أيضاً كبني صعب في مقاطعة الشقيف ، وبني منكر في مقاطعة الشومر، وبني علي الصغير في بلاد بشارة ، حيث تمتعوا هم الآخرون بحكم ذاتي تحت قيادة شيوخهم [20].

وفي شمال لبنان كان آل سيفا ذوو الأصل الكردي يحكمون في طرابلس ، وأشهر حكامها يوسف باشا سيفا الذي عينته الدولة العثمانية والياً على طرابلس عام 987 هـ/1579 م، واشتهر بعدائه الشديد لفخر الدين الثاني ، فقد كان لعدائهما الشخصي مدلول حزبي ؛ فآل سيفا كانوا من اليمنية [21] ، في حين آل معن من القيسية رغم أنهم كانوا في الأصل يمنيين [22] ، وتمكن فخر الدين من الحصول على

التجاري بين مصر ودمشق وهو أكثر أمناً ، وهو الطريق الذي اصطلح على تسميته «بالطريق الغزاوي» [11].

ولتحقيق الأمن في فلسطين ، حرص العثمانيون على الإكثار من ألويتها ؛ نظراً لكثرة الزعماء المحليين فيها ، وهم بمعظمهم من أصول بدوية، وبعضهم من بقايا المماليك ، وكان من شأن هذه الألوية إحكام الرقابة على هؤلاء الزعماء ، أو تقريبهم من السلطة بتعيينهم حكاما عليها ، ومن أشهر الزعماء المحليين الذين استقطبهم العثمانيون، طراباي بن قراجا ، أحد زعماء نابلس الذي عيّنوه أميرًا على منطقة اللجون ، وكان استقطاب هؤلاء الزعماء من عوامل الاستقرار البارزة في فلسطين في بداية العهد العثماني ؛ نظراً لخبراتهم بطبيعة المنطقة وظروف سكانها ، وتمتعهم بأفضل الأساليب الإدارية الملائمة لطبيعة هؤلاء السكان [12].

بقي أن نشير إلى مسألة غاية في الأهمية ، هي أن الإقطاع في لبنان اختلف عن بقية المناطق السورية الأخرى ؛ إذ كان في الغالب ذا طابع طائفي ، حيث كان فيها أرسخ جذورًا وأقوى من الإقطاع الحكومي [13].

طموح فخر الدين الثاني [14] بتكوين إمارة إقليمية:

سبق التنويه بأن السلطان سليمًا كان قد أقر الأمير فخر الدين الأول على حكم جبل لبنان وسماه «سلطان البر» ؛ لكن الأخير حاول الاستقلال بالجبل، فقتله العثمانيون سنة 951 هـ/1544 م، ودفنوا معه طموحاته ، لكنهم لم يقضوا على النفوذ القبلي والطائفي للمعنيين ، وخلف الأمير قرقماز والده في الحكم ؛ لكنه لم يستوعب الدرس الذي مرّ به والده ، وحاول بدوره أن يحقق طموحاً سياسياً إقليمياً في بعض نواحي الشام وفلسطين ، فدفع هو الآخر حياته ثمناً لمغامرته عام 993هـ/1585م ، في إحدى مغارات جزّين في سفوح جبل الشوف [15].

تولى فخر الدين الثاني مقاليد الحكم في جبل لبنان عام 999 هـ/1590 م ، وكان عمره وقتذاك ثمانية عشر عاما [16] ، وبذلك فتحت صفحة جديدة من تاريخ لبنان

عشر الميلادي ، أي قرابة القرن ونصف القرن [26] ، وكان آل رضوان أبرز وأقوى أمراء الحلف الثلاثي الذي ضمهم مع آل طراباي وآل فرّوخ ، حيث واجهوا فخر الدين ومخططاته ، وأهم أمرائهم الذي يعنينا في هذه الدراسة، حسن بن أحمد رضوان (1009 ـ1054 هـ/1600 ـ1644 م) بسبب دوره في صد خطر فخر الدين [27].

ومهما يكن من أمر، فثمة أسباب عدة دعت فخر الدين فور توليه مقاليد السلطة للنظر إلى أبعد من إمكاناته المتاحة لديه ولأسرته منها:

1 ـ طموحه بإقامة لبنان على نطاق أوسع ، ومن ثَمَّ قطع أخر صلة له بالدولة العثمانية.

2ـ السير في إمارته نحو التطور والازدهار [28].

3ـ علاقته المتميزة مع المسيحيين خاصة الموارنة منهم ، بعدما شعر بعدم ارتياحهم لسياسة آل سيفا تجاههم. وكان ذلك حافزا له يعطيه القدرة على تحقيق مطامحه في التوسع.

4ـ تجاوزات آل سيفا وانتقاصهم من حقوق أسرته بالاعتداء على ممتلكاتها وامتيازاتها.

5ـ طموحه بتحقيق أمجاد جده فخر الدين الأول التي لم يستطع استكمالها بسبب مقتله [29].

6ـ استغلاله لبوادر الضعف والترهل التي بدأت تظهر في جسد الدولة العثمانية خاصة عندما تم السماح لغير الانكشاريين من الفلاحين والحرفيين بالانخراط في سلك الانكشارية بعد أن كانت حكراً لهم [30].

كما استفاد فخر الدين كذلك من المواهب التي منحته إياها الطبيعة، فاندفع بخطًى حثيثة نحو الميدان السياسي الذي شغف به ، وسرعان ما استطاع أن يحكم بنفسه، فأظهر مقدرة فائقة في تسيير دفة الحكم مستلهماً السياسة والمخططات التي اتبعها وسار عليها أسلافه من الأمراء واتبع منهجها بعدما وجدها ترضي

أول نصر له على يوسف باشا سيفا في موقعة نهر الكلب عام 1007 هـ/1598 م، غير أنه لم ينجح في تملّك الإقليم الشمالي لأكثر من سنة ؛ لأن العثمانيين كانوا يدعمون يوسف باشا دعماً معنوياً [23].

أما في فلسطين ، فقد عاصرت زعامات محلية فيها تولي فخر الدين الثاني مقاليد السلطة ، وقد تنافرت بينها وبين فخر الدين المصالح ؛ نظراً لأطماع الأخير في الاستيلاء على ممتلكاتهم. ففي منطقة اللجون كان آل طراباي لهم السيادة والزعامة ، واشتهر منهم الأمير أحمد بن طراباي (979 ـ1057 هـ/1571 ـ1647 م) الذي حكم لمدة نصف قرن تقريبا (1010 ـ1057 هـ/1601 ـ1647 م)[24] ، ودارت بين الزعيمين عدة مواقع سنأتي على ذكرها.

وثمة أسرة من أصل شركسي كان زعماؤها حكاما على نابلس والقدس ، هم آل فرّوخ ، وكانت تلك الأسرة حلقة الوصل بين آل طراباي في شمال فلسطين وآل رضوان في الجنوب (غزة) ، وقد شغل أفراد آل فرّوخ وظيفة إمارة الحج الشامي لعدة أعوام، وتعاونوا مع حلفائهم على منع فخر الدين الثاني من الاستيلاء على القدس كما خطط لذلك ، وقاموا بحماية الحجاج كل عام ، ومن أشهر آل فرّوخ الذين تصدّوا لتوسعات فخر الدين ، الأمير محمد بن فرّوخ الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه الأمير فرّوخ بن عبد الله وهو في طريقه إلى مكة على رأس قافلة الحج الشامي. وكان محمد قد عزل عن نابلس عدة مرات ، ثم عاد إليها بفضل الدعم الذي لقيه من العثمانيين ضد عدوه الأمير فخر الدين الذي طمع بمنح حكومة نابلس لأبنائه وأعوانه ، وتولى محمد بن فرّوخ إمارة الحج الشامي في معظم الفترة ما بين 1031 هـ/1622 م إلى 1048 هـ/1639 م ، تاريخ وفاته [25].

أما مركز القوى الثالث في فلسطين فيتمثل في آل رضوان حكّام غزة ذوي الأصل التركي، الذين توارثوا حكم سنجق غزة بضعة أجيال من منتصف القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي إلى أواخر القرن الحادي عشر الهجري/السابع

وضعه الأمير فخر الدين إلاّ من خلال زاوية الصراع القيسي ـ اليمني الذي اشتعلت أواره حتى قبل استيلاء العثمانيين على بلاد الشام ، هذا الصراع الذي شمل مساحة واسعة من لبنان وفلسطين ، لسيادة النظام القبلي فيهما.

وبناءً عليه ؛ فإن أبرز السمات التي ميّزت المجتمع في المقاطعات اللبنانية في العهد المعني ، هي انقسام هذا المجتمع انقساماً حزبياً لا طائفياً، بحيث يلتقي في الحزب القيسي كما في الحزب اليمني أسر ورجال من جميع الطوائف دون عقد طائفية ولا حساسيات مذهبية ، وكانا هما الحزبان الوحيدان اللذان عرفا في ذلك العهد ، وبمعنى آخر كان الحزب الواحد يضم أتباعاً من مذاهب مختلفة ، كالسنّة والمتاولة (الشيعة) والموارنة المسيحيين والدروز[36] ، وفي الوقت نفسه كان الحزب الآخر يضم أيضاً أتباعًا من المذاهب ذاتها ، وخلاصة الأمر أن ولاء الفرد كان للحزب الذي ينضم إليه ، وليس للمذهب الديني الذي ينتمي إليه.

أما في فلسطين ونظراً لعدم وجود اختلافات مذهبية عميقة كشأن لبنان ، ونظراً لديانة معظم القبائل العربية فيها بالإسلام ، خاصة المذهب السنّي ، فقد كان الانقسام فيها إلى حزبين اثنين أيضاً وتحت ذات المسمى ، القيسي واليمني ؛ ولكن على أساس الأصول الأولى لتلك القبائل.

ومهما يكن من أمر فقد استطاع الأمير فخر الدين والمعنيون رغم هذا الانقسام الاجتماعي إلى إثبات نفوذهم في لبنان الجنوبي[37] أولا ، ثم في شمال فلسطين ثانيا، وكان بعض الأمراء المحليين في فلسطين قد استفادوا من انشغال فخر الدين في تقوية نفسه لمواجهة ولاة دمشق المتعاقبين وأعدائه التقليديين آل سيفا ، فتنفسوا الصعداء على إثر القضاء على حكم آل فرّيخ الذين سبق أن وسّعوا نفوذهم على حسابهم ، وأشهر هؤلاء الأمراء أحمد بن رضوان حاكم غزة الذي توفي عام 1015هـ/1606ـ1607م[38] ، وحمدان بن قانصوه أمير عجلون والكرك ، وطراباي بن قراجا حاكم اللجون الذي خلفه بعد وفاته عام 1010هـ/1601 – 1602م ، ابنه أحمد[39] ، والأمير

طموحه البعيد المدى [31].

بعدما استهل فخر الدين الثاني حكمه على جبل لبنان تسلّم من السلطان العثماني سنجقي بيروت وصيدا. وبدأ طموحه السياسي يتّقد في توسيع رقعة إمارته ، فساعد العثمانيين في القضاء على عدوه الأمير منصور بن الفريخ حاكم البقاع ونابلس وصفد وعجلون بعدما خشيت السلطات العثمانية خاصة والي دمشق مراد باشا من ازدياد قوته ونفوذه، فتم قتله في 13ربيع الأول 1002هـ/7كانون الأول (ديسمبر) 1593م [32].

كما حمل فخر الدين على جاره ووالد زوجته، يوسف باشا سيفا، وبعد معارك عدة أشهرها موقعة نهر الكلب عام 1007هـ/1598م ـ كما أسلفنا الإشارة ـ تمكن من السيطرة المؤقتة على شمال لبنان، ولم يلبث أن خضع له بنو حرفوش في بعلبك ، وزعماء البدو في البقاع وفي المنطقة الجنوبية حتى الجليل ، مستغلاً فترة انشغال السلطان أحمد بقتال المجريين في أوروبا والصفويين في بلاد فارس [33].

وعلى الرغم من أن العثمانيين لم يتخذوا موقفاً بعينه من فخر الدين بعد تحرشه بيوسف باشا حليفهم الرئيس في لبنان ، نجد أنهم سرعان ما انقلبوا عليه بعد تحالفه مع علي باشا جانبولاد (جنبلاط)[34] أحد أفراد الأسرة الكردية الحاكمة في كِلّس والذي كان قد اغتصب السلطة في حلب عام 1015هـ/1606م ، وكان علي باشا هذا مناوئاً ليوسف باشا سيفا منافس فخر الدين ، لذلك عندما هُزم ابن جنبلاط من العثمانيين آثر فخر الدين إيجاد تسوية عاجلة مع العثمانيين ، غير أن الوقت كان قد أدركه ، فالخصومة المحلية بين آل معن وآل سيفا كانت قد كلفت فخر الدين توريط نفسه في الاشتراك في تواطؤ خطير مع المتمردين على الحكم العثماني ، الأمر الذي سيكلفه فيما بعد فقدان إمارته لبعض الوقت [35].

فلسطين ومشروع فخر الدين الإقليمي التوسعي:

ليس بوسع أيّ من الباحثين قراءة أهمية فلسطين في المخطط التوسعي الذي

الفكرة من أساسها :

1ـ أن القتال خلال القرون الثلاثة السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر لم تكن لأسباب طائفية ، بل حزبية في المقام الأول ، متعلقة بالصراع بين الحزبين القيسي واليمني ، ومن ثَمَّ ليس كل الدروز من القيسية لكي يناصرهم فخر الدين ، فهنالك دروز ينتمون إلى الحزب اليمني كآل علم الدين المنافسين للمعنيين ، لذلك كان من الممكن أن يدخل فخر الدين نفسه في صراع مع أسرة درزية مغايرة له في الانتماء الحزبي لو كانت مصالحه تتعارض مع مصالحها.

2 ـ لا يعقل أن يرهن فخر الدين مصيره السياسي كله ويضحي بمجمل ما حققه من مكتسبات في لبنان من أجل عدد من الأسر الدرزية التي تسكن منطقة الجليل الفلسطيني ، ولا يُعقل أساساً أن يكون قد صاغ مخططاته وطموحاته من أجل تلك الأسر فقط ، خاصة إذا ما علمنا أن الطائفة الدرزية في شمال فلسطين لم تكن آنذاك معرضة للخطر أو أية ابتزازات سياسية من الطوائف الأخرى ، حيث لم يرد في أيّ من المصادر التاريخية ما أفاد عكس ما قررناه.

3ـ أن العلاقة السياسية التي ربطت بين لبنان وفلسطين في عهد فخر الدين جد مختلفة ؛ ففي لبنان ثائر انفصالي حاول قصارى جهده فصل لبنان عن محيطه العثماني ، وفي فلسطين زعامات محلية موالية تماماً للسلطات العثمانية وتأتمر بأمرها. وما محاولة فخر الدين للاستيلاء على فلسطين ، إلا نوع من الطمع والشبق في الاستحواذ على أملاك الآخرين من أمراء فلسطين المحليين.

4ـ ليس من المقبول منطقياً في العرف السياسي والعسكري أن تكون زعامة أسرة مهددة في كثير من الأحيان بعدد من المنافسين الأقوياء في منطقة ما ؛ أن تدفع عنها هذا التهديد بالتوجه نحو مناطق أخرى للاستيلاء عليها ، وفخر الدين ليس ساذجا إلى هذا الحد ليورط نفسه في مشكلات جديدة ؛ لأنه بذلك يدفع مصيره السياسي ومستقبل أسرته نحو الهاوية ؛ فالذي يتعرض لمشكلات داخلية في بلده حري به

فرّوخ بن عبد الله حاكم نابلس والقدس[40].

وكانت إمارة الحج الشامي تنتقل بين هؤلاء الأمراء المحليين ، حسب قوتهم ورضا الدولة عنهم ، ولكن فيما بعد تعرض هؤلاء الأمراء لضغط فخر الدين وقتاله لهم ، بعد أن ازدادت قوته وترسّخ نفوذه ، وكان ضغطه يخف عنهم عندما ينشغل بالقتال مع الولاة العثمانيين أو آل سيفا[41].

غير أن هؤلاء الحكام لم يكونوا على قدر من القوة الكافية لبسط نفوذهم على مساحات من الأرض ، كما كانت سلطاتهم غير ثابتة ومعرضة للتغيير من حين إلى آخر؛ بسبب سياسة الباب العالي ، وبما أن جبل لبنان وجنوبه كان يرضخ لنفوذ الأسرة المعنية التي تميّزت بطموحها السياسي الإقليمي على زمن فخر الدين الثاني؛ فإنه من الطبيعي أن تتعرض فلسطين لتجاذب القوى المحلية والإقليمية ، وأن تترك الأسرة المعنية آثارها السياسية في مساحات واسعة من أراضيها ، وبخاصة في المناطق الساحلية والشمالية[42].

ويعزو البعض السبب الذي دعا المعنيين بزعامة فخر الدين للاهتمام بمنطقة شمال فلسطين ، إلى وجود عدد من الروابط الاجتماعية والقبلية والطائفية بين المعنيين وبعض الأسر الدرزية الفلسطينية التي تقطن صفد وبعض نواحي الجليل ، حيث كان لهذه الروابط دورها وأثرها الخاص في صياغة الطموح المعني في فلسطين؛ ومن ثَمَّ في تشكيل طبيعة العلاقة السياسية التي ربطت ولازالت تربط بين الإقليمين، ويتأكد ذلك إذا علمنا أن زعامة المعنيين في لبنان نفسها كانت مهددة في كثير من الأحيان، بعددٍ من المنافسين الأقوياء سواء أكانوا منافسين قبليين أم من الطوائف الدينية الأخرى[43].

هذا السبب السابق ذكره ليس كافياً لزعيمٍ في حجم فخر الدين للاهتمام بأمور شمال فلسطين، لكي يشنّ عدة حملات متتالية كان هدفها الاستيلاء على كامل فلسطين لا الجزء الشمالي منه فحسب ، وبالإمكان إيراد بعض النقاط التي تهدم

منطقته ، وأجرى اتصالات مع آل مديتشي Midici حكّام دوقية توسكانيا Tuscany في فلورنسا[48] الإيطالية للحصول منهم على مساعدة عسكرية وفنية ، إضافة إلى تنشيط التبادل التجاري بين إمارته معهم ، خاصة تجارة الحرير، التي كانت مزدهرة في منطقة الشوف[49].

وفي ظل هذه الظروف تعرّض شمال فلسطين عند مطلع القرن السابع عشر لنفوذ الأسرة المعنية إلى حدٍ كبير ، فقد كان من أهم أهداف سياسة فخر الدين توسيع مجال نفوذه إلى ما وراء جبل لبنان ليشمل أراضيَ جبلية أخرى ، خاصة حوران في سوريا ونابلس وعجلون في فلسطين وشرقي نهر الأردن ، وكانت هذه المناطق شأنها شأن لبنان نفسه تسكنها أقوام مضطربة ومتمردة وسلطة العثمانيين عليها هشّة ، وتمكن فخر الدين من اصطناع أعوان له بين رؤساء ووجهاء تلك المناطق ودعمهم ضد منافسيهم ، مما شكّل تحديًا مباشرًا للولاة العثمانيين المتعاقبين في دمشق بعدما أصبح في مقدوره تهديد طريق الحج إلى الحجاز ، وقد واصل فخر الدين بوجه عام سياسته الشمالية بثبات بحيث لم يجعل من نفسه شخصاً غير مرغوب فيه لدى السلطات العثمانية ، لكنه تحرّك في الجنوب بصعوبة محاولاً قدر الإمكان عدم الإثارة ولفت الانتباه لما يقوم به من توسّع[50].

ومهما يكن من أمر، فقد نجح فخر الدين في استرضاء الباب العالي وانتزع ببراعته وحنكته السياسية فرماناً سلطانياً عام 1012هـ/1603م يقضي بتوليه على كل لبنان ، وعلى الأجزاء الشمالية من فلسطين وتملكه على بلاد صفد ، في مقابل تعهده للباب العالي بتقديم المستحقات المالية المترتبة عليه، بالإضافة إلى وعده للسلطان العثماني بمقاسمته في كل ما يحصل عليه من أموالٍ وغنائمٍ في حروبه المقبلة[51].

ويرى البعض أن هذا الاتفاق قد أباح لفخر الدين ولو بصورة غير مباشرة بسط نفوذه على القوى المجاورة في فلسطين ، حتى وإن كانت هذه القوى معينة من قبل الباب العالي وموالية له[52] ، غير أن هذا الرأي ينافي تماماً صحة ما سبق أن ذكرناه

معالجتها والقضاء عليها قبل التوجه للغزو خارجها ، وكما ستكشف الدراسة ؛ فإن الأوقات التي جرّد فيها فخر الدين حملاته على فلسطين وشرقي نهر الأردن كانت فيها سلطته قوية بعدما يكون قد انتصر على أحد منافسيه في لبنان أو حتى على والي الشام نفسه ، ومع هذا فإن معظم حروبه في فلسطين انتهت بهزيمته.

ومهما يكن من أمر ، فأولى اهتمامات فخر الدين لبسط سيادته علي فلسطين كانت عقب استيلائه على منطقة البقاع الغنية ، مستغلا فرصة القضاء على حكامها من آل فريخ ، فمد نفوذه من البقاع حتى صفد في شمال فلسطين[44] ، ويلاحظ هنا أن امتداد نفوذ فخر الدين إلى صفد كان ناجما عن استيلائه لمنطقة كانت تخضع لنفوذ أسرة إقطاعية (آل فريخ) كان حكمها يمتد من البقاع إلى صفد ونابلس وعجلون ، أو إن جاز التعبير، فقد ورث ممتلكات آل فريخ حتى صفد في المرحلة الأولى ، وليس بسبب ارتباطه الطائفي بإخوانه الدروز في شمال فلسطين.

وأدى زوال حكم آل فريخ الذين كانوا يشكّلون قوة عازلة بين ولاة دمشق وفخر الدين وامتداد نفوذ الأخير على البقاع إلى ازدياد الاحتكاك والمنافسة بين الطرفين، خاصة وأن المناطق التي أصبح فخر الدين يسيطر عليها كانت تمر فيها الطرق الرئيسة التي تربط بين دمشق والساحل ، وبين دمشق وفلسطين ومصر؛ ومن ثَمَّ تتحكّم في سلامة قافلة الحج الشامي ، ومن ثمّ بدأت المشاحنات والصراعات بين فخر الدين وولاة دمشق[45].

ورويداً رويداً ، رسّخ فخر الدين موقعه السياسي باللعب بمهارة على وتر جشع وخلافات نُخب الحكم العثماني. وكانت سياسة «فرّق تسُد» إحدى السياسات التي مارسها بدقة فائقة ، بل وأكثر انتظاماً مما مارسها العثمانيون أنفسهم ، حيث كان أعوانه ووكلاؤه في الآستانة يسارعون في إحباط وتفادي أية معارضة من جانب مسئولي الدولة بالرشاوى الباهظة[46] ، كما أنه عمد إلى تكوين جيشٍ خاصٍ من السكّبان[47] المرتزقة ، إضافة إلى أتباعه من الدروز والقيسية ، وحصّن القلاع في

لم يكن وقتذاك ذا نعرة طائفية بقدر ما كان تنافس على الإقطاع والسلطة والنفوذ والمطامع التوسعيّة بين القوى المحلية المنقسمة إلى حزبي القيسية واليمنية.

ويبدو أن الأمير أحمد بن طراباي رغم مناصرته للعثمانيين في حربهم ضد ابن جنبلاط ، قد آثر عدم الانضمام إلى حملة مراد باشا والي دمشق على الأخير، معتذراً عن السفر ومكتفياً بإرسال رسول وهدية ، بعدما رأى أن لا مصلحة له في حرب بعيدة عن حدوده ، خاصة وأن خطر فخر الدين محدق به وأطماعه مجاورة له، بعد أن مدّ الأخير نفوذه على سناجق صيدا وبيروت وغزير[55].

ولمواجهة الخطر الذي شكله فخر الدين على نفوذ العثمانيين في فلسطين ، وللحد من نفوذه المتصاعد ، عيّن الباب العالي والياً جديداً على دمشق عام 1018هـ/1609م هو أحمد باشا الحافظ ، الذي جعل كل همّه مقاومة فخر الدين ، وقد بدأ أحمد باشا عهده بإثارة الأمراء المحليين المعادين لفخر الدين ضده[56] ، مع العلم أنه نادراً ما كان يحدث اتفاق وإجماع بين مناوئي فخر الدين المحليين ووالي دمشق والحكومة المركزية في الآستانة ، وقد أدّى هذا الاتفاق إلى إمكانية وجود عمل جماعي مؤثر ضد فخر الدين[57].

عمد أحمد باشا الحافظ إلى تشجيع آل سيفا حكّام طرابلس وأثار الاضطرابات ضد فخر الدين في منطقتي البقاع وعجلون الخاضعتين لسيطرته ونفوذه ، كما حاول القضاء على حلفاء فخر الدين مثل الأمير يونس الحرفوش حاكم بعلبك والأمير أحمد الشهابي حاكم وادي التيم ؛ لكنه فشل في مسعاه بعدما أرسل فخر الدين النجدة لهما.

هذا الفشل الذي لقيه أحمد باشا دعاه إلى طلب مقابلة الصدر الأعظم نصوح باشا في حلب - الذي كان بدوره معادياً لفخر الدين - والاشتكاء له من تصرفات فخر الدين ، وممن رافق الوالي في المقابلة المذكورة الأمير فرّوخ بن عبد الله الذي أنعم عليه نصوح باشا بسنجقية نابلس وعجلون والكرك عوضاً عن حمدان بن قانصوه[58]،

آنفاً، من أن تقدم فخر الدين نحو فلسطين واصطناعه للأعوان بين زعمائها ، قد أثار حفيظة ولاة دمشق العثمانيين ؛ نظراً للتهديد المباشر الذي سيشكّله فخر الدين في حال نجاحه في مشروعه التوسعي من تهديد لطريق قافلة الحج الشامي، ناهيك من مصلحة السلطان العثماني في ذاك الوقت ، التي تقتضي استقرار الأوضاع الأمنية في منطقة حساسة بالنسبة لإمبراطوريته وتعتبر من أهم مفاصلها الرئيسة، خاصة وأن الصراع العثماني ـ الصفوي مازال مستعراً ، من هنا، فإن مصلحة العثمانيين اقتضت دعم أعوانهم في فلسطين لا إثارة قوى جديدة ضدهم، وهو ما حدث بالفعل كما قررت المصادر التاريخية ، الأمر الذي سوف نفصله لاحقاً.

وسرعان ما توترت العلاقات بين فخر الدين والدولة العثمانية بعد صلحها مع النمسا عام 1015هـ/1606م ، وقضائها على تمرد علي باشا جنبلاط ـ الذي كان متحالفاً مع فخر الدين ـ في شمال سوريا في العام التالي ، فكلّفت ولاة دمشق بالتصدي له خوفاً من استشراء نفوذه، وتهديده للطرق الرئيسة ، بالإضافة إلى خشية الدولة من طعنه لها في الخلف في أثناء انشغالها في حروب الصفويين[53].

والظاهر أن الأمير أحمد بن طراباي الحارثي حاكم اللجون أقحم نفسه في الصراع الذي دار بين العثمانيين ومعهم يوسف باشا سيفا والي طرابلس وعلي باشا جنبلاط ؛ فبعد هزيمة يوسف باشا أمام قوات ابن جنبلاط قرب حماة 1015هـ/1606م استقبله الأمير أحمد بكل حفاوة وإكرام ، ورفض تسليمه لابن جنبلاط ؛ لأن ابن سيفا كان حليفه الطبيعي تجاه مطامع فخر الدين في الأجزاء الشمالية من سورية الجنوبية ، وبصفة خاصة بعدما استولى فخر الدين على سنجق صفد ، وأظهر طمعه بسنجق عجلون ، إضافة إلى أن هذا التصرف من جانب ابن طراباي كان منسجماً مع ميوله اليمنية مقابل ميول فخر الدين القيسية ، وأخيراً موالاته للسلطة العثمانية مقابل تمرد فخر الدين عليها[54].

وبناءً على ما سبق ؛ فإن الصراع في بلاد الشام عامة وفي لبنان وفلسطين خاصة

تصرف عائلته [61].

ترتب على فرار فخر الدين إلي إيطاليا أن ولّت الدولة العثمانية على صفد بستانجي حسن باشا ، بالإضافة إلى صيدا وبيروت وغزير في جمادى الأولى 1023هـ/1614م ، كما حاولت الدولة في العام نفسه إجراء تنظيم إداري جديد في ولاية دمشق ، فاقتطعت ناحيتي صيدا وبيروت ولواء صفد وشكّلت منهم ولاية جديدة عُرفت باسم «ولاية صيدا» ، لكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح، فصرفت الدولة العثمانية النظر عنها وأعادت الولاية الجديدة إلى ما كانت عليه في السابق من حيث تبعيتها لولاية دمشق [62].

لم يؤدِ اختفاء فخر الدين المؤقت عن الساحة اللبنانية إلي خفت وميض المعنيين السياسي ، فقد واصل الأمير علي بن فخر الدين سياسة والده التوسعية لاستعادة ما تم فقدانه ، وانتهز فرصة تعيين والٍ جديد على دمشق نشانجي أحمد باشا عام 1027هـ/1617م ، فطلب منه سنجقية صفد كما كانت قبل سفر والده إلى أوروبا ، فأصدر فرمانًا سلطانيًّا بتقرير سنجق صفد وصيدا وبيروت وغزير للأمير علي[63].

ويبدو أن حكّام فلسطين المحليين قد تنفسوا الصعداء خلال فترة السنوات الخمس التي قضاها فخر الدين في أوروبا ، فاستراحوا خلالها من الضغوط التي كان يمارسها عليهم ، كما أن ابنه الأمير عليًّا كان مشغولاً بترتيب بيته من الداخل. وعلى أية حال ، فخلال الفترة التي أمضاها فخر الدين في أوروبا، كان الوضع في الدولة العثمانية قد بدأ يتغيّر لصالحه ، فعدوه اللدود نصوح باشا عُزل عن الصدارة العظمى ، وأحمد باشا الحافظ والي دمشق ترك منصبه ، والدولة نفسها منهمكة في حروبها مع الصفويين ، وبوساطة مستشاره والأمير يونس الحرفوش أمير البقاع حصل من الدولة العثمانية على عفو ، وعاد إلى لبنان عام 1027هـ/1618م[64].

وتجدر الإشارة إلى أن عودة فخر الدين من أوروبا لم تكن مباشرة إلى أحد المرافئ اللبنانية كصيدا أو بيروت ، وإنما رست السفينة التي أقلته في مرفأ عكا[65]

كما عزل الصدر الأعظم الشيخ عمرو شيخ عرب المفارجة عن بلاد حوران وأعطاها للشيخ رشيد شيخ عرب السرديّة ، ما دعا الزعيمين المعزولين لطلب النجدة والمساعدة من فخر الدين، لكنه تلكّأ في نجدتهما وطلب منهما إمهاله بعض الوقت لتسوية الأمر مع الصدر الأعظم[59].

ويبدو أن الأمير فخر الدين واجه ضغوطاً من جانب رجال حاشيته، فاضطر إلى تجريد حملة عسكرية جعل قيادتها لولده الأمير علي، ذي الخمسة عشر عاما ، فتمكن من إلحاق الهزيمة بفرّوخ وعرب السرديّة في المزيريب بأرض حوران في غرة ربيع الآخر 1022هـ/1613م ، ونجح الأمير علي وأعوانه من دخول عين جالوت في بلاد عجلون ، فأعاد الأمير حمدان بن قانصوه إلى عمله السابق في سنجقية عجلون[60].

ولما كان الوقت في غير صالح فخر الدين بعدما تكالبت القوى المعادية له لا للحد من نفوذه فحسب ، بل للقضاء المبرم عليه وعلى إمارته ، فقد أصدرت السلطات العثمانية الأوامر لأحمد باشا الحافظ بالزحف على فخر الدين ، وانضم إليه الأمراء المحليون كالأمير فرّوخ ، والأمير أحمد بن طراباي ، وآل سيفا ، ومدّه السلطان بقواتٍ من حلب والأناضول ، كما أرسلت مجموعة من السفن الحربية إلى الساحل اللبناني، فاكتسحت القوات العثمانية فخر الدين.

ولما رأى فخر الدين أن لا طاقة له بالتصدّي لقوة والي الشام وحزبه ، ورأى شدة حصاره لقلعة الشقيف في جنوب لبنان المحصنة ، وإلى إرساله لقوات أخرى ضد الشوف نفسه معقل فخر الدين، إضافة إلى تيقّن الأخير من عجز حلفائه وعدم اكتراثهم به وبمصيره ، عند ذاك اضطر إلى التوجه إلى صيدا ، ومنها سافر بحراً إلى ليغهورن (Leghorn) أحد مرافئ دوقية توسكانيا الإيطالية في غرة شعبان 1022هـ/أيلول (سبتمبر) 1613م حيث ظل فيها مدة خمسة أعوام عند أصدقائه من آل مديتشي ، وخلفه ابنه الأمير علي في إمارة الشوف بمساعدة عمه الأمير يونس المعني ، وبهذا التصرف أنقذ فخر الدين الإمارة المعنية من الانهيار لتبقى تحت

التي افتقدها من قبل.

ومهما يكن من أمر، فقد بدأ فخر الدين إثر عودته من أوروبا بتوطيد سلطته من جديد ، فاهتم بتطوير اقتصاديات بلاده ، خاصة في مجال الزراعة، واستخدم عائدات الجمارك في بيروت وصيدا لتمويل جيشه(67) ، وعمد بعض مناوئيه إلى استرضائه، فأرسلوا له الهدايا كالأمير أحمد بن طراباي، والأمير أحمد بن حمدان ابن قانصوه، والأمير أحمد بن الحرفوش ، ويوسف باشا سيفا ، وقد قبل فخر الدين جميع الهدايا المقدمة له من الأمراء عدا هدية يوسف باشا التي ردّها عليه(68)، تعبيراً عما يكّن في صدره من عداوة له.

ويؤخذ على فخر الدين أنه بدأ العمل بنشاط وهمّةٍ لتحقيق أهدافه القديمة متبعاً الأسلوب القديم الذي كان قد اتبعه من قبل(69) ، ففي غرة رجب 1028هـ/1618م عزل العثمانيون الأمير أحمد بن حمدان بن قانصوه عن سنجق عجلون ، كما عزلوا الشيخ عمرو عن مشيخة حوران ، وولوا مكانهما ابن قلاوون وهو من أصل تركي والشيخ رشيد ، واضطر الأميران المعزولان إلى طلب النجدة من فخر الدين لإعادتهما إلى منصبيهما السابقين ، فنجح في استصدار فرمان من الباب العالي بهذا الشأن في شوال من العام نفسه(70).

ويبدو أن الأمير أحمد بن طراباي قد شعر في تلك الأثناء بأن موازين القوى آخذة في التغيير لصالح فخر الدين ، فبعد نجاح الأخير في مسعاه السابق بإعادة أعوانه إلى مناصبهم ، انتهز فرصة وجود فخر الدين في تل الهريج بالقرب من صفد ، وأرسل إليه ابنه الأمير طراباي ومعه هدية قبلها فخر الدين ، فازدادت بينهما أواصر الألفة والمودة(71).

وفي عام 1030هـ/1620م وفي أثناء وجود الأمير فرّوخ أمير الحج الشامي في الآستانة بدعوة من السلطان عثمان الثاني ، كلّفه السلطان المذكور ببناء قلعة في الطريق الذي تسلكه قافلة الحج يُسمى «المُعظّم» ، ورصد لذلك المشروع خمسين ألف

الفلسطيني ، وقد يحتار المرء لهذا التصرف من جانب فخر الدين ، فيقيناً هو يعلم مسبقاً بأن بيروت وصيدا تخضعان لنفوذ ابنه «علي» ، ومن ثَمَّ فبإمكانه النزول في إحدى هاتين المدينتين، ويرى الباحث أن اختيار فخر الدين لعكا لتكون أول بقعة تطؤها قدمه بعد عودته من منفاه الاختياري ، لها رمزية خاصة لديه ، تبيّن أهمية فلسطين في مشروعه التوسعي سواء كان قبل مغادرته إلى أوروبا أو في مخطّطاته اللاحقة التي نوى أن يشرع في تنفيذها ، هذا من جانب، أما من جانب آخر ، فهي توضح بجلاء أن عكا وقتذاك كانت تحت سيطرة ابنه الأمير علي ، وفخر الدين يقيناً على علمٍ بذلك مسبقاً.

وللتدليل على صحة ما سبق الإشارة إليه ، فقد أوردت بعض المصادر التاريخية ، أن فخر الدين لما نزل عكا سأل عمن يحكم في تلك المنطقة ، فأخبره مستقبلوه بأن ولده عليّاً هو الحاكم فيها ، وأنه يقوم الآن بجولة في قرية أبي سنان الفلسطينية ليجمع المال منها ، فأرسل فخر الدين في استدعائه[66].

والحقيقة أنه رغم التأكيد بأن المرفأ الذي نزل فيه فخر الدين هو عكا ، لكن من غير المعقول هو تصديق ما أورده كلٌّ من الخالدي الصفدي وحيدر الشهابي من عدم معرفة فخر الدين لحاكم عكا وقتذاك، الأمر الذي يدعو للحيرة واللبس ، فالمنطق يحتم علينا الجزم بمعرفته المسبقة لهذا الحاكم قبل أن تطأ قدماه منطقة نفوذه لسببين اثنين هما:

1- يُفترض أن عودة فخر الدين من منفاه الاختياري إلى الشرق قد تمت بتنسيق مسبق مع أعوانه وعلى رأسهم ولده «عليٌّ».

2 - لو لم يكن يعلم أن ابنه «عليًّا» هو الحاكم الفعلي لعكا ، لما أقدم على هذا الأمر خشية وقوعه في أيدي أعدائه من زعماء فلسطين المحليين.

وما أورده الخالدي الصفدي وحيدر الشهابي لا يعدو أكثر من مبالغة لإظهار فخر الدين بمظهر الزعيم القوي الذي لا يخشى بأس أعدائه ، والعائد لاسترداد ممتلكاته

في ذي القعدة 1031هـ/1621م على الأمير بشير، ضمت الأمير قاسم ابن الأمير علي الشهابي، والأمير طراباي ابن الأمير أحمد بن طراباي ، فلما سمع الأمير بشير بوصول التحالف المذكور إلى جسر المجامع هرب مع الشيخ رشيد ، واستعاد أحمد بن قانصوه سنجقية عجلون الذي قام فيما بعد - اعترافاً منه بالجميل - بتأجير منطقة الغور الغربي نواحي بيسان للأمير علي بن فخر الدين[74].

أضحت قوة فخر الدين طاغية لدرجة أن والي دمشق في العام التالي التمس منه تقديم إعانة مالية لقافلة الحج والخروج لملاقاتها في طريق عودتها، كما منحه سنجقية عجلون باسم ابنه الأمير حسين بعد أن كان قد قنط تماماً من حصوله عليها . ويبدو أن الأمير أحمد بن قانصوه قد قبِل هذا الأمر مُكرهاً ، وفي ذلك يقول الخالدي الصفدي : «وكان جواب الأمير أحمد السمع والطاعة لله ولرسوله ولولي أمره ، ولكن كأنما في قلبه الجمر. وقال: أنا أولاً وآخراً منك وإليك وبسنجق وغير سنجق محسوب عليك» . ثم غادر عجلون وتوجه بأهله إلى بلاد حوران في ضيافة الشيخ حسين بن عمرو[75].

ولما كان الأمير فرّوخ حاكم نابلس قد تُوفي في مكة في أثناء قيادته لقافلة الحج الشامي في 1030هـ/1621م ، أصدر الصدر الأعظم «مرّه حسين» أحكاماً بتعيين محمد بن فرّوخ محل أبيه ، لكن مصطفى باشا والي الشام رفض التصديق على تلك الأحكام ، ما دعا ابن فرّوخ للتوجه للآستانة للمطالبة بحقه بسنجقية نابلس حتى تمكن من الحصول عليها ، لكنه لم يهنأ طويلاً بمنصبه الجديد، فسرعان ما سيحصل الأمير حسين بن فخر الدين على فرمانٍ بتوليه سنجقي نابلس وعجلون. ومرة أخرى توجه ابن فرّوخ إلى الآستانة وحصل من الصدر الأعظم على قرارٍ بتوليه إمارة الحج وتقرير سنجق نابلس عليه ، كما تم منح سنجق عجلون للأمير بشير بن قانصوه ، وصفد لبوستانجي باشا رغم محاولات فخر الدين الحثيثة ؛ للحصول على حكم هذه السناجق[76].

غرش ، وانتهز فرّوخ باشا تلك المناسبة والتمس من السلطان تعيين الأمير بشير عم الأمير أحمد بن قانصوه حاكماً على سنجق عجلون؛ لكونه أحد مرافقيه وحلفائه ، ليساعده على بناء القلعة ، وتعيين الشيخ رشيد لمشيخة حوران ، فتم له ذلك.

ومرة أخرى استنجد الأمير أحمد بن قانصوه والشيخ عمرو بالأمير فخر الدين لمساعدتهما على العودة إلي منصبيهما ، لكنه هذه المرة كان حازماً في رفضه لطلبهما خشية اتهامه بتعطيل بناء القلعة التي أوكل لفرّوخ باشا بإنجازها من جهة، وللبرود الذي كان قد اكتنف علاقته بالأمير أحمد والشيخ عمرو بسبب قتل فخر الدين لسلطان كتخدا الأمير أحمد ، فاضطرا إلى التوجه إلى بلاد الأمير أحمد بن طراباي حيث توفى الشيخ عمرو في دياره ، ثم توجه ابن قانصوه إلى الآستانة الآستانة في محاولة لاستعادة سنجقه[72].

وتلاحقت الأحداث فيما بعد بصورة دراماتيكية بين مدٍ وجزر بين القوى المحلية في ادعاء كل منها بملكيته للسناجق. فالأمير أحمد بن قانصوه نجح في الحصول على قرارٍ بعودته إلى سنجق عجلون، لكن باشا دمشق لم ينفذه لحلول موعد خروج قافلة الحج الشامي ، وخشيته من عزل الأمير بشير والشيخ رشيد في ذلك الوقت حتى لا يعطّلا سير القافلة ، وهو الموقف نفسه الذي سلكه فخر الدين معه عندما استنجد به ، وكان فخر الدين يحاول قدر الإمكان تعطيل تسلّم الأمير أحمد بن قانصوه لسنجق عجلون طمعاً منه بمنحها لابنه الأمير حسين[73].

توجه الأمير أحمد بن قانصوه إلى ديار الأمير أحمد بن طراباي مرة أخرى طلباً للاستقرار فيها ، وخلال إقامته عند ابن طراباي تعرّض لهجومٍ من جانب عمه الأمير بشير ، فتضايق ابن طراباي من تلك الفعلة وكتب لفخر الدين ملتمساً منه مساعدة أحمد بن قانصوه على استعادة سنجقه ، ويبدو أن فخر الدين قد يئس من وصول فرمان من الآستانة بمنحه سنجقية عجلون لابنه حسين ، فخشي من وجود أعداء مجاورين لمناطق نفوذه ، وقرّر بالفعل مساعدة أحمد بن قانصوه وجرّد حملة

فقتله ولجأ أعوانه الباقون إلى برج حيفا ثم فرّوا بحراً إلى عكا ، كما تلاحقت إغارات أحمد بن طراباي ضد أتباع فخر الدين ، خاصة في قرية كفر كنّا[79].

تلاحقت الأحداث وبدأت الأمور تتجه نحو أزمة جديدة، فالعداوات القديمة بين فخر الدين والأمير يونس الحرفوش زعيم البقاع اندلعت من جديد ، وكان الأمير يونس في وضعٍ سيئ ، وتمكن فخر الدين من الاستيلاء على بلدة قب الياس الاستراتيجية التي من خلالها بسط تحكمه على الطريق الرئيس المهم الذي يربط دمشق ببيروت ، علماً بأن الأمير يونس هذا كان حليفاً لفخر الدين من قبل وساعده على العودة إلى لبنان بعد توسطه لدى الباب العالي ، ولكنها السياسة بكل تقلباتها.

أدى ازدياد قوة فخر الدين إلى تنبيه مصطفى باشا والي دمشق الذي عمل على التحالف مع الأمير يونس الحرفوش ويوسف باشا سيفا للإطاحة بغريمهم ، ومهما يكن من أمر، فقد نجح فخر الدين في بادئ الأمر عن طريق إغداق الرشاوى الباهظة على حاشية الباب العالي في الآستانة ، في الحيلول دون تدخّل الحكومة المركزية، كما تمكن كذلك من تثبيت امتلاكه لصفد ونابلس وعجلون[80].

غير أن سياسة الباب العالي المعتدلة تجاه فخر الدين لم تستمر طويلاً لصالحه فقد أعاد الأخير صلاته بحكومة توسكانيا وسمح لتجارها بالنزول في موانيه ، وأعاد جيش السكّبان الذي بلغ مائة ألف من شعوبٍ شتى ، عندئذ منح الباب العالي الإذن لوالي دمشق وحلفائه بمهاجمة فخر الدين لتحجيم دوره ، وفي هذا السياق دارت معركة شهيرة في تاريخ لبنان الحديث ، هي موقعة عنجر عام 1033هـ/1623م هُزم خلالها مصطفى باشا وتم أسره ، أما حلفاؤه فقد دُحروا وتشتت فلولهم تماماً ، ثم أطلق سراح الباشا - بوساطة وفدٍ من علماء دمشق - الذي اضطر فيما بعد للاعتراف بسلطة فخر الدين وممتلكاته ، وبذلك بلغ نفوذه الذروة[81].

كانت موقعة عنجر علامة فارقة في تاريخ فخر الدين الثاني ، فآل سيفا قبِلوا أخيراً الخضوع المطلق لسلطته وتقديم المال إليه بعد استيلائه على عكار وهدم

استمر فخر الدين في مناصرة أعوانه في فلسطين وشرقي نهر الأردن ، خاصة وأن الخلافات قد عادت إلى السطح بين الأمير أحمد بن طراباي وفخر الدين عام 1032هـ/1622م عندما ساند الأول الأمير يونس الحرفوش في صراعه ضد فخر الدين ، وعندما شعر ابن طراباي بأطماع فخر الدين التوسعيّة ، رغم محاولات ابن طراباي الإصلاحية بين الشيخ عاصي أحد مشايخ نابلس ومصطفى كتخدا أحد أعوان فخر الدين ، ونجاحه في إيقاف الاقتتال بينهما ، كما مدّ ابن طراباي حكمه على بلاد عجلون وإربد ونابلس، وأعطى الحكم فيها لمشايخ موالين له في المناطق المجاورة ، فاضطر فخر الدين لمهاجمة الأراضي الخاضعة لحكم أحمد بن طراباي واستولى على برج حيفا ، وأمر بإحراق قرى الكرمل ، وإزاء هذا الاجتياح المدمّر رحل ابن طراباي والأمير بشير بن قانصوه باتجاه نهر العوجا على حدود غزّة[77].

حاول فخر الدين التوغّل جنوباً للحاق بابن طراباي ، وتمكن من إحراز نصر مؤقت، إلى أن دارت رحى معركة عنيفة اشترك فيها عرب المفارجة إلى جانب فخر الدين ، وعرب السوالمة إلى جانب ابن طراباي ، حقق الأخير فيها نصراً مدوّياً ، واسترجع وحلفاؤه ما سبق أن فقدوه ، بل ولاحقوا فلول جيش فخر الدين ، وألحقوا به الكثير من الإصابات رغم محاولات المؤرخ الخالدي الصفدي التقليل من شأن هذا الانتصار بقوله: «وصارت هزيمة من جانب الحق سبحانه وتعالى ، وليس هذا ما يعيب الأمير فخر الدين؛ لأن الحرب سجال تارة وتارة والرجال في الحرب لم تزل غدارة...»[78].

وفي الوقت الذي كانت فيه ممتلكات فخر الدين في لبنان مهددة من جانب يوسف باشا سيفا والأمير يونس الحرفوش اللذين بدأا بمهاجمتها مستغلين فرصة عدم وجود فخر الدين فيها ، قرر الأخير العودة لمواجهة الموقف الجديد ، وفي أثناء ذلك أغار الأمير علي بن طراباي شقيق الأمير أحمد، على ساحل عكا ، وفي طريق عودته إلى بلاده مرّ بحيفا واصطدم بأحد أعوان فخر الدين ، نصوح بلوكباشي وسكمانيته،

فخر الدين وولده الأمير عليًّا، ولما كانت تكاليف القتال باهظة على الطرفين المتحاربين قررا التعايش وفتح صفحة جديدة من الوفاق السلمي أو ما يُصطلح على تسميته في التاريخ المعاصر بالحرب الباردة ، وقامت بين الطرفين مفاوضات أسفرت عن صلحٍ في شوال من العام نفسه ، من أهم شروطه أن تنسحب قوات فخر الدين من حيفا وبرجها بعد هدمه ، وأن يمنع ابن طراباي عربانه عن تخريب بلاد صفد التابعة لفخر الدين ، كما يتعهد أيضاً بتأمين الطريق بين بلاد صفد وبلاد حارثة ، وتخلّى فخر الدين عن جبل نابلس لابن طراباي ، واعترف بامتداد حدود سلطته إلى حيفا ، وبذلك لم يعُد أي من الطرفين يتعرض للطرف الآخر[85].

ويبدو أن المتاعب التي واجهت فخر الدين في فلسطين وشرقها قد ازدادت فيما بعد ، ففي العام نفسه تعرضت قلعتا الصلت وعجلون لخطر داهم من جانب الأمير بشير بن قانصوه بعدما فرض عليهما حصاراً خانقاً ، دعا القائمين على أمرها لتسليمهما له ، ولما كان الأمير بشير يدرك أن فخر الدين لن يدعه يهنأ بما حصل عليه من مكاسب أرسل في طلب الصلح معه ، وبعد المباحثات التي تمت بين الطرفين، اتفقا على أن يكون الأمير بشير حاكماً على سنجق عجلون نائباً عن الأمير حسين بن فخر الدين[86].

وبحلول عام 1034هـ/1624م استتب الأمر لفخر الدين في فلسطين وما جاورها بعد تيقنه من استمرار أواصر المودة وعلاقته الحسنة بالأمير أحمد بن طراباي ، وبشير ابن قانصوه ، واحتفاظ ابنه الأمير علي بسنجق صفد الاستراتيجي ، ووفاة منافسه التقليدي يوسف باشا سيفا[87] ، هذا الأمر جعل العثمانيين في موقفٍ صعب لا قِبل لهم بمواجهته بسبب انشغالهم آنذاك بمحاربة الصفويين، لذلك اضطر السلطان مراد الرابع إلى الاعتراف بسلطة فخر الدين ومنحه فرماناً ولاه بموجبه على بلاد عربستان[88] من حدود حلب إلى القدس ، كما منحه لقب سلطان البر - الذي حمله جدّه فخر الدين الأول من قبل - شريطة أن يقوم بتقديم مال الميري لخزينة الدولة ،

قلعتها، ومدّ نفوذه شمالاً حتى حدود إنطاكية[82] ، أما الوضع في فلسطين فكان مختلفاً تماماً ، فالأمراء المحليون فيها رفضوا الانصياع والرضوخ لسلطته ، فهاجم أحمد بن طراباي في العام نفسه أعوان فخر الدين الذين يتولون السناجق الفلسطينية وشرقي نهر الأردن وحوران ، واستولى على ممتلكات الأمير أحمد بن قانصوه حاكم عجلون والشيخ حسين بن عمرو حاكم حوران ومنح سناجقهما للأمير بشير عم أحمد بن قانصوه والشيخ رشيد ، غير أن فخر الدين لم يُسلّم للأمر الواقع بل ساعد أعوانه على استرداد أملاكهم فيما بعد[83].

وتمكن فخر الدين من الحصول على قلعة الصلت (السلط) وعيّن فيها نائباً عنه، كما استولى على نابلس وعزل محمد بن فرّوخ عنها ، وبلغ الأمر بفخر الدين مداه بعدما حصل لابنه الأمير منصور على سنجق اللجون بما فيه مدينة جنين مركز آل طراباي الرئيس ، الأمر الذي لم يتقبله الأمير أحمد بن طراباي فكانت ردة فعله أن شكّل تحالفاً من عرب السوالمة وخيالة نابلس وبلاد عجلون والغور بقيادة محمد بن فرّوخ وعرب غزّة الخاضعين لسلطة حسن باشا رضوان حاكم غزّة ، لمهاجمة حلفاء فخر الدين من عرب المفارجة ، كما هاجم سواحل عكا وأعمل فيها النهب والتخريب، واستمرت المعارك بين الطرفين سجالاً، وأثبتت القبائل العربية بإمرة ابن طراباي ومؤيديه صلابة في المقاومة تجاه فخر الدين وقواته من السكمانية المرتزقة ، خاصة في الموقعة التي دارت عند نهر العوجا قرب يافا عام 1033هـ/1623م ، التي انتصر فيها ابن طراباي واسترجع مدينة جنين ، وألحق الكثير من الخسائر في جيش خصمه ، وقد أشار المؤرخ المحبي لهذه الموقعة بقوله: «أشهر وقعاته (أي أحمد بن طراباي) وقعة يافا ، ومعه حسن باشا (رضوان) حاكم غزة ، والأمير محمد بن فرّوخ أمير نابلس ، فقتل من جماعة معن مقتلة عظيمة»[84].

وتوالت هجمات أحمد بن طراباي على ممتلكات الأمير فخر الدين وتخريبها ، واستولى على قرية أبي سنان التابعة لسنجق عكا ، وحقق عدة انتصارات أذهلت

انتقاله إلى كهفٍ حصين قرب جزّين ، حتى تمكن العثمانيون أخيراً من إلقاء القبض عليه وإرساله إلى الآستانة أسيراً ، ثم إعدامه فيها في 13 نيسان (إبريل) 1635م/1045هـ[92].

أدّى القضاء على فخر الدين وحركته الانفصالية الطموحة لإقامة كيان مستقل عن الدولة العثمانية إلى حدوث فوضى شاملة في لبنان وفلسطين ؛ ففي لبنان تجددت العداوات القديمة بين الأسر الإقطاعية التي كانت تخضع لسلطة المعنيين[93]، كما عمد العثمانيون إلى فصل صيدا عن دمشق ، وجعلوا منها ولاية مستقلة عام 1071هـ/1660م لمراقبة شئون لبنان ، وتم فصل بيروت كذلك وألحقوها بدمشق ، ولم يظهر في البيت المعني شخصية قوية من طراز فخر الدين الثاني تواصل سياسته[94]، أما في فلسطين، فقد كان فخر الدين قد أضعف في أثناء فترة حكمه بطريقٍ مباشر أو غير مباشر ، الأمراء المحليين فيها ، وبعد مقتله كانت بعض هذه الأسر الحاكمة قد تلاشت على يديه ، في حين بعضها الآخر كان في طريقه للانحلال بفعل تأثيره[95].

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الأسر الحاكمة في فلسطين تصرّفت طوال فترة حكم فخر الدين تصرف الندّ له ، خاصة الأمير أحمد بن طراباي الذي كانت ممتلكاته مجاورة لمناطق نفوذ فخر الدين من ناحية ، ولأنه هو الآخر كانت له مطامحه في السيادة على الجزء الشمالي من فلسطين كله ؛ فكان بذلك شوكة في خاصرة فخر الدين ومنافساً له[96].

وبمقتل فخر الدين الثاني انتبهت الدولة العثمانية لجنوب الشام ولطريق الحج التي تعطّلت بسببه ، فأرسلت حملة بقيادة عبد الله باشا النمر أحد قادة منطقة نابلس ، حيث تمكن هو وأولاده وأحفاده فيما بعد من إقامة إمارة مستقرة ، موالية للحكم العثماني[97].

وفي هذا المضمار تجدر الإشارة أيضاً إلى عدة عوامل دفعت الأمراء المحليين في فلسطين للنفور من سيطرة فخر الدين عليهم ، منها:

وأن يحافظ على الأمن في منطقته ، هذا الفرمان المهم حصل عليه فخر الدين مقابل ما دفعه من ثمنٍ غالٍ ومرتفع[89].

استمرت سياسة الوفاق بين فخر الدين وأحمد بن طرباي حوالي عشرة سنوات، لكن التوتر عاد بينهما عام 1043هـ/1633م عندما حرّض الأمير علي بن فخر الدين عرب الوحيدات ضد آل طرباي ، ويبدو أن فخر الدين كان على دراية بما قام به ولده، فردّ آل طرباي بمساعدة الأمير محمد بن فرّوخ بمهاجمة بلاد صفد التابعة للأمير علي ونهبها ، وكان والي دمشق أحمد باشا كوجك قد لعب دوراً مشبوهاً في تأجيج التوتر بين القوى المحلية من جديد ، مما أدى إلى مقتل الأمير علي بن فخر الدين[90] ، والظاهر أن المهمة التي قام بها والي دمشق جاءت كرد فعل من جانب الباب العالي لعدم سماح فخر الدين لفرقة عسكرية عثمانية كانت متجهة لحرب الصفويين عام 1041هـ/1631م من قضاء فصل الشتاء في دياره ، بل وصل الأمر إلى طرده لهذه الفرقة بقوة السلاح[91].

شعر فخر الدين أن ساعة الحسم بينه وبين السلطات العثمانية قد حانت ، فبدأ بتعزيز دفاعاته ، فبنى حصناً في المنطقة الواقعة بين حلب وإنطاكية ، وحُصناً أُخر في قب الياس في البقاع ، وبانياس في الجنوب ، وتدمر ما زال يُعرف باسمه ، وإذا كان السلطان مراد الرابع قد اضطر في بداية عهده إلى منح فخر الدين سلطات واسعة في بلاد الشام ، لِصغر سنه ؛ لكنه عمد فيما بعد إلى إحكام سيطرة الدولة وإبراز هيبتها بعدما بدت عليها بعض الإشارات التي تنمُّ عن تجديد حيويتها ، وبعدما خشي من الترتيبات الدفاعية التي قام بها فخر الدين، واستمرار اتصالاته مع الأوروبيين. تلك الأمور مجتمعة دعت السلطان مراد الرابع إلى توجيه أمرٍ لأحمد باشا كوجك عام 1043هـ/1633م بالتوجه إلى قتال فخر الدين على رأس جيشٍ كبير من جنود الأناضول ومصر ، كما أرسل أسطولاً بحرياً لمهاجمة المرافئ والحصون الساحلية ، مما أدى لهزيمة فخر الدين واختبائه في قلعة نيحا بضعة أشهر ثم

كنيستها القديمة المعروفة بالسانتا، وبناء دير بالقرب منها ؛ ولكن في عام 1040هـ/1630م قبيل القضاء على فخر الدين ، بدأت أحوال المسيحيين في الناصرة بالتدهور نتيجة لاستيلاء آل طراباي على جزءٍ كبير من الجليل ، حيث شرعوا في مضايقة الرهبان نكاية بفخر الدين[104].

خاتمة الدراسة

نستطيع القول ، إن طموح فخر الدين المعني الثاني لإقامة إمارة إقليمية يكون هو زعيمها ، لم تكن وليدة الصدفة أو نتاج التراكمات السياسية التي جعلت من بلاد الشام عامة ولبنان وفلسطين خاصة مرتعاً للكثير من الحكّام المحليين الذين كان كلٌّ منهم يحكم منطقة بعينها ، لكن هذا الطموح كان بالدرجة الأولى يعود لخططٍ طموحة من جانب أسلافه ، كجده فخر الدين المعني الأول ثم والده قرقماز ، وعلى الرغم من أن أسلافه فشلوا مبكراً في تحقيق أي من أهدافهم ، نجد أن فخر الدين الثاني تمكن من تحقيق كل النجاح في لبنان ، وقضى على منافسيه الأقوياء ، وحقق بعض النجاحات المؤقتة في فلسطين ، لكنه لم يستطع فرض كامل سلطته عليها.

والسبب المباشر والرئيس لاهتمام فخر الدين الثاني بالتوسع في فلسطين لا يعود في المقام الأول لدوافع طائفية كما ذكر البعض ، وإنما لأسباب حزبية بحتة ، ولا سيما الصراع بين الحزبين الرئيسين في بلاد الشام ، القيسي واليمني ، حيث اشتعلت أوار الحروب والمنازعات بين هذين الحزبين من أجل سيادة النظام القبلي ، خاصة في لبنان وفلسطين.

وأثبتت الدراسة أن تدخل فخر الدين الثاني في شئون فلسطين العثمانية ، كان لأهدافٍ شخصيةٍ بحتة لا لمصلحة قومية عليا كقمع ثائر متمرد على السلطة المركزية على سبيل المثال ، فجلّ حكّام فلسطين المحليين كانوا من الموالين للسلطات العثمانية سواء في دمشق أو في الآستانة نفسها، وكان هدف فخر الدين هو منح السناجق

1ـ إحساسهم العميق بأنه ينافسهم على السيادة أو الزعامة القبلية ، ويريد أن يفرض سيادة قبيلته عليهم، في الوقت الذي كانوا يشعرون فيه أنهم ليسوا أقل منه كفاءة ولا أضعف منه عصبية قبلية.

2ـ أنهم كانوا يدركون حقيقة أطماعه ونواياه التوسعية تجاه سناجقهم من ضم وسيطرة.

3ـ أن ولاة دمشق المتعاقبين لم يرغبوا في الاستسلام لرغبات فخر الدين وأطماعه في ولايتهم بسهولة ، وقد دفعهم هذا الموقف للتنسيق مع حكّام الألوية الخاضعة لنفوذهم ، للقيام بعمل عسكري بهدف الحد من نفوذه وتغيير الوضع السياسي الذي فرضه عليهم[98].

بقي أن نشير إلى الوجه الحضاري الذي خلفه فخر الدين في فلسطين ، على قلته، فقد اهتم بتشجيع التجارة مع أوروبا ، ولهذا الغرض ابتنى في عكا حصناً وخاناً لإقامة التجار الأجانب بعد أن اتخذ عدداً من التجار الفرنسيين والإنكليز والهولنديين من عكا مركزاً لتجارة القطن. فقد أشار حيدر الشهابي في حوادث سنة 1032هـ/1622م إلى وصول مركبين تجاريين فرنسيين إلي عكا لشحن القطن[99] ، كما كانت فرنسا تستورد في السنوات التي بها جفاف كميات كبيرة من القمح والأرز من عكا وحيفا ، حيث شوهدت في ميناء عكا 32 مركباً حمولة أصغرها 150 طناً ، وحمولة أكبرها 600 طن ، قدمت لشحن القمح[100] ، كما سمح فخر الدين لمجموعة من التجار الفرنسيين باستيطان عكا في الفترة ما بين 1034ـ1043هـ/1624ـ1633م[101].

وفي صفد شيّد فخر الدين مغارة الحمام سنة 1022هـ/1613م ، وسُميت قلعة ابن معن ، كما أنجز سور تل الهريج بالقرب من صفد[102] ، أما يافا فلم تشهد في عهد فخر الدين سوى أثر عمراني وحيد هو القلعة وعمل على ترميم أسوارها[103].

وتحسنت أحوال المسيحيين في الناصرة زمن فخر الدين نتيجة لسياسة التسامح الديني التي انتهجها ؛ ففي عام 1030هـ/1620م سمح للرهبان الفرنسيسكان بترميم

ليسهّلوا له مهمة شراء المناصب وتعيينه على بعض السناجق في فلسطين وشرقي نهر الأردن ، وأحياناً قليلة كانت سياسة الوفاق ترجح بين فخر الدين من ناحية والأمير أحمد بن طراباي حاكم اللجون من ناحية أخرى، لكنها فشلت في النهاية لعدم وجود دعائم ترسّخها ، وأخذ على فخر الدين أنه فشل في الاحتفاظ بفلسطين بسبب عدم محاولته رأب الصدع بين الحزبين المتنافسين وقتذاك، وكان هو شخصياً زعيماً لإحداهما ولم ينجح في التقريب بين وجهات نظرهما، ومن ثَمَّ فشل في أن يطوي زعماء فلسطين بين جناحيه.

الفلسطينية سواء في شرقي نهر الأردن أو في غربه إما لأبنائه أو لأعوانه الموالين له. وشخصية فخر الدين الثاني لم تكن تصرفاتها تنم عن اتجاه مغامر كما يحلو للبعض وصفه بذلك ، ولكنها تصرفات رجل طموح شابت أفعاله الكثير من الأطماع لبناء مجدٍ ذاتي يخلده في المدونات التاريخية ، ورجل بمثل تلك المواصفات يصعب عليه المقامرة بمستقبله ومشروعه السياسي التوسعي في خضم مغامرة قد تنجح وغالباً ما ستفشل ، وما يحسب لفخر الدين أنه كان متأنيًا في اتخاذ القرارات فحقق الكثير من النجاحات.

كما أثبتت الدراسة أن عودة فخر الدين من أوروبا ـ منفاه الاختياري ـ واختياره لمرفأ عكا لتكون أول بقعة في الشرق تطأه قدماه، لها رمزية خاصة لديه ، تبيّن أهمية فلسطين في مشروعه التوسعي سواء كان قبل مغادرته إلى أوروبا أو في مخططاته اللاحقة التي نوى الشروع في تنفيذها.

ومما يجدر ذكره أن موقعة عنجر عام 1033هـ/1623م كانت علامة فارقة في تاريخ فخر الدين ، فحكّام لبنان المحليون والموالون للسلطات العثمانية خضعوا بعدها لنفوذه ، وازدادت محاولاته للحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب في السناجق الفلسطينية، وأكثر من ذلك اضطرت الدولة العثمانية للاعتراف بسلطته بعد أربعة وثلاثين عاماً من صراعه الطويل مع ممثليها، ومنحته فرماناً يكون بموجبه حاكماً على بلاد عربستان من حدود حلب إلى القدس ، كما منحته لقب سلطان البر وهو اللقب نفسه الذي منحته من قبل لجده فخر الدين الأول.

ولم تسرِ العلاقة بين فخر الدين والزعامات المحلية الفلسطينية على وتيرة واحدة، فهي دوماً صدامية بين الطرفين تتجاذبها حالتا المد والجزر ؛ وإن كانت هذه الزعامات قد حققت الكثير من الانتصارات على فخر الدين، أما بعض المكاسب التي حققها الأخير في فلسطين ؛ فإنما تعود لسياسته الحكيمة في بعض الأحيان لا لقوته العسكرية وذلك من خلال وكلائه في الآستانة حيث أغدق عليهم الأموال الطائلة

1990, ص 699.

10- رافق: المرجع السابق ، ص 698-699.

11- لمزيد من التفاصيل عن طريق الحج الغزّاوي ، انظر:هيئة الموسوعة الفلسطينية : الموسوعة الفلسطينية. القسم العام ، 4 أجزاء ، ج 3, ط1, دمشق 1984, ص112-113.

12- رافق: المرجع السابق ، ص 700-702.

13- عبد الكريم ، أحمد عزت: «التقسيم الإداري لسورية في العهد العثماني». حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، مايو 1951, ص 134, 173-175. وبولياك: الإقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان. ترجمة: عاطف كرم ، بيروت1948, ص137-146.

14- وُلد فخر الدين المعني الثاني عام 980هـ/1572م في بعقلين عاصمة الإمارة المعنية آنذاك، من أم تنوخية ذات شخصية فذّة وصيت نبيل هي «الست نسب» شقيقة الأمير سيف الدين التنوخي. وكان والده الأمير قرقماز قد ورث الإمارة عن أبيه الأمير فخر الدين الأول ، فترعرع فخر الدين الثاني مع أخيه يونس في كنف والديه حتى بلغ الثانية عشرة من عمره عام 992هـ/1584م. وبعد موت أبيهما احتضنتهما أمهما الست نسب وخالهما الأمير سيف الدين التنوخي. ولما بلغ فخر الدين الثامنة عشرة من عمره عام 999هـ/1590م ولاه خاله المذكور إمارة أبيه، فأصبح فخر الدين أميراً للدروز والشوف.

- انظر: الشهابي ، حيدر: المرجع نفسه ، ج 3 , ص807. وسويد ، ياسين: التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين. جزءان ، ج1 , المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت1985, ص153.

- في حين يذكر تشارلز تشرشل ، أن الأمير فخر الدين وأخوه الأمير يونس كانا بعد وفاة أبيهما تحت رعاية الشيخ أبو نادر الخازن الماروني ، الذي أسندت إليه أمهما العناية بهما لإنقاذهما من أعوان العثمانيين.

- جبل لبنان، ص61.

15- مجهول المؤلف: نزهة الزمان في حوادث لبنان. مخطوط في المكتبة الوطنية بباريس، رقم Arabe 1684 ، ورقة 17أ-17ب. والشهابي ، حيدر: المرجع السابق، ص806. والحتّوني ، منصور طنوس: نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية. بدون بيانات نشر ، بدون تاريخ ، ص60-61.

16- سويد: المرجع السابق ، ص153. و :

- Holt (P.M.),Egypt and the Fertile Crescent1516-1922,Cornell University Press,NewYork 1966 ,p.115.

17- لوتسكي: المرجع السابق ، ص35-36.

18-Ibid.

الحواشي

1- علي ، محمد كرد: خطط الشام. ج 3, دمشق 1343هـ (1925م). ص 236. والعابدي ، محمود: صفد في التاريخ. عمان 1977، ص 64-65.

2- الشهابي ، حيدر (الأمير) : تاريخ الأمير حيدر الشهابي. علق على حواشيه: د. مارون رعد ، 4 أجزاء، ج 3, دار نظير عبود ، بيروت 1993, ص 738.

3- تشرشل، تشارلز: جبل لبنان (عشر سنوات إقامة) 1842-1852. ترجمة: فندي الشعار ، دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت 1985, ص56.

4- حتي، فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين. ترجمة: د.كمال اليازجي ، جزءان ، ج 2, دار الثقافة، بيروت1959, ص279.

5- الشهابي ، حيدر: الصفحة نفسها.

واستطراداً لما ذهبنا إليه من ذكاء فخر الدين الأول ؛ أنه لما دخل على السلطان سليم في دمشق، دعا له دعاءً بليغاً. وقد أدهشت بلاغته سليماً فكرّمه ومنحه شرف الأولوية على كل أمراء الشام، ومنحه لقب سلطان البر.

المرجع نفسه ، ص740-741.

6- Ismail, Adel, Histoire du Liban du xvII siècle a nos jours, vol.1,Le Liban au temps de Fakhr-eddin II (1590-1633), Paris1955,p.54.

7- Ibid.

8- بازيلي ، قسطنطين: سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني. ترجمة: طارق معصراني ، دار التقدم، موسكو1989, ص28. ولوتسكي، فلاديمير: تاريخ الأقطار العربية الحديث. ترجمة: د.عفيفة البستاني ، مراجعة: يوري روشين ، ط8 ، دار الفارابي ، بيروت 1985, ص14.

9- السنجق أو الصنجق: لفظ تركي استعمل بمعنى العَلَم ، أو الراية ، وبمعنى الرمح ، أو اللواء. والسنجق وحدة إدارية ضمن الولاية ، عُرف حاكمه بلقب سنجق بك بالتركية وأمير لواء بالعربية، وعُرفت المنطقة التي يحكمها بالسنجق أو اللواء. وكان السنجق يُقّسم إلى عددٍ من النواحي، ويُسمى السنجق أو اللواء عادة باسم عاصمته وهي أكبر مدنه مثل سنجق القدس وغزّة... إلخ. أما لواء اللجون فلم يُسمَّ نسبة إلى مدينة؛ لأنه استحُدث بخاصة لأسرة طراباي الحارثية، وأبناؤها من زعماء بني حارثة التي كانت تتصرف بالمنطقة كإقطاع.

- انظر: دهمان ، محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. ط1, دار الفكر ، دمشق 1410هـ (1990م) ، ص93. ورافق ، عبد الكريم: فلسطين في عهد العثمانيين (1). الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثاني-الدراسات الخاصة ، المجلد الثاني ، الدراسات التاريخية ، ط1, بيروت

ص102. والبوريني: ج1, ص202 وج2, ص289. ومناع : المرجع السابق ، ص13.

ولمزيد من التفاصيل عن فرّوخ بن عبد الله الشركسي. انظر:

المحبي: ج3, ص271. والخالدي الصفدي: ص7. والمقاري ، محمد بن جمعة: الباشات والقضاة في العهد العثماني. جمعها وحققها ونشرها: د. صلاح الدين المنجد ، في كتاب: ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق1949, ص18. والدباغ ، مصطفى مراد: بلادنا فلسطين. القسم الثاني ، ج2, في الديار النابلسية (1) ، دار الهدى ، كفر قرع 1991 ، ص145.

26- الموسوعة الفلسطينية ، ج2, ص460. والمبيض، سليم عرفات: وقفية موسى باشا آل رضـوان سنة 1081 هـ ، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير ، القاهرة2000, ص19.

27- الموسوعة الفلسطينية ، ج2 ، ص460-461. ومناع: المرجع السابق ، ص9-10.

ولمزيد من التفاصيل عن أسرة آل رضوان. انظر:

البوريني: ج1, ص 112, 191. ورافق ، عبد الكريم: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (1516-1798). ط1 ، دمشق1967 ، ص164.

28- حتي: تاريخ سورية ، ج2 ، ص327.

29- تشرشل: المرجع السابق ، ص61.

30- رافق ، عبد الكريم: العرب والعثمانيون1516-1916. ط1, دمشق1974 ، ص148. وعوض، عبد العزيز محمد: الإدارة العثمانية في ولاية سورية1864-1914. تقديم: د.أحمد عزت عبد الكريم ، دار المعارف، القاهرة1969, ص13.

31- دي سان بيير ، بيجيه: الدولة الدرزية. ترجمة: حافظ أبو مصلح ، ط1, المكتبة الحديثة للطباعة والنشر ، بيروت1983 ، ص39.

استخدم فخر الدين الثاني عدة وسائل لتحقيق طموحاته منها: التزاوج والدس والرشوة وإقامة التحالفات والتورط في القتال وتحريض الأهالي بالتمرد على موظفي الدولة العثمانية وآل سيفا.

حتي: المرجع السابق والصفحة نفسها. وتشرشل: المرجع السابق والصفحة نفسها.

32- المحبي: ج4, ص426-428. والغزّي، نجم الدين محمد بن بدر الدين : لطف السحر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر ، أو ذيل الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة ، مخطوط موجود في مكتبة الأسد بدمشق ، رقم 3406 ، ورقة 212أ -212ب. والأنصاري ، شرف الدين بن موسى: نزهة الخاطر وبهجة الناظر. مخطوط في مكتبة الأسد بدمشق ، رقم 7814 ، ورقة 117ب-119ب. والنمر ، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء. ج1, ط2 ، نابلس1395هـ (1975م) ، ص32-33.

19- المعلوف ، عيسى إسكندر: «الأمراء الحرفشيون». مجلة العرفان، مجلد 9 (من ربيع الأول إلى ذي الحجة 1342هـ) ، ص291-297.

20- العورة، إبراهيم: تاريخ ولاية سليمان باشا العادل. نشره وعلق عليه: قسطنطين الباشا المخلصي، صيدا 1936,ص111. و :

-Charles-Roux (F.), Les Echelles des Syrie et de Palestine au XV III siecle,Paris1928,p 207.

21- Lammens (S.J.), La Syrie precis Historiue,v ol.II,Beyrouth1921, pp.71- 72 .

-Holt, op.cit,p.115.

22- الصليبي ، كمال: تاريخ لبنان الحديث. ط2, دار النهار للنشر، بيروت1969, ص34-35. والمعلوف ، عيسى إسكندر: تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني. ط2, منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت1966, ص 56.

- ويبدو أن السبب الذي دعا المعنيين للتخلي عن الحزب اليمني والتحالف مع الحزب القيسي ، يعود لخلاف حصل بين فخر الدين الأول والأمير جمال الدين الأرسلاني ، وكلاهما من اليمنية بسبب التنازع على حكم الشوف والغرب وغير ذلك من الأمور، فانحاز فخر الدين الأول إلى القيسية ومعه كامل أسرته ومن خلفه منها في الحكم بعده.

المعلوف: المرجع السابق والصفحة نفسها.

23- الحتّوني: المرجع السابق ، ص63. و :.Holt, op.cit, p.115

24- الموسوعة الفلسطينية ، ج1, ص100.

ولمزيد من التفاصيل عن أسرة طراباي الحارثية. انظر:

كرمل ، ألكس: تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين. ترجمة: تيسير إلياس ، دار المشرق ، حيفا1979, ص47-48. ومناع ، عادل: تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني 1700-1918 (قراءة جديدة). ط1, مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت1999, ص11-12. والصباغ ، ليلى: فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو. ط1, مؤسسة المصادر للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، بيروت 1416هـ (1996م) ، ص172-173. والبوريني ، الحسن بن محمد: تراجم الأعيان من أبناء الزمان. تحقيق: د.صلاح الدين المنجد ، جزءان ، ج2, دمشق1959, 1966 ، ص273. والمحبي ، محمد الأمين: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. 4 أجزاء ، ج1, القاهرة 1284هـ (1869م) ، ص221. وابن طولون، محمد: مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان. نشر: محمد مصطفى ، جزءان ، ج1, ص22 وج2, ص43, 72, 79, 145, القاهرة62-1964.

25- المحبي: المرجع السابق ، ج1, ص187 وج2, ص417 وج3, ص271. والخالدي الصفدي: المرجع السابق،

القدس المفتوحة ، عمان1998, ص100.

49- Ismail,op.cit,pp.77-78. والنمر: المرجع السابق ، ج1, ص33.

50- Holt,op.cit,p.116.

51- الأسطل: المرجع السابق ، ص48. والشهابي ، حيدر: المرجع السابق ، ص812. وبروكلمان ، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، ط13 ، دار العلم للملايين ، بيروت 1998, ص513.

52- الأسطل: الصفحة نفسها.

53- رافق: العرب ، ص163.

54- الشهابي، حيدر: المرجع السابق ، ص816-817. والموسوعة الفلسطينية ، ج1, ص100. والدباغ: بلادنا فلسطين ، القسم الثاني ، ج3, في الديار النابلسية (2) ، ص38-39.

55- الخالدي الصفدي: المرجع السابق ، ص6. والشهابي ، حيدر: ص817. والموسوعة الفلسطينية، ج1, ص100.

56- رافق: المرجع السابق ، ص163. والمقاري ، محمد بن جمعة: المرجع السابق ، ص29.

57- Ibid.

58 - الخالدي: ص7-8. والشهابي: الصفحة نفسها. والدبس: المرجع السابق ، ج7, ص153.
تضارب الخالدي الصفدي وحيدر الشهابي في ذكرهما ابن قانصوه الذي تم عزله عن عجلون والكرك ، فتارة يذكران أنه حمدان بن قانصوه وتارة أخرى يذكران أنه أحمد بن قانصوه ، والأرجح أن يكون حمدان ؛ لأن المصدرين نفسيهما قد استقرا فيما بعد على حمدان.

59- الخالدي: ص8-9. والشهابي: ص817-818. و .Holt, op.cit,p.117

60- لمزيد من التفاصيل. انظر:
الخالدي: ص9-10. والشهابي: ص 818-820.

61- لمزيد من التفاصيل.انظر:
الخالدي: ص15-16. والشهابي: ص 820-823. والمحبي: ج1, ص 380-382 وج 3, ص 266-267. والدبس: المرجع السابق ، ج7, ص154. والبوريني: ج1, ص201-210. والحتّوني: المرجع السابق ، ص67-68. والمعلوف: المرجع السابق ، ص90-110. و Holt,op. cit ,p .117

62- الخالدي: ص33. والشهابي: ص829. والبخيت ، محمد عدنان:«من تاريخ حيفا العثمانية: دراسة في أحوال الساحل الشامي». مجلة شئون فلسطينية (94) ، أيلول (سبتمبر) 1979, ص100.

63- لمزيد من التفاصيل حول جهود الأمير علي لاسترداد أملاك أبيه فخر الدين. انظر:

33- حتي: المرجع السابق ، ص327. والدبس ، يوسف: تاريخ سورية. راجعه ودققه: د.مارون رعد ، 10 أجزاء ، ج7, دار نظير عبود ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص152.

34- تقطن هذه الأسرة الكردية الأصل الآن في لبنان بعدما تم القضاء على ثورة علي باشا جنبلاط ومقتله. وقد تحولت إلى العقيدة الدرزية بعدما كان أفرادها مسلمين سُنَّة.
لمزيد من التفاصيل عن تمرد آل جنبلاط في شمال سورية. انظر:
رافق: العرب ، ص156-162.

35- الغزّي: المرجع السابق ، ورقة 211أ-211ب. وحتي: المرجع السابق والصفحة نفسها. وHolt, op.cit,p.116.

36- سويد: المرجع السابق ، ص77. ورافق: المرجع السابق ، ص151.

37- رافق: المرجع السابق والصفحة نفسها.

38- المحبي: ج1, ص187-189. والبوريني: ج1, ص191-192.

39- المحبي: ج1, ص221. والبوريني: ج2, ص273-289.

40- المحبي: ج2, ص127. والبوريني: ج1, ص202 وج2, ص289.

41- رافق: المرجع السابق، ص154.

42- الأسطل ، رياض محمود: تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر. ط2 ، غزة2000, ص39.

43- المرجع نفسه ، ص44.

44- رافق: المرجع السابق ، ص153.

45- نفسه.

46- Holt, op.cit,p.116.

47- السكَّبان أو السجَّمان: لفظة من أصل فارسي بمعنى (سكّ) الكلب و(بان) الحافظ والصاحب ، والسكَّبان هو المتولّي أمر كلاب الصيد. فالسكبانية في الدولة العثمانية بعد عام 1350م كانوا مستقلين عن الانكشارية ، ويرافقون السلطان في الحرب والصيد.
دهمان: معجم الألفاظ التاريخية ، ص89.

48- في النصف الأول من القرن الخامس عشر تمكنت أسرة من التجار وأصحاب البنوك تُدعى أسرة مديتشي Midici من الاستيلاء على الحكم عندما تمكن أحد رؤسائها ويُسمى كوزيمو دي مديتشي في عام 1434م أن يقوم بثورة ضد الحاكم ويؤسس جمهورية توالى على حكمها رؤساء من تلك الأسرة.
طهبوب ، فائق وحمدان ، محمد سعيد: تاريخ العالم الحديث والمعاصر. ط2, منشورات جامعة

75- الخالدي: ص117-120. و .Ibid

76 - المرجع نفسه، ص124-125, 130-133. والدباغ: القسم الثاني ، ج2, في الديار النابلسية (1) ، ص146.

77- لمزيد من التفاصيل. انظر:

الخالدي: ص129-139. والشهابي: ص885-890. والدباغ: ق2, ج3 ، ص40.

78- الخالدي: ص139-141. والشهابي: ص890-892.

79- الخالدي: ص142.

80- Holt, op.cit, pp.117-118.

81- Ibid. والنمر: المرجع السابق، ج1, ص39- 40.

82- رافق: العرب ، ص165. وتشرشل: المرجع السابق ، ص77.

83- الخالدي: ص177, 183-184. والشهابي: ص910-911.

84- لمزيد من التفاصيل عن حروب أحمد بن طراباي مع فخر الدين. انظر:

الخالدي: ص184-194. والمحبي: ج1 ، ص221-222 وج3 ، ص267 وج 4, ص295. والشهابي: ص912 - 915. والدباغ: المرجع السابق ، ق 2, ج2, في الديار النابلسية (1) ، ص147.

85- الخالدي: ص196-198. والشهابي: ص916-917.

86- لمزيد من التفاصيل. انظر:

الخالدي: ص201-204. والشهابي: ص918-920.

87- الخالدي: ص205-206.

88- بلاد عربستان: هي المنطقة التي تقع من حدود حلب شمال سورية إلى حدود القدس ، أي المناطق القبلية الواقعة خارج نطاق المقاطعات والمدن التي يديرها الولاة العثمانيون.

Holt,p.118.

89- الخالدي: ص242. والحتّوني: ص76. و .Ibid

90- الخالدي: ص245-247.

91- بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص514. والنمر: المرجع السابق ، ج1, ص40.

92- لمزيد من التفاصيل. انظر:

المحبي: ج1, ص385-388 وج 3, ص267-268. والمقاري ، محمد بن جمعة: المرجع السابق ، ص32. والمعلوف: المرجع السابق ، ص188-243 ،247 ، 302. ومجهول المؤلف: نزهة الزمان ، ورقة 23ب. وتشرشل: جبل لبنان ، ص89-90. وحتي: المرجع السابق ، ص332-333. و .Holt, pp.118-119

الخالدي: ص19–65. والشهابي: ص823–851.

64– رافق: العرب ، ص164. و .Ibid

يذكر إحسان النمر أن الصدر الأعظم محمد باشا الخازندار الذي خلف نصوح باشا ، كان مرتشياً من حكومة توسكانيا ، فكان له دور في إصدار عفو عن فخر الدين وغيره من الثائرين على الدولة العثمانية.

– جبل نابلس ، ج1, ص39.

ويبدو أن فخر الدين قد قام في عام 1615م بزيارة قصيرة للبنان ثم عاد بعدها إلى أوروبا. وفترة السنوات الخمس التي قضاها المذكور في أوروبا زار خلالها ليغهورن وفلورنسا حيث أعدّ له البلاط الفلورنسي استقبالاً حافلاً ، ونابولي وبالرمو ومسينا ومالطة وغيرها من المدن. وقد أثار ظهور فخر الدين أمير الدروز فضول أوروبا التي كانت لا تزال تجهل أية معلومات عنهم. كما شاعت في الغرب أسطورة تزعم أن اسم الدروز نفسه مشتقاً من اسم كونت صليبي يُدعى دي ديريه Dreux ، أي إن الدروز هم أعقاب الصليبيين الذين تاهوا في جبال لبنان. ويبدو أن فخر الدين كان يؤكد هذه الأسطورة التي جعلته محط الأنظار والاهتمام الشديد في الغرب.

– وبالإضافة إلى ما سبق ؛ فإن فخر الدين رغم أنه أصيب بخيبة أمل في فشل مساعيه للعودة من أوروبا مصحوباً بحملة من الدول الأوروبية والبابا لمساعدته على حرب العثمانيين ، غير أنه استفاد من الغرب كثيراً حيث تشرّب فيها من الأفكار ما قوّى اعتقاده بصحة المبادئ التي عمل في السابق بوحيها، بدلاً من أن يضعفه بشأنها ويحوله عنها.

حتي: تاريخ سورية ، ج2, ص329. وبازيلي: تاريخ سورية ، ص31.

65– الخالدي: ص69. والشهابي: ص855. والحتّوني: ص71.

66– الخالدي: الصفحة نفسها. والشهابي: ص856.

67– رافق: العرب، ص164.

68– الخالدي: ص69–70.

69– Holt,p.117.

70– الخالدي: ص84–87. والشهابي: ص863–864.

71– الخالدي: ص87.

72– المرجع نفسه ، ص95–96 ، 104–105.

73– المرجع نفسه ، ص112.

74– المرجع نفسه ، ص113–116. والشهابي: ص877–878.

1- البوريني ، الحسن بن محمد: تراجم الأعيان من أبناء الزمان. تحقيق: د.صلاح الدين المنجد ، جزءان ، دمشق1959 ، 1966.

2- الحتّوني ، منصور طنوس: نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية. بدون بيانات نشر ، بدون تاريخ.

3- الخالدي الصفدي ، أحمد بن محمد: لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني. نشره: د.أسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت1969.

4- الدبس ، يوسف (المطران): تاريخ سورية. راجعه وحققه: د.مارون رعد ، عشرة أجزاء ، ج7 ، دار نظير عبود ، بيروت ، بدون تاريخ.

5- الشهابي ، حيدر أحمد (الأمير) : تاريخ الأمير حيدر الشهابي. علق على حواشيه: د.مارون رعد ، 4 أجزاء ، ج 3, دار نظير عبود ، بيروت1993.

6- ابن طولون ، محمد: مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان. نشره: محمد مصطفى، جزءان، القاهرة 1964-62 .

7- العورة ، إبراهيم (المعلم) :تاريخ ولاية سليمان باشا العادل. نشره وعلق عليه: قسطنطين الباشا المخلصي ، صيدا 1936.

8- المحبي ، محمد الأمين: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. 4 أجزاء ، القاهرة 1284هـ (1869م).

9- المقاري ، محمد بن جمعة: الباشات والقضاة. جمعها وحققها ونشرها: د.صلاح الدين المنجد ، في كتاب : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق1949.

ثالثاً: المراجع العربية الثانوية والمترجمة:

1- الأسطل ، رياض محمود (الدكتور) : تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر. ط2 ، غزة2000.

2- أنيس ، محمد (الدكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربي (1514-1914). القاهرة1977.

3- بازيلي ، قسطنطين: سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني. ترجمة: طارق معصراني ، دار التقدم، موسكو1989.

4- بروكلمان ، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، ط13 ، دار العلم للملايين ، بيروت1998.

5- بولياك: الإقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان. ترجمة: عاطف كرم ، بيروت1948.

6- تشرشل ، تشارلز: جبل لبنان (عشر سنوات إقامة) 1842-1852, دراسة لديانة وعادات وتقاليد أهل الجبل. ترجمة: فندي الشعار ، دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت1985.

7- حتي ، فيليب (الدكتور) : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين. ترجمة: د.كمال اليازجي ، أشرف على

93- حتي، فيليب: مختصر تاريخ لبنان. ترجمة: فؤاد جرجس نصار ، ط1, دار الثقافة ، بيروت1968, ص188.

94- نفسه. وأنيس ، محمد: الدولة العثمانية والشرق العربي (1514-1914) .القاهرة 1977, ص156. والبخيت: من تاريخ حيفا ، ص100. و Lammens, op.cit, p.60.

95- رافق: العرب ، ص168.

96- الموسوعة الفلسطينية ، ج1, ص101 (بتصرف).

97- النمر: تاريخ جبل نابلس ، ج1, ص40-41.

98- الأسطل: المرجع السابق ، ص48-50.

99- الشهابي: ص822. وغنايم ، زهير: لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية 1281-1337هـ/1864-1918م. ط 1, مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت 1999, ص20.

100- الصباغ ، ليلى: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ج1 ، بيروت 1409هـ (1989م) ، ص291.

101- الكردي، فايز: عكا بين الماضي والحاضر. دار البشير ، عكا 1972 ، ص66.

102- الخالدي: ص87. والعابدي: المرجع السابق ، ص66.

103- الموسوعة الفلسطينية ، ج4 ، ص611-612.

104- منصور أسعد: تاريخ الناصرة. القاهرة 1924 ، ص45-46. والمعلوف ، عيسى إسكندر: دواني القطوف في تاريخ آل المعلوف ، زحلة1908 ، ص129.

مصادر ومراجع الدراسة

أولاً: المخطوطات:

1- الأنصاري ، شرف الدين بن موسى: نزهة الخاطر وبهجة الناظر. موجود في مكتبة الأسد بدمشق، رقم 7814.

2- الغزّي ، نجم الدين محمد بن بدر الدين: لطف السحر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر ، أو ذيل الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة ، موجود في مكتبة الأسد بدمشق ، رقم 3406.

3- مجهول المؤلف: نزهة الزمان في حوادث جبل لبنان. موجود في المكتبة الوطنية بباريس. رقم Arabe1684 .

ثانياً: المصادر الأوليّة:

روشين ، ط8 ، دار الفارابي ، بيروت 1985.
25- المبيض ، سليم عرفات: وقفية موسى باشا آل رضوان سنة 1081هـ (الأسرة التي حكمت غزة ومعظم فلسطين قرنًا ونصف القرن 1530-1681م). مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير ، القاهرة 2000.
26- المعلوف ، عيسى إسكندر: تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني. ط2, منشورات المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1966.
27- ــــــــ : دواني القطوف في تاريخ آل المعلوف. زحلة 1908.
28- مناع ، عادل (الدكتور) : تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني 1700-1918(قراءة جديدة). ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت 1999.
29- منصور ، أسعد (القس) : تاريخ الناصرة. القاهرة 1924.
30- النمر ، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء. ج1, ط2, نابلس 1395هـ (1975م).

رابعاً: الدوريات والمعاجم والموسوعات:

1- البخيت ، محمد عدنان: «من تاريخ حيفا العثمانية: دراسة في أحوال الساحل الشامي». مجلة شئون فلسطينية (94) ، أيلول (سبتمبر) 1979.
2- دهمان ، محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. ط1, دار الفكر، دمشق 1410هـ (1990).
3- رافق ، عبد الكريم (الدكتور) : فلسطين في عهد العثمانيين(1). الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني-الدراسات الخاصة ، المجلد الثاني ، الدراسات التاريخية ، ط1 ، بيروت 1990.
4- عبد الكريم ، أحمد عزت (الدكتور) : «التقسيم الإداري لسورية في العهد العثماني». حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، مايو 1951.
5- المعلوف ، عيسى إسكندر: «الأمراء الحرفشيون». مجلة العرفان ، مجلد 9, (من ربيع الأول إلى ذي الحجة 1342هـ).
6- هيئة الموسوعة الفلسطينية: الموسوعة الفلسطينية. القسم العام ، 4 أجزاء ، ط1 ، دمشق 1984.

خامساً: المراجع الأجنبية:

1- Charles-Roux (F.), Les Echelles des Syrie et de Palestine au XV III Siècle, Paris 1928.
2- Holt (P.M.), Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922,Cornell University Press, New York 1966.
3- Ismail (Adel), Histoire du Liban du XV II siècle a nos jours, vol.1,Le Liban au temps de Fakhr-eddin II (1590-1633),Paris 1955.
4- Lammens (S.J.), La Syrie précis Historique,vol.II, Beyrouth 1921.

مراجعته وتحريره: د.جبرائيل جبور ، جزءان ، ج 2, دار الثقافة ، بيروت1959.

8- ـــــــ : مختصر تاريخ لبنان. ترجمة: فؤاد جرجس نصار ، ط1 ، دار الثقافة، بيروت 1968.

9- الدباغ ، مصطفى مراد: بلادنا فلسطين. القسم الثاني ، ج2 ، 3, في الديار النابلسية (1) ، (2) ، دار الهدى ، كفر قرع1991.

10- دي سان بيير ، بيجيه: الدولة الدرزية. ترجمة: حافظ أبو مصلح ، ط1, المكتبة الحديثة للطباعة والنشر ، بيروت1983.

11- رافق ، عبد الكريم (الدكتور) : العرب والعثمانيون1516-1916. ط1 ، دمشق1974.

12- ـــــــ :بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (1516-1798). ط1، دمشق1967.

13- سويد ، ياسين (الدكتور) : التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين.جزءان ، ج1، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت 1985.

14- الصباغ ، ليلى (الدكتورة) :الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر. جزءان ، ج1 ، بيروت 1409هـ (1989م).

15- ـــــــ : فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو. ط1, مؤسسة المصادر للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، بيروت 1416هـ (1996م).

16- الصليبي ، كمال (الدكتور) : تاريخ لبنان الحديث. ط2, دار النهار للنشر ، بيروت1969.

17- طهبوب ، فائق وحمدان ، محمد سعيد (الدكتور) : تاريخ العالم الحديث والمعاصر. ط2, منشورات جامعة القدس المفتوحة ، عمان 1998.

18- العابدي ، محمود: صفد في التاريخ. عمان1977.

19- علي ، محمد كرد: خطط الشام. ج3 ، دمشق 1343هـ (1925م).

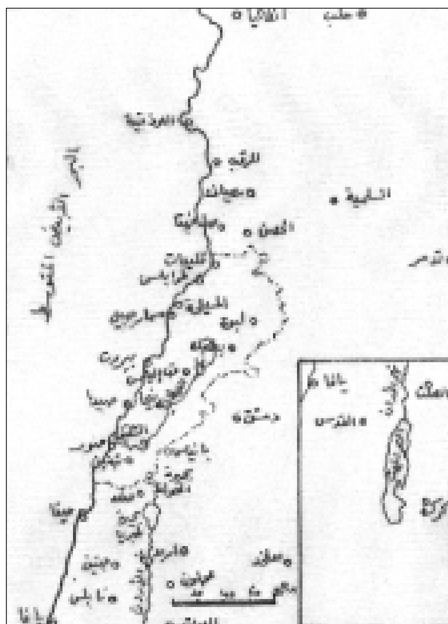
20- عوض ، عبد العزيز محمد (الدكتور) : الإدارة العثمانية في ولاية سورية1864-1914. تقديم: د.أحمد عزت عبد الكريم ، دار المعارف ، القاهرة 1969.

21- غنايم ، زهير: لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية1281-1337هـ/1864-1918م. ط1 ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت1999.

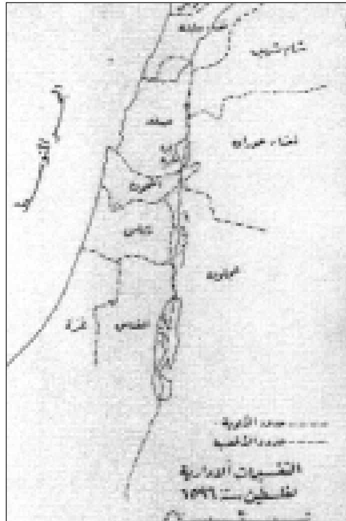
22- الكردي ، فايز: عكا بين الماضي والحاضر. دار البشير ، عكا 1972.

23- كرمل ، ألكس (الدكتور) : تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين. ترجمة: تيسير إلياس ، مراجعة: د.بطرس أبو منه ، دار المشرق ، حيفا 1979.

24- لوتسكي ، فلاديمير: تاريخ الأقطار العربية الحديث. ترجمة: د.عفيفة البستاني ، مراجعة: يوري



القلاع والحصون في العهد المعني
ياسين سويد: التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية، ج 1 ص 259





عبد الكريم رافق: فلسطين في عهد العثمانيين (1)، ص 700

Institute for Palestinian Studies, p. 15, 165.

26- Sabbah, W., and Isaac, J., (1995), Towards a Palestinian Water Policy, Applied Research Institute, Jerusalem, p. 5.

27- Shawwa, Isam R., (1994), «Water Situation in the Gaza Strip», Water and Peace in the Middle East, Edit by J. Isaac & H. Shuval, Elsevier Science, B. V., Amsterdam.

28- Shawwa, Isam R., (2000), Desalination Country Focus: Palestinian National Authority, The Newsletter of The Middle East Desalination Research Center, Issue 9, p.1. www.ewatermark.org

29- Shqueir, A., (1995) «The Environment in the West Bank and Gaza Strip,» Palestine-Israel Journal, No. 5, p. 90.

30- Sturm, C., Ribbe, L., and Schwabe, C., (1996), Water Resources Management in the West Bank, Final Project Report «Water Mangament in the West Bank, Palestine«, ASA program of Carl Duisberg Society (CDG), Berlin, p. 9.

31- U.S. National Academy of science, (1999), Water for the Future: The West Bank and Gaza Strip, Israel and Jordan, Washington, D.C.: The National Academy of Science, pp. 26-34.

32- United Nations, (1991), ؛Report prepared by the Economic and Social Commission for Western Asia on Israeli land and water policies and practices in the occupied Palestinian and other Arab territoriesـ، annex of the note by the Security-General, (A/46/263/-E/1991/88), p. 31.

33- Water Resources Action Program (WRAP), (1994), Palestinian Water Resources, Jerusalem, Palestine, pp. 4-10.

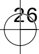
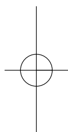
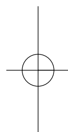
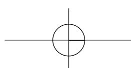
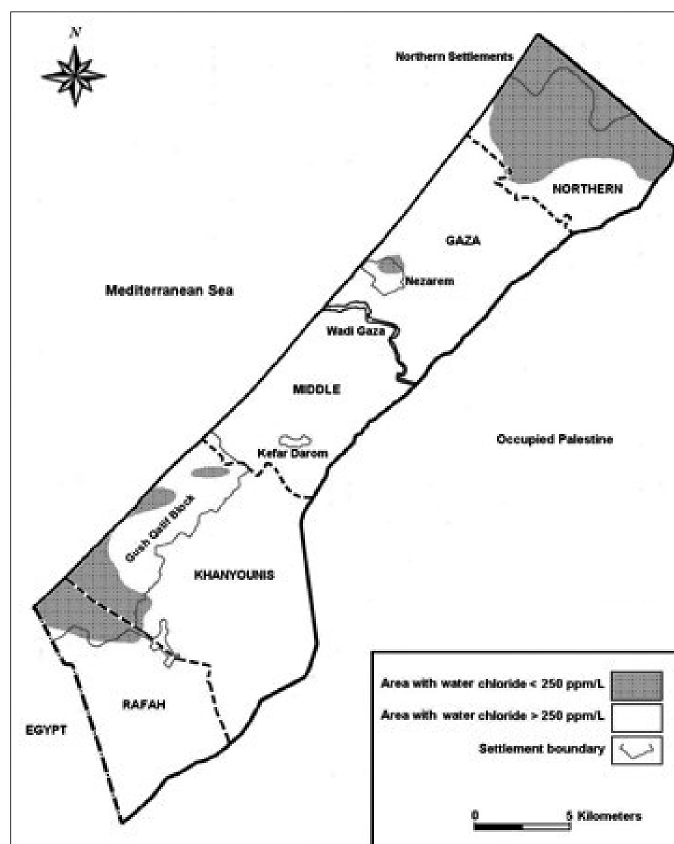





Fig. (5) Distribution of Water Wells inside Israeli Settlements in the Gaza Strip; and Israeli Wells along the Northern and Eastern Borders

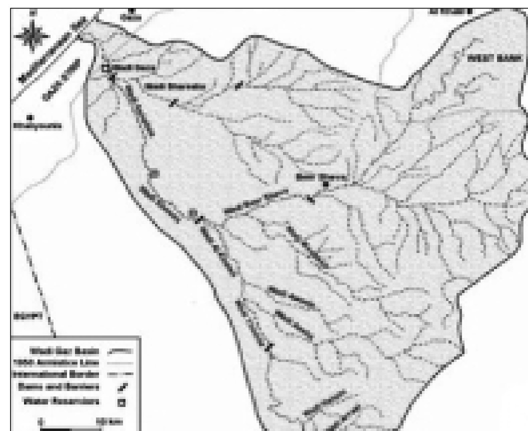


Source: Freely from: Applied Research Institute-Jerusalem, (2000), An Atlas of Palestine: The West bank and Gaza, Bethlehem, p.98

REFERENCES

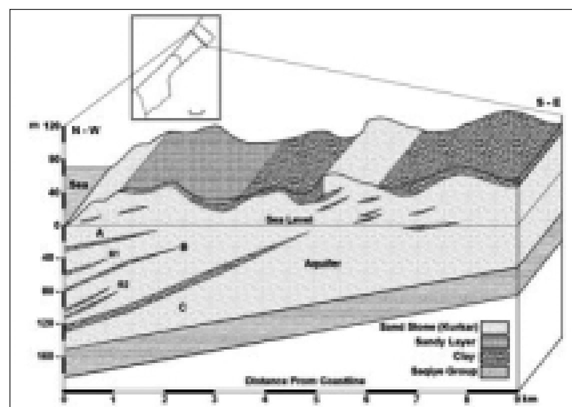
1- Abdul Hadi, A., (1997), «Gaza Water Crisis Worsening», from the Palestinian Report, Jerusalem Media and Communication Center (JMCC), MAY 16 1997, Vol. 2, No. 49, p. 1
2- Al Hallaq, Akram H., (2002), Groundwater Resources Depletion in Gaza Strip: Causes and Effects, (In Arabic(Unpublished Ph.D. dissertation, Ain Shams University, Cairo, Egypt, pp. 149-151
3- Applied Research Institute of Jerusalem (ARIJ), (2003), An analysis on the recent geopolitical situation in the Gaza Strip, Jerusalem, Applied Research Institute of Jerusalem, pp. 1-25
4- Assaf, K., Al Khatib, N., Kally, E., and Shuval, H., (1994), «Water in the Israeli-Arab Conflict,» Palestine-Israel Journal, No. 3, p. 14.
5- Beschorner, N., (1992), Water and Instability in the Middle East, London, International Institute for Strategic Studies, p. 15.
6- Brooks, D. and Lonergan, S., (1994), Watershed: The Role of Fresh Water in the Israeli-Palestinian Conflict, Ottawa, International Development Research Center, pp. 92-134.
7- Elmusa, S., (1996) Negotiating Water: Israel and the Palestinian, Washington, Institute for Palestine Studies, pp.7-14.
8- Giordano, Meredith, Giordano, Mark and Wolf A., (2002), «The Geography of Water Conflict and Cooperation: Internal Pressures and International Manifestations,» The Geographical Journal, Vol. 168, Issue 4, Royal Geographical Society, Gale Group, pp. 293-310.
9- Graisse, J. Jacques, (1999), Assistance to Farmers for Land Development and Training Activities, Palestinian Territories, Project No. 6276.00, Approval under the delegated authority of the executive director, p. 4.
10- Hosh, L., Miller, E., and Isaac, J., (1992), The Palestinian Environment Between the Anvil of Sociopolitical Change and the Hammer of Occupation, Applied Research Institute of Jerusalem (ARIJ), p. 12.
11- Isaac, J. and Hosh, L. (1992), Roots of the Water Conflict in the Middle East, Applied Research Institute, Jerusalem, p. 7.
12- Isaac, J., (1995), «A Sober Approach to the Water Crisis in the Middle East,» A paper presented to International Symposium on the Future of the Mediterranean Area after the Peace Process, UNESCO, Paris, p. 4.
13- Isaac, J., (1999), The Palestinian Water Crisis, Applied Research Institute, Jerusalem, p. 2.
14- Isaac, J., (2000), «The Essentials of Sustainable Water Resources Management in Israel and Palestine,» Arab Studies Quarterly Journal, Vol. 22, Issue: 2, Association of Arab-American University Graduates and Institute of Arab Studies, pp. 1-13.
15- Jerusalem Post, (1986), ژThe brighter side of the Gaza picture,س Jerusalem Post, 5 September, p.9.
16- Kuhail, Z, and Zorob, Z. K., (1996), «Potable Ground Water Crisis in the Gaza Strip 1987-1994,» Islamic University Journal, Vol. 4, No. 2, Gaza, pp. 22-66.
17- Libiszewski, S., (1995), Water Disputes in the Jordan Basin Region and their Role in the Resolution of the Arab-Israeli Conflict, Center for Security Studies and Conflict Research, Swiss Peace Foundation, p. 5.
18- Ministry of Agriculture, (1999), An Annual Report about the Amounts of Water Coming From Israeli Mekoroth Water Company, (in Arabic), Unpublished Report.
19- Ministry of Planning and international cooperation, Researches and Studies Center (1995), «The Water Dispute in Palestine,» in Arabic, Palestinian Causes Journal, No. 1, Gaza, pp. 48-68.
20- Myers, C., (1996), Water Management in Gaza in the Palestinian Territories (The West Bank and Gaza Strip), p.1. Internet Source: www.oieau.fr/semidoc/SEMCOM/TEXTE9.htm
21- Nassereddin, T., (1994), «Institutional Aspects of Joint Management of Aquifers by Israel and the Occupied Territories,» in Joint Management of Shared Aquifers; the First Workshop, ed. Feitelson, E. and Haddad, M., Jerusalem: Palestine Consultancy Group and Harry Truman Institute, p. 60.
22- Palestinian Central Bureau of Statistics, (1999), Population, Housing and Establishment Census - 1997, Final Results, Housing Report, Governorates of Gaza Strip, First Part, Ramallah, Palestine. p. 53.
23- Palestinian Committee for Peace and Afro-Asian Solidarity, (1992), The Water Problem in Gaza and Proposed Solution, Development and Socio-Economic Progress, No. 3, p.53.
24- Palestinian Environmental Protection Authority, (1994) Gaza Environmental Profile, Part I, Gaza, the Benevolent for the Gaza Strip Press, p. 55.
25- Roy, S., (1995) The Gaza Strip: The Political Economy of De-Development, Washington, D.C.: The

Fig. (2) Dams, Barriers, and Reservoirs Constructed On the Wadi Gaza Basin



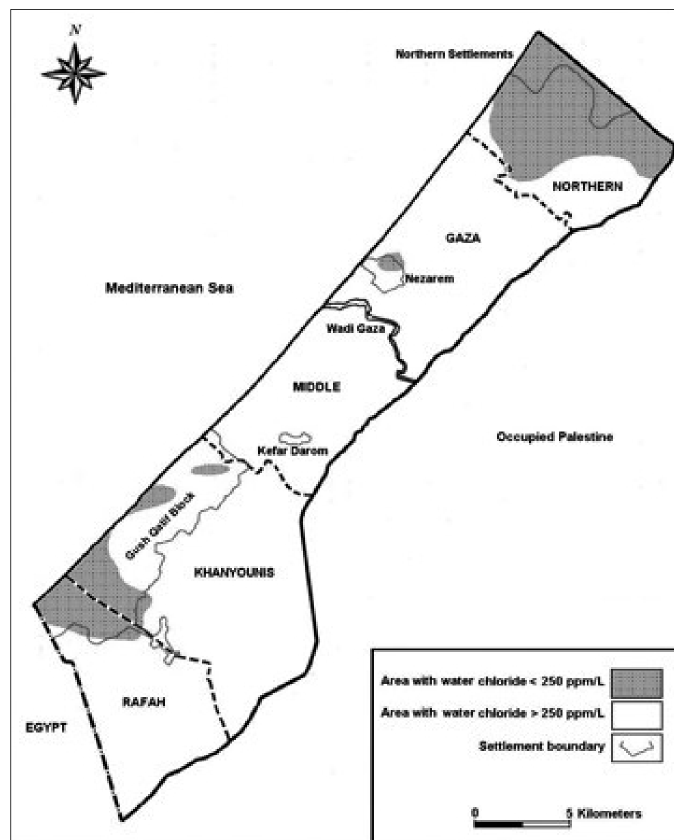
Source: Freely from: Mushtaha, A., (1999), ***The Lower Course of Wadi Gaza Inside the Gaza Strip: Geomorphologic Study***, (In Arabic), Unpublished Ph. D. Thesis, Annelain University, Sudan, p. 66.

Fig. (3) Hydrological Cross-Section of the Gaza Strip's Aquifer



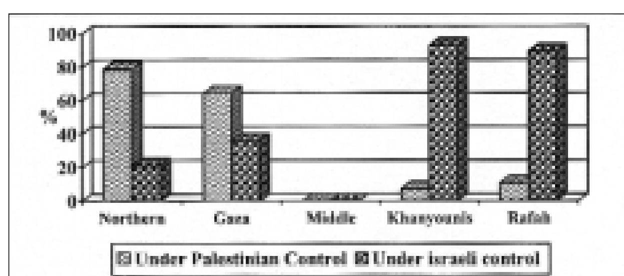
Source: Freely from: Palestinian Water Authority, (2000), **Coastal Aquifer Management Program, Aquifer Status**, Appendix A, Gaza, p. 80

Fig. (4) Areas of Fresh Groundwater (with water chloride < 250 ppm/l)



Source: Freely from: Palestinian Water Authority, (2000), Gaza.

Fig. (6) Ratio of Fresh Groundwater Area under Palestinian and Israeli Control in the Gaza Strip Governorates



The total volume of fresh groundwater remaining in the Gaza Strip's aquifer ranges from 484 to 645 MCM or 8.8-11.7% of the aquifer that contains water that meets the WHO standard of chloride. About a half of that volume is under Israeli control. This fresh groundwater resource is currently depleted due to over pumping of the aquifer. The water balance in the Gaza Strip concluded that the rate of water depletion would be 45 MCM (Al Hallaq, A., 2002). Consequently, the Gaza Strip could run out of fresh groundwater in 14 years time.

This situation led to some families in the Gaza Strip to take these actions:

* Finding free fresh water resources for drinking distant from their houses or buying amounts of such fresh water. The field study showed that about 32% of the total studied families (760 families) did that. 71% of those who did that were suffering from saltiness or contamination of running water in their houses.

* Buying household reverse osmosis desalination units. So, these families did not depend directly on municipal drinking water inside their houses. The field study showed also that 15% of the total studied families have desalination units inside the houses, and each unit is produced 80-100 liters of fresh water daily used for drinking purposes only.

* More population in the Gaza strip are spending part of their limited income on imported bottled water, seeking to avoid health problems caused by the contaminated tap water in the Strip. Public health specialists are warning of a fresh water deficit in the Gaza Strip by 2000s if water resources continue to be depleted as they are being now. According to a grocer from Gaza City, sales of bottled water have increased 20 percent over the past years. Environmentalists are concerned about the effects of the growing freshwater deficit and the declining water quality on public health in the Gaza Strip (Abdul Hadi, A., 1997).

9. Conclusion

Generally, all of the groundwater in the Gaza strip governorates suffers from bad quality. Only two limited areas fulfill the standard requirement for domestic use according to the standards of WHO. One is in the north and the other is in the south west of the Gaza Strip governorates where the Israeli settlements are found. We thought that the Gaza Strip's aquifer has already passed the point of no return. Israel

is responsible for the deterioration and degradation of the Gaza Strip's aquifer. It is still pumping water from the aquifer north and south of the Strip causing a decline in the safe yield of the aquifer. Israel is diverting the Wadi Gaza waters, which recharge the Gaza Strip's aquifer. Settlements in Gaza Strip are located on top of the only fresh water sources and the 6000 Israeli settlers in the Gaza Strip are utilizing more than 5 MCM of fresh water annually. Settlements have running water 24 hours a day, unlike most of the Gaza Strip. According to the Israeli West Bank Data Base Project, the Israeli settlers in the Gaza Strip irrigate some 6,700 dunams (1 dunam = 1000 m2), approximately 60% of the 11,100 dunams cultivated by them. Finally, approximately 1.2 million Palestinians living in the Gaza Strip have 358 MCM of fresh water stored in the aquifer, while 6000 settlers have 287 MCM. It is the age of wonders.

Fig. (1) The Study area: Governorates and Groundwater Basin



Source: After Palestinian Water Authority, (2000), ***Summary of Palestinian Hydrologic Data Volume 2: Gaza***, Gaza Strip, p. 27.

Khanyounis and Rafah governorates. The majority of population and houses throughout Gaza rely on cesspits. About 48% of the houses are dumping raw sewage into the cesspits. This situation is cleared in the Khanyounis, Middle, Rafah, and Northern governorates where Palestinian refugee camps and sand areas are found (Table 2).

As a result of inadequate infrastructure, sewage seepage has contaminated the aquifer. This situation has resulted in rising levels of nitrate (NO3) in the fresh groundwater above World Health Organization (WHO) standard. (50 ppm/l). In recent years, NO3 contamination of Gaza Strip's water has increased rapidly: in 2000 about 77% of Gaza's studied water wells were considered unsuitable for drinking in terms of NO3 levels (Table 3).

Table (2) Occupied Housing Units by Connection to Sewage System

Governorate	Public Sewage System		Cesspit		No Sewage System		No Stated	
	Units	%	Units	%	Units	%	Units	%
Northern	15846	70.1	6363	28.2	348	1.5	42	0.2
Gaza	41771	86.2	6360	13.1	302	0.6	56	0.1
Middle	1882	9.9	16495	87.3	483	2.6	45	0.2
Khanyounis	776	2.9	25593	94.9	572	2.1	30	0.1
Rafah	6717	42.4	8636	54.5	479	3.0	22	0.1
Total	66992	50.4	63447	47.8	2184	1.6	195	0.2

Source: Palestinian Central Bureau of Statistics, (1999)

Consequently, most of the Gaza Strip groundwater is simply not fit for human consumption. Sampling for NO3 in 2000 found concentration 490 ppm/l in dense areas south of the Gaza Strip, particularly in non-sewered areas. The municipal network that serves the population of the Gaza Strip distributes water of this quality.

Table (3) Suitability of Water Wells for Drinking in Terms of NO3 Concentration

Governorate	Total Wells	Suitable Wells (No_3 less than 50 ppm/l)		Unsuitable Wells (No_3 more than 50 ppm/l)	
		Wells	%	Wells	%
Northern	77	17	22.1	60	77.9
Gaza	63	20	31.7	43	68.3
Middle	49	7	14.3	42	85.7
Khanyounis	61	19	31.1	42	68.9
Rafah	34	3	8.8	31	91.2
Total	284	66	23.2	218	76.8

Source: by author according to the data from Ministry of Agriculture, 2000/2001.

Most governorates have unsatisfactory wastewater collection systems: much of the population relies on cesspit, and where there are sewerage systems, sewage is generally discharge untreated into open channels or Wadis as Wadi Gaza. The absence of wastewater systems in some areas near the Wadi has led to polluting it with wastewater. The Wadi became polluted by the sewage collected from towns and camps situated in the Middle governorate (Nusierat, Bureij and Maghazi camps). The flow of wastewater into Wadi Gaza presents both the health risk of contamination to underlying aquifers and the loss of potential recycled irrigation and industrial resource. The illegal dumping of the solid wastes also pollutes the Wadi. It is possible to say that Wadi Gaza lost its water and environmental prosperities due to the construction of dams by Israel and pollution.

8. Fresh water Scarcity

Population in the study area, currently, faces the problem of fresh water scarcity. About 82% of the total Gaza strip area classified as the areas with water chloride more than 250 ppm/l, and around 96% of total area with water NO_3 more than 50 ppm/l. The remaining of fresh water volume in the Gaza Strip's aquifer is very limited. By looking at the Figure (4) which illustrates the concentration of chloride in the Gaza strip water, and using WHO standard of chloride, 250 ppm/l, we notice that the natural concentration of chloride in the aquifer exceeds that rate in most of the Strip. The best water quality and the freshest water are found in the sand dunes areas in north and south of the Strip where the Israeli settlements are located. The ratio of chloride concentration is less than 250 ppm/l. This zone, which contains fresh water, occupies 64.5 km^2 or 18% of the total area of the Gaza strip, of which 28.7 km^2 or 44.5% of total zone is under Israeli control (Table 4 and Fig. 6).

As presented in Figure (4), the horizontal extent (H_e) of fresh groundwater resources (less than 250 ppm/l) is about 64.5 km^2. Based upon the 250 ppm/l chloride contour, an assumed range of thickness (T) from 30m to 40m defines the fresh groundwater lens, and an effective porosity (E_p) of 0.25, the volume of fresh groundwater (V_{fw}) remaining in the aquifer is estimated from:

$$V_{fw} = T\, H_e\, E_p$$

Table (4) Area of fresh groundwater under Palestinian and Israeli Control*

Governorate	Area of Fresh groundwater (km^2)	Under Palestinian Control (km^2)		Under Israeli Control (km^2)	
		Area	%**	Area	%
Northern	42.10	33.24	78.9	8.86	21.1
Gaza	1.06	0.68	64.2	0.38	35.8
Middle	0.00	0.00	0.00	0.00	0.00
Khanyounis	11.80	0.85	7.2	10.95	92.8
Rafah	9.55	1.02	10.7	8.53	89.3
Total	64.51	35.79	55.5	28.72	44.5

Source: * All areas are computed by author using AutoCAD software, Fig. (4), and interpreted chloride concentration map for Gaza Strip 2000 (1: 100000).

** All ratios are computed by author.

2.1.7 The Indirect Depletion

The Israeli indirect depletion involves: diverting a part of the areaےs natural recharge, diverting the Wadi Gaza waters, and negligence of infrastructure in Gaza Strip during 27 years of Israeli occupation.

1.2.1.7 Diverting a Part of the Area's Natural Recharge

The Israeli authorities have forbidden anyone to dig a well to irrigate his citrus groves because the Gaza Strip has no water. But at the same time, ten meters away on the north and east of 1967 border, (See Fig. 5), they will dig not one well but tens. Several Israeli wells have been drilled in the catchments area of the coastal aquifer, which is inside occupied Palestine but along the northern and eastern border of the Gaza Strip (Nassereddin, T., 1994). According to the information in the Jerusalem Post of 5 September 1986, between 35 and 40 Israeli wells in the eastern Gaza Strip have diverted part of the areaےs natural recharge (Jerusalem Post, 1986). Palestinian water experts argue that these wells have reduced the flow of groundwater to the study area. However, this has been a point of contention among hydrologists. The Israeli sources argue that these wells are blocking the flow of saline water, which damages the aquifer. Others contend that these wells draw on a separate part of the coastal aquifer system and do not affect Gaza's aquifer at all (Brooks, D., and Lonergan, S. 1994). Logically, in our opinion, these Israeli viewpoints are unacceptable. If the water of these wells is saline, why have they been drilled near the Gaza strip border? And what does the Israeli make with this water when as they well understand that using it domestically is unsuitable and using it for irrigation may waste the soil? On the other hand, the Israeli hydrologists contend that these wells are drawn on a separate part of the coastal aquifer and do not affect Gaza's aquifer; geologically this opinion is not right because the Gaza Strip is a small part of the Palestinian coastal plain and its aquifer is a part of the Palestinian coastal aquifer.

These wells which have been dug near the border of the study area extract a great amount of water around 18 hours daily and are pumped to the Negev as irrigation water before crossing the eastern borders (Ministry of Planning and international cooperation, 1995), and replenish the Gaza Strip's aquifer. If we know that each well pumps 200 cubic meters per hour (Shawwa, Isam R., 2000), the total abstraction for about 40 wells is approximately 53 MCM annually. This amount, which is Gazas share of water and naturally flows to recharge the aquifer, is depleted by Israel.

2.2.1.7 Diverting the Wadi Gaza Flow

Wadi Gaza is still an object of dispute between the Palestinians and the Israeli. The Wadi commences in occupied Palestine and flows into the Mediterranean in the Gaza strip coast. Inside the Gaza Strip, it has an estimated average flow of 14 MCM per year or 14% of total runoff in Palestine. Except the flowing in the Wadi during the winter season inside the Gaza Strip, the Gaza Strip never utilizes the Wadi water collected from the catchment area inside occupied Palestine. The Wadi is nearly dry because Israel has blocked the water flow in it. Approximately 32 dams, barriers, and reservoirs were constructed all along the way preventing the water from flowing into the Gaza Strip which otherwise would have provided a valuable source of water to be used for irrigation and for compensation to the lost pumped-out water (See Fig. 2).

The Wadi water would have been a great help to the irrigation in the middle zone of the Gaza Strip (Shawwa, Isam R., 2000). Israel has intensified the water problem by diverting the Wadi Gaza and the coastal aquifer away from Gaza Strip for use in Israel and by settlers in the Gaza Strip itself. These dams are helping now to recharge the aquifers inside occupied Palestine. Conversely, these dams negatively affect Gaza's aquifer. In the past, the aquifer of the Gaza strip was partially recharged from Wadi Gaza that flows during the winter from Al Khalil (Hebron), but Israel stopped its flow. Before the Israeli diverting of the upstream of Wadi Gaza runoff, up to 20 MCM per year, Wadi Gaza was said to have replenished the aquifers under the Gaza Strip (Isaac, J., 1995). That diverting has considerations by affecting on the local environment in the Gaza Strip.

The famous two reservoirs constructed along the Wadi, are Wadi Sheniq reservoir with the capacity of 1 MCM, and the other large one is constructed in the lower section of Wadi Gaza, near the eastern Gaza Strip border to cover an area of about 16 km2 with the capacity of 20-30 MCM annually. Part of the collected floodwater in the reservoirs will become available for Israeli farming. By 1993, Israel was thought to have impounded an average of 1 MCM per year from Wadi Gaza and was planning to impound a total of 9 MCM per year. Palestinian specialists have contended that Israel takes away even larger quantities. However, they probably would be unable to specify those quantities accurately, because only the tail end of the Wadi traverses Gaza (Elmusa, S., 1996).

During 1960s floods occurred in Wadi Gaza. The level of water in the Wadi was raised to more than 5 meters. This water was breaking down the road between north and south Gaza Strip. Currently, there is no any water flowing in the Wadi inside the Gaza Strip except that which flows in it during the winter season. If we consider that the average of water surplus in the study area is 124 mm, and half of that amount (62 mm), according to Thornthwaite, illustrates a runoff, at best the volume of that flow in Wadi Gaza basin, inside Gaza Strip, is estimated at 1.8 MCM annually. Consequently, the study area has lost a great amount of the Wadi fresh water that recharges its aquifer because of the Israeli control over the upper section of the Wadi and the impoundment of its water.

3.2.1.7 Negligence of Infrastructure in Gaza Strip

During 27 years of Israeli occupation in the study area, the quality of surface and groundwater supplies steadily deteriorated and water-related diseases rose (Giordano, Meredith, Giordano, Mark and Wolf A., 2002). The major reasons that led to this situation are the great increase in water consumption by the Israeli settlements that have resulted in rising levels of chlorine, nitrogen, fluoride, salinity, partly through the intrusion of polluted seawater from the Mediterranean, and negligence of infrastructure. During the occupation period Israel did not develop the sewage network or wastewater system in the study area. Consequently, most of the houses are depending on the soaking pits or cesspit and septic tanks. So, inadequate discharge of wastewater has contributed to the contamination of the Gaza Strip's aquifer. 1.6% of Gaza's houses are not served by any wastewater management system, and simply dumping raw sewage onto sand dunes as in the Middle,

governorates) and where the largest block of settlements, Gush Qatif, is located. (Fig 4) The second is found in the north, which is partially (in the Northern governorate) occupied by the northern Israeli settlements. Table (1) and Figure (4) present the areas of fresh groundwater in the study area.

Table (1) Areas of fresh water (with chloride less than 250 ppm/l), (2000)*

Governorate	Area of governorate (km^2)	Area of fresh groundwater (km^2)	% **
Northern	60.6	42.10	69.5
Gaza	72.4	1.06	1.46
Middle	56.4	0.00	0.0
Khanyounis	110.4	11.80	10.69
Rafah	60.7	9.55	15.7
Total	360.5	64.51	17.9

Source:
* All areas are computed by author using AutoCAD software, Gaza Strip map (1: 50000), and interpreted chloride concentration map for Gaza Strip 2000 (1: 100000).
** All ratios are computed by author.

It is clear that the total area of fresh groundwater reaches to 64.5 km2 in 2000 or 17.9% of total Gaza Strip area. The largest area of fresh groundwater is found in the northern governorate (42.1 km2). In Khanyounis and Rafah governorates, it reaches to 11.8 km2 and 9.55 km2 respectively. Some experts indicated that this area decreased from 140 km2 in 1984 to 115 km2 in 1994 (Myers, C., 1996). Subsequently, the annual decrease in fresh groundwater area will be about 5 km2 between 1985 and 2000.

7. Israeli policies in depleting Gaza Strip fresh groundwater

Israel is still the major source of threat on the level of water resources appropriation. It depleted Arabian water in Palestine and still does that. After the occupation of the Gaza Strip and the West Bank in 1967, Israel has increased the rates of groundwater exploitation. This will lead up to depletion of fresh water in the offing. Israelيs interest in the water of the study area is attributed to the Israeli settlement policy adopted by the Israeli government. The Israeli new immigrants basically move to the land, which they see as a missing historical right. This settling trend needs amounts of water that can only be obtained from the Arabian waters. So, this water gains an increased significance in the Israeli strategy, which has taken many adaptability transactions. For example, throughout the occupation, Israel had practiced blatant and formulized discrimination regarding Palestinian water consumption in the Gaza Strip. In 1967 Israel declared all water resources in the occupied territories to be state owned and under the jurisdiction of the military. Strict quotas were placed on Palestinian consumption. To preserve the Gaza Strip's aquifer under the occupation, the military order 158 (which applied only to the Arab

population of the Gaza Strip and not to Israeli settlers) prohibited the drilling of new wells or the rehabilitation of existing wells for any purpose without a permit (Roy, S., 1995). While restriction applied to the West Bank and the Gaza Strip, limits may have been difficult to enforce in the Gaza Strip, where the aquifer is close to the surface and relatively easy to access. With the exception of minimal allowances for increased drinking water, Palestinian pumping quotas were effectively frozen at 1967 (Shqueir, A., 1995). Conversely, Israelis in the study area face less restriction on water drawn from the same sources, and they consume on average eight to ten times for all purposes more than the Palestinians (Brooks, D. and Lonergan, S., 1994).

1. 7 Manners of the Israeli Depletion of Fresh Groundwater

It is possible to classify the Israeli Depletion of fresh groundwater in the study area into two ways: the direct depletion and the indirect depletion.

1. 1. 7 The Direct Depletion

The direct depletion occurs by extracting the fresh groundwater from wells to supply the Israeli settlements inside the study area. According to the satellite images, there are some 308 Israeli built-up areas in the Palestinian territories, excluding military sites, of which at least 18 are in the Gaza strip. These settlements occupy about 16% of total Gaza Strip area and housing an estimated 6429 Israeli settlers (Applied Research Institute of Jerusalem, (ARIJ), 2003). Israeli settlements are often found on the most suitable sites in terms of abundance of groundwater and soil quality (United Nations, 1991). There are a limited number of water lenses under the Gaza Strip, which have fresh water. These lenses are situated around the Israeli settlements in the Gaza Strip and thus are not accessible to the Palestinians even after autonomy (Isaac, J., 2000). For instance, a comparison of the chloride and settlement maps of the Gaza Strip (see Figure 4) reveals that many Israeli settlements have gained access to those fresh water areas with relatively good water quality.

There are more than 40 wells in the settlements within the study area. Most of them were drilled inside Gush Qatif in the southern governorates, Khanyounis and Rafah (Fig 5). About 18 wells of them are presently extracting water. The Israeli settlers in the study area are extracting in average about 5 MCM annually from these fresh water wells. This figure coordinates with some reports and studies which indicate that the total Israeli consumption of the Gaza Strip's aquifer ranges from 4 to 10 MCM annually (Palestinian Committee for Peace and Afro-Asian Solidarity, 1992). Thus, on an annual, per capita basis, Israeli settlers consume 778 cubic meters of fresh water, compared to 120 cubic meters of deteriorating water quality consumed by Palestinian-more than six times as much. In addition, the Israeli National Water Carrier (Mekoroth) extracts another amount of fresh water, 5.4 MCM, from the wells inside the settlements and sells it to the Palestinians in Khanyounis and Middle governorates because the water quality in there is deteriorated due to seawater intrusion, wastewater pollution, and agriculture water return flows. The Palestinian Authority is paying the full cost to Mekoroth, which is about 1.54 Million Dollar, of the 5.4 MCM of water supplied to the governorates (Ministry of Agriculture, 1999).

climate. As we know, rainfall continuously replenishes groundwater supplies; therefore, depletion has only been found to be a problem in certain localized situations or during droughts. Rainfall is one of the renewable fresh water resources in any area. The volume of annual rainfall in the study area is about 129 MCM, based on an average rainfall of 357 mm per year over 360 km2 area. A very small percentage of this water can be used directly by population and farmers. The high evaporation and transpiration rates (about two thirds of the total rainfall) in the study area returns most of the rainfall directly to the atmosphere before it can infiltrate and recharge the aquifer or flow directly to Wadis, storm water drainage systems, or sea. The amount of rainfall, which ranges from 35 to 45 MCM, infiltrates into the aquifer and recharges it. The sand dunes areas (46.14 km2 or 12.8% of the total area of the Gaza Strip) in the south of Gaza Strip, which are completely occupied by Israeli settlements, are considered one of the most rainfall-utilized areas owing to its sandy nature and the evapotranspiration may be as low as 50% of the rainfall (U.S. National Academy of science, 1999). Therefore, most of rainfall infiltrates into the ground. Recharge rates throughout this part of the study area vary temporally as a result of variations in the amount and intensity of rainfall and other climatic conditions. Consequently, the rate of recharge in this area ranges from 7 to10 MCM/year. This figure forms about 20% of the total recharge in the study area.

2,5 Surface Water

There is no permanent surface water on the land of the study area. The small Wadis are of seasonal type as they flow in the winter season during the flood period, which lasts for just a few days every year. The main seasonal Wadi in the study area is Wadi Gaza. It was used to be the only surface water, which has wide catchments area (about 3380 km2) outside the study area. Wadi Gaza, in the Gaza Strip, is a part of this water system, which extends 107 km from Al Khalil (Hebron) Mountains in the east to the coast of the Mediterranean Sea in the west. This part that crosses the Strip is a lower course of this water system. It extends 8.8 km from the Green Line (Armistice line) in the east to the Mediterranean Sea in the west. The width of Wadi's floor ranges from 30 to 270 meters (m), and starts from 30 m above sea level at eastern limits to zero at its mouth. The area of its catchments in the Gaza Strip is nearly 29 km2 or about 0.9% of total Wadi Gaza catchments area. (Fig. 2) The general elevation of the area on both sides of the Wadi ranges from 20-40 m above sea level. By tributaries, this Wadi collects rain waters, which fall on its basin. Overall, these tributaries are naturally main components for Wadi Gaza and they will never be divided artificially. The Gaza Strip must have a share of these waters. Most of the Wadi Gaza basin is under the Israeli control, and the Palestinians in the Gaza Strip is deprived of the Wadi waters because Israel diverts the Wadi Gaza waters, as we will see later, which replenishes the Gaza Strip's aquifers. This Wadi has become dry inside the Gaza Strip, and the Palestinian farmers have lost a main source of waters used in the past to irrigate their lands. They are currently not utilizing the Wadi's waters in supplying their farms with agricultural needs.

3,5 Groundwater

Groundwater is the major and primary natural source of the Palestinians in the

study area, and it is that portion of rainfall that penetrates the earth and gets stored in the aquifers. The study area aquifer is a part of the Palestine coastal aquifer. For its fresh water supply, the study area relies almost entirely on groundwater drawn from its aquifer, with minimal amounts obtained from other sources, such as rooftop rainwater catchments. This aquifer occupies an area that covers the entire land of the Gaza Strip. (See Fig 1) Gaza's Aquifer is often only a few meters from surface. It is also shallow, ranging in thickness from 120 meters near the coast to 10 meters in the east. The slope of the aquifer is from east to west. So, general groundwater flow is toward the Mediterranean Sea in the west. This aquifer consists mainly of sand, sandstone and pebbles of Pliocene to Holocene age. Clayey lenses or layers are found in different areas sloping from east to west too (Kuhail, Z., and Zorob, Z. K., 1996), and are extending inland to a distance 2-5 km. These layers are dividing the aquifer into three sub aquifers, A, B and C, from up to down. The B sub-aquifer is divided into two parts, B1 and B2. Sub-aquifer A is unconfined, whereas sub-aquifers B1, B2 and C become increasingly confined towards the sea. (Fig 3) The deep sub aquifers, B and C, contain saline water underneath the Gaza Strip. Most of the study area water is pumped from sub-aquifer A because it contains the best water quality.

There are 3700 wells drilled within sub-aquifer A. 97% of which are privately owned and used for agricultural purposes, and about 15% of them is fresh wells with chloride less than 250 ppm/l. Approximately 94 wells are owned and operated by individual municipalities and are used for domestic supply (Al Hallaq, A. H., 2002). In 2000, municipal abstraction totaled about 55 MCM/year from 84 wells (39% of which is fresh wells). Also, there are more than 40 fresh wells under the Israeli control and are used by Israeli settlements for agricultural and domestic purposes. These wells pump the best water quality in the study area.

The study area aquifer has an annual safe yield of 60-65 MCM (Sabbah, W., and Isaac, J., 1995), but is currently being over-pumped at the rate of 155 MCM per year. Over-pumping has reduced the Gaza Strip's aquifer to well below sea level and continues to draw it down by 5.1 centimeters (cm) per year in average, but this figure varies geographically from one governorate to another. In Rafah and Khanyounis in the south, for example, this figure was 17 cm and 4.7 cm per year respectively, and 2.4 cm in the north governorate (Al Hallaq, A. H., 2002). This decline reduces the aquifer's hydrostatic pressure, allowing the infiltration of saltwater from the sea and from saline aquifers below and to the east. Saltwater intrusion has already been detected as far as 1.5-2 km inland. While levels of salinity vary geographically, Gaza's groundwater is generally classified as very saline, ranging from 200 to 4500 ppm/l. Salinity increases an average of 15-20 ppm/l per year (Beschorner, N. 1992). This rapid increase has led some predict the total salinization of the aquifer, if there is insufficient additional water to replace that lost to over-pumping (Assaf, K., Al Khatib, N., Kally, E., and Shuval, H., 1994).

6. Fresh Groundwater in the Study Area

There are two main areas in the Gaza Strip that contain fresh groundwater (with chloride less than 250 ppm/l), the first, which has the best quality water, is found in the sand dunes area in south of the Gaza Strip (in Khanyounis and Rafah

1. Introduction

The Gaza Strip depends entirely on groundwater resources for domestic, agricultural and industrial requirements. Groundwater is the major source of fresh water; and is of primary importance to the Palestinians in the Gaza Strip. Groundwater quality is as important as its quantity. In general, the Gaza Strip suffers from bad water quality because of seawater intrusion from the west, lateral flowing of brackish water from the east, and other possible sources of contamination by contact of water with sewage water. The available volume of fresh water in the Gaza Strip is very limited. This volume is also under threat and depletion. Much of the water of the coastal aquifer in the Gaza Strip could be classified as saline. Salinity is affecting many reclaimed areas (Graisse, J. Jacques, 1999).

Since the 1967 occupation of Gaza Strip, Israel has vastly expanded its control over water resources in it. Israel's strategy is to control and derive maximum benefit from all water resources in the occupied territories (Isaac, J. and Hosh, L. 1992). The military occupation had not only several effects on water resources in terms of quantity, but also of quality. While the mountain aquifer system is heavily exploited by Israel, groundwater in the Gaza Strip is already overexploited. This led to serious water quality problems and the partial destruction of the coastal aquifer system. People in the Gaza Strip suffer from water shortage and the very high salinity of their resources out of the coastal aquifer, from which they depend as their only available drinking water resource (Sturm, C., Ribbe, L., and Schwabe, C., 1996). Aquifers in some southwestern and northern parts, where settlements are located, have in many cases lower salinity. Hence, it becomes obvious that the Israeli settlements in the Strip add to its water problems, not only through over pumping, but also as they appear to have been deliberately placed in areas where groundwater quality is the best (Water Resources Action Program «WRAP», 1994).

Currently, most of fresh water with chloride less than 250 parts per million per liter (ppm/l) is found in the aquifers beneath areas of Israeli settlements, while saline groundwater with chloride over 250 ppm/l is found in the rest of the Gaza Strip. Poor water quality, in fact, is one of the Gaza Strip's most serious problems. The Israeli settlements and kibbutzim inside the Gaza Strip itself consume a considerable amount of fresh water, and they severely restricted the Palestinian use of it.

2. Purposes and Scope

This paper summarizes the depletion status of the fresh water in the Gaza Strip that suffers from difficult water crisis in fresh water. This water is only available for Israeli settlers and for very few Palestinians. This paper also explores the Israeli attempts to deplete fresh water directly or indirectly. Moreover, Gaza's fresh groundwater resources have been affected by nitrate pollution due to wastewater return flow from septic tanks or soaking holes. This pollution occurred because of Israel's negligence of the infrastructure in the Gaza Strip during 27 years of occupation.

3. The Study Area

The Gaza Strip (The study area) is a narrow territory of land. It is a coastal plain area with vast expanses of sand dunes. It occupies about 360 square km (km2) along

the Mediterranean Sea and extends northeast from the Sinai Peninsula. This area of land has 40 km of coastline, about 13 km boundary with Egypt, and 59 km boundary with occupied Palestine (Fig. 1).

The area under study has a temperate climate with mild winters and dry hot summers. The winter season officially starts in November and ends in March, causing the precipitation that constitute the major source of fresh water and aquifer recharge (Shawwa, Isam R., 2000). The study area receives an average 357 millimeters (mm) of rainfall per year, more than two thirds of which is thought to be lost by evaporation, and about 1.7% to surface runoff. The remainder recharges its only natural fresh water supply of the Gaza Strip's aquifer, which is located a few meters below it. (Fig. 1)

The study area is generally composed of sandstone. Accordingly, its aquifer is thought to be highly permeable. Its natural replenishment capacity ranges between 35 and 45 million cubic meters (MCM) /year (Myers, C., 1996), and is thought to be tapped by 3700 wells, which extract about 155 MCM in the year 2000 (Al Hallaq, A. H., 2002).

The size of the Gaza Strip current population is more than 1.2 million inhabitants. Approximately 70% of Gaza's population is made of refugees (Roy, S., 1995). High population density and rapid population growth are significant factors in the Gaza Strip, which have much bearing on the present and future state of the environment (Palestinian Environmental Protection Authority, 1994). The Gaza Strip, where most of the inhabitants live in refugee camps, is one of the most densely populated areas in the world (U.S. National Academy of science, 1999), with an average of nearly 3000 people per square kilometer.

4. Data and Methodology:

The primary sources of the data used in this paper are the Palestinian Water Authority (PWA), the Palestinian Ministry of Agriculture (MOA), and Statistical Reports Series. Analysis of freshwater shortage in the Gaza Strip depends partially on field work carried out by the author. A random sample of 760 families have been chosen, and subjected to a detailed questionnaire pertaining to all aspects of water quality and ways of getting fresh water. By using AutoCad Software, some measures are made on the maps to compute and estimate the area and volume of fresh water in the Gaza Strip. This paper attempts to define, analyze, explain the current situation of fresh water of the Gaza coastal aquifer, and explore the attempts of Israel to extract and deplete this water.

5. Water Resources in Gaza Strip

As a basis of discussion, it is important to understand that the fresh water resources available in the study area are limited, scarce, fragile and threatened. The hydrological situation is very critical as the Gaza Strip is not an area with conspicuous water resources (Libiszewski, S., 1995).

1,5 Rainfall

Some causes affect on groundwater depletion. Natural conditions are one of them, specifically climatic factors as rainfall. The wide variation in rainfall received by different parts of the Gaza Strip has been the characteristic feature of Mediterranean

The Israeli policies in Depleting Gaza Strip Fresh Groundwater

Dr. Akram Hassan Al Hallaq

Abstract

This paper highlights the Israeli policies in depleting Gaza Strip (The study area) fresh groundwater. It is known that volume of this water in Gaza Strip's aquifer is very limited. Israel has intensified this problem by direct and indirect depletion of fresh water, with which the Israeli settlements are supplied. These settlements control about 45% of the fresh groundwater stored in the Gaza Strip's aquifer. Israel has stopped Wadi Gaza flow, which used to partially replenish the Strip's aquifer. However, many wells were dug along the northern and eastern borders, and continually pump water. These wells have reduced the flow of groundwater, which recharge the aquifer. Israel also is responsible for the deterioration and degradation of the Gaza Strip's aquifer during the occupation period. This has led to the critical and acute shortage in fresh water.

***** Assistant Professor in Al Aqsa University - Geography Department, Gaza***

السياسات الإسرائيلية
في استنزاف المياه الجوفية في قطاع غزة

د. أكرم حسن الحلاق *

الملخص

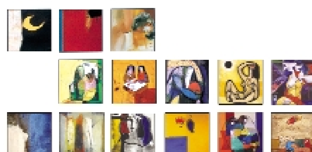
يلقي هذا البحث الضوء على السياسات الإسرائيلية في استنزاف المياه الجوفية العذبة في قطاع غزة (منطقة الدراسة). ومن المعروف أن حجم هذه المياه في خزان قطاع غزة الجوفي محدود للغاية. وزادت إسرائيل من هذه المشكلة بالاستنزاف المباشر وغير المباشر لهذه المياه ، وذلك من خلال تزويد المستوطنات الإسرائيلية ، التي تتحكم بنحو 45٪ من المياه الجوفية العذبة بخزان القطاع الجوفي. كما أوقفت إسرائيل جريان وادي غزة الذي كان يغذي جزئياً ذلك الخزان. من ناحية ثانية ، قامت إسرائيل بحفر عدد من الآبار على امتداد الحدود الشمالية والشرقية ، تضخ منها المياه بشكل متواصل، مما قلل من تسرب المياه الجوفية التي تغذي الخزان. وتعد إسرائيل المسئولة عن تدهور وتدني خزان القطاع الجوفي خلال فترة الاحتلال ، الأمر الذي أدى إلى نقص حاد وحرج في المياه العذبة.

* *أستاذ مساعد، جامعة الغزة - قسم الجغرافيا، غزة.*

مجلة العلوم الإنسانية
مجلة دورية محكمة تصدر عن كلية الآداب - جامعة البحرين

قراءات

قراءات





دفاع عن العولمة

د. عبد الوهاب الأمين *

نبذه عن المؤلف وإنجازاته العلمية

ولد بغواتي في الهند في سنة 1934 وتخرج في جامعة كمبرج في الاقتصاد في سنة 1956 وأكمل دراسته العليا في جامعة أكسفورد، والتحق بجامعة دلهي أستاذًا للتجارة الدولية ثم انضمّ إلى جامعة كولومبيا في نيويورك. وكان مستشاراً لمدير عام منظمة الجات خلال الفترة 1991 - 1993 ثم مستشاراً لمنظمة التجارة العالمية ومستشاراً لرئيس وزراء الهند في مجال الإصلاحات الاقتصادية التي تنتهجها الهند حالياً. ويعدّ بغواتي من أشهر كتاب الصحف العالمية مثل صحيفة النيويورك تايمز والوول ستريت جورنال والفايننشال تايمز.

نشر بغواتي عشرات الأبحاث في الدوريات الاقتصادية الدولية، والكتب في مجال الاقتصاد الدولي، ويعدّ من ألمع الاقتصاديين والمنظرين في التجارة الدولية بالنسبة لجيله. من كتبه المشهورة التي ترجمت إلى عدة لغات كتاب الحماية التجارية، الذي نشر في سنة 1988 وكتاب نظام التجارة العالمية والمخاطرة، ويعدّ الذي نشر في سنة 1991 وكتاب الهند في مرحلة التحول: تحرير الاقتصاد، الذي نشر في سنة 1993 وكتاب التجارة والهجرة والديمقراطية (1998)، وكتاب كيف أخفقت واشنطن في إدارة العولمة (2001) وكتاب التجارة الحرة (2002) وكتابه الحالي الذي نقدمه للقارئ العربي، هو أحدث كتبه قد أثار اهتماماً كبيراً لا في الأوساط الأكاديمية فحسب بل كذلك في المنظمات الدولية ومراكز البحوث العالمية بالإضافة إلى متخذي القرارات في الأقطار النامية، خاصة بعد ونشره كتاب جوزيف ستكلتز «العولمة وإحباطاتها» الذي نشر في سنة 2002 والذي قمنا بمراجعته ونشر في مجلة أوان في عددها رقم (6) الصادر في سنة 2004 وهو من أبرز منتقدي العولمة.

أستاذ الاقتصاد والتمويل بكلية إدارة الأعمال - جامعة البحرين.

الجوانب الاجتماعية للعولمة.

جاء عنوان الفصل الأول بصيغة سؤال لماذا هذه الحملة ضد العولمة؟ ويحاول المؤلف الإجابة عن السؤال قائلاً إنه من دون فهم الأسباب التي أدت إلى ردود الفعل ضد العولمة سيكون من الصعب دحض هذه المخاوف التي تتشبث بها الحركات المعادية للعولمة. ويشير المؤلف إلى أن المظاهرات الصاخبة التي حدثت في مدينة سياتل بولاية واشنطن في سنة 1999 إبان انعقاد اجتماع منظمة التجارة العالمية كانت بمثابة الانطلاقة الدراماتيكية للنقاشات الحادة حول العولمة، حيث بدأ الكتاب يوجهون اللوم للعولمة عن كل شيء ابتداء من تشغيل الأطفال إلى التدهور البيئي والهيمنة الثقافية وكل المشكلات التي تعاني منها الأقطار الفقيرة.

يدعي المؤلف أنّ منتقدي العولمة يركزون على أسلوب البلاغة الكلامية المثيرة للعواطف. ويعتقد أنّ العولمة، إذا ما أحسنت إدارتها، هي أعظم قوة في العالم اليوم أنّ يمكن من خلالها تحقيق الرفاهية في الأقطار الأقل تقدماً. حيث إنها تؤدي إلى زيادة فرص العمل وتحسين مستويات المعيشة للأسرة الفقيرة التي ستتمكن من إرسال أبنائها إلى المدارس بدلاً من العمل، وهو ما يؤدي إلى انخفاض نسبة تشغيل الأطفال في سوق العمل.

كذلك الحال بالنسبة لتحسين مكانة المرأة في المجتمع بعد حصولها على التعليم ودخولها سوق العمل. ويعتقد المؤلف بأنّ النمو الاقتصادي لا يؤدي بالضرورة إلى التلوث البيئي إذا ما تم اتخاذ الإجراءات المناسبة للحد من هذه الظاهرة. أما فيما يتعلق بالهيمنة الثقافية، فيعتقد بأنّ العولمة لا تؤدي إلى هيمنة الثقافة البيضاء وإنما إلى إنتاج هجين من الثقافات المفعمة بالنكهة المحلية.

في الواقع أن المشكلة التي يواجهها أي كاتب هي أن الحركات المعادية للعولمة مازالت غير متبلورة، حيث إنها تضم مجموعات مختلفة توجه الاتهامات إلى العولمة حسب نظرتها الخاصة. لقد حاول المؤلف أن يحصر نقاد العولمة في مجموعتين:

عرض وتعليق على محتويات الكتاب

كيف يستطيع المرء أن يقاوم قراءة كتاب يبدأ مؤلفه في المقدمة بالسؤال الآتي «هل العالم بحاجة إلى كتاب آخر عن العولمة؟ قد يوحي هذا السؤال بشيء من الاعتداد بالنفس، وكأن المؤلف يريد أن يقول بأن كتابه هذا يجب أن يضع حدا لجميع الاتهامات الموجهة ضد العولمة. والحق أنّ المؤلف يتمتع بمقدرة متميزة لدفع القارئ إلى الاقتناع بوجهة نظره المدافعة عن العولمة ضد جميع الاتهامات التي وجهت لها وذلك من خلال أسلوبه الأدبي الساخر في الكتابة ومعرفته العميقة أكثر من أي شخص آخر بجميع الانتقادات التي ظهرت ضد العولمة.

يعرف المؤلف العولمة من منظور اقتصادي، بأنها عبارة عن اندماج الاقتصادات الوطنية بالاقتصاد العالمي من خلال التجارة والاستثمارات الأجنبية المباشرة والتدفقات الرأسمالية وانتقال العمالة والتكنولوجيا. وعلى هذا الأساس، يعدّ المؤلف العولمة الاقتصادية نافعة وليست بحاجة إلى وجه إنساني لأنها تمتلك فعلاً هذا الوجه، إلا أنها يمكن أن تكون أكثر قبولاً إذا ما تم معالجة بعض السلبيات الناتجة عن تطبيقها، وهذا ما حاول المؤلف توضيحه في كتابه الذي يتكون من خمسة أجزاء: حيث يناقش في الجزء الأول الانتقادات الموجهة إلى العولمة. أما الجزء الثاني فيتناول الجوانب الاجتماعية للعولمة. أما الجزء الثالث يناقش الجوانب الاقتصادية للعولمة، مثل التدفقات الرأسمالية القصيرة الأجل وانتقال العمالة. وفي الجزء الرابع، فيتناول التغيرات المحلية والدولية الضرورية من أجل تحسين أداء العولمة. أما الجزء الخامس والأخير، فإنه يلخص بصورة مقتضبة موقفه الداعم للعولمة. وقد خصص المؤلف كل فصل لمناقشة الانتقادات الموجهة للعولمة. فالقراء الذين قد يتوهمون بأنّ دراسة علم الاقتصاد تهتم حصراً بالجوانب المادية ربما يجدون عناوين فصول الكتاب مدعاة للاستغراب مثل: الفقر، تشغيل الأطفال، التمييز الجنسي، الديمقراطية، الثقافة، الأجور، شروط العمل، البيئة، و هي التي يعدّها المؤلف

الأسلوب الأمثل للتعبير عن وجهة نظر المعارضين للعولمة، وإنما الأفضل هو استخدام أسلوب اللا عنف الذي دعا إليه المهاتما غاندي، والذي سار على نهجه مارتن لوثر كنك، إلا انه لا يقدم للقارئ تفسيراً مقنعاً لتبرير جدوى هذا الأسلوب، رغم جدواه من الناحية التاريخية. ولعل من سخرية القدر أن كلا من غاندي ومارتن لوثر كنك، بوصفها نموذجين قياديين يحتذى بهما في الصراع ضد الظلم قد اغتيلا عمداً.

وعلى الرغم من تأكيد المؤلف أن نظام التجارة الحرة يتسم بمنافع عديدة، إلا أنّه لا يدعو إلى إلغاء جميع القيود التجارية بصورة فورية؛ وذلك لمراعاة الظروف المحلية في الأقطار الفقيرة، كما أنّه يبدى اهتماماً كبيراً بدور المنظمات غير الحكومية في تسليط الضوء على المشكلات التي تعاني منها هذه الأقطار في سعيها الدؤوب لتحسين مستوى معيشة سكانها. ويعتقد المؤلف بأنّ المخاوف من العولمة، ربما تعود إلى المراحل الأولى، التي مرت بها العولمة، والتي ركزت بصورة أساسية على التطورات التقنية في مجالات النقل، والاتصالات بدلاً من التغيرات في السياسات الهادفة إلى معالجة المشكلات، كما هو الحال في الوقت الحاضر، إلا أنّه، بدلاً من تحليل هذه السياسات، يكتفي بالقول بأنّ فوائد العولمة هي بالتأكيد أكبر بكثير من مساوئها. ويؤكد بأنّ المشكلات التي تعاني منها الأقطار الفقيرة لا تعزى إلى العولمة، وإنما إلى غياب السياسات، الهادفة إلى تحسين أداء العولمة. فزيادة الإنتاج، والاستهلاك من السلع، والخدمات يؤدي حتما إلى حدوث تأثيرات سلبية على البيئة، إذا لم تتخذ الإجراءات اللازمة لحماية البيئة. ويضرب لذلك مثلا، فإنّ سياسة الحماية، أو الاكتفاء الذاتي، التي كان يتبعها الاتحاد السوفيتي السابق، أو الهند، وبعض الدول الأخرى في الوقت الحاضر لم تشكل ضماناً بعدم التدهور البيئي. كذلك، يعتقد أنّ حرية التجارة من شأنها خلق طبقة متوسطة، تستطيع في النهاية المطالبة بالحقوق الديمقراطية.

أمّا فيما يتعلق بانتشار الثقافة الأمريكية، المتمثلة في وجبات الطعام السريعة،

المجموعة الأولى هي الرافضة للعولمة، مما يعني صعوبة التحاور معها. أما المجموعة الثانية، فإنّها تشكك في جدوى العولمة إلا إنها مستعدة للتحاور. وعلى هذا الأساس، فقد حدد المؤلف موقفه لمناقشة الانتقادات والتحفظات التي أثارتها المجموعة الثانية من النقاد. ويقرر أنّه غير مقتنع تماماً بأنّ هذه المجموعة قلقة حقا بجدوى العولمة من الناحية الاقتصادية وإنما تحاول استغلال الفرصة لجذب الانتباه إلى كتّابها في وسائل الإعلام ويعتقد بأنّ معظم الانتقادات التي توجه إلى العولمة تتعلق بالأبعاد الاجتماعية لها، هذا بالإضافة إلى قضايا عدم العدالة في توزيع الثروة والتلوث البيئي وتشغيل الأطفال. إلا أنّه يعتقد أنّ جميع هذه القضايا أقل أهمية من موضوع الفقر. ويوضح «المغالطات» التي يستخدما معظم النقاد ضد العولمة، مشيراً إلى أن الكثير من المشكلات التي يركز عليها هؤلاء النقاد لا علاقة لها بالعولمة، حيث يردد كثيراً تساؤله بأسلوب ساخر «ما علاقة هذا بالعولمة؟»، فقد أصبحت العولمة برأيه شماعة نعلق عليها كل مشكلاتنا، حتى إذا فشل إنسان في قصة حب يعزوها إلى العولمة! وبهذا الأسلوب الساخر يدعو المؤلف منتقدي العولمة للاستماع إلى أغنية المغنية الشهيرة تينا تيرنر والتي مطلعها «ما علاقة الحب بهذا؟».

إننا نعتقد بأنّ المؤلف، رغم أسلوبة، كان غير موفق في هذا الطرح إذ إنّ نقل النقاش في موضوع خطير إلى هذا المستوى غير مناسب، خاصة وانه يقر بوجود بعض السلبيات للعولمة وتقديمه بعض الأفكار الهادفة لتحسين أدائها، لاسيما ما يتعلق بالتعامل مع مشكلة هجرة العمالة، وإعادة النظر التجارية وغيرها من القضايا التي سبق أن طرحها في العديد من الكتب والمقالات في القيود المنشورة في الدوريات العلمية خلال السنوات الماضية. كما أنه لا يحاول ترك القارئ ليحدد موقفه من هذه القضية الشائكة وذلك باستخدامه أسلوب التهكم بوجهات نظر معارضي العولمة بدلاً من مناقشة آرائهم ودعم وجهة نظره بدلائل إحصائية، مما يقلل من مصداقيته. كما أنّه يعتقد بأن أعمال العنف التي قد تحدث خلال المظاهرات ضد العولمة ليست

ويشير مثلا إلى دراسة عن فيتنام أثبتت أن سياسة الانفتاح الاقتصادي، التي بدأت منذ سنة 1980 ، قد أدت إلى زيادة الإنتاج، والصادرات، وتحسين مستوى المعيشة، وزيادة الإقبال على التعليم، وانخفاض نسبة تشغيل الأطفال. ومع ذلك، فإنّه يقر باحتمال ظهور بعض التأثيرات السلبية للعولمة، وبخاصةٍ تجارة الأطفال، وانتشار الدعارة المرافقة لصناعة السياحة في كثير من الأقطار، إلا أنه يعتقد أن معالجة هذه المشكلات الخطيرة تتطلب اتخاذ إجراءات صارمة على المستوى الدولي، وليس من خلال وضع القيود على حرية التجارة، كما يطالب بذلك بعض النواب في الكونغرس الأمريكي؛ من أجل جعل الصادرات الأمريكية أكثر تنافسية. كما يعتقد أن فرض برامج إعادة الهيكلة على الأقطار النامية، تعترضها الكثير من المشكلات الاقتصادية، والسياسية مما يتطلب تطبيق الإصلاحات الاقتصادية في هذه الأقطار بصورة تدريجية، مع الاهتمام بالإصلاحات الاجتماعية.

ومع أن مشكلة الفقر تعدّ من أهم القضايا التي تعرض لها المؤلف في كتابه، إلا أنّه يكتفي بمعالجة هذه المشكلة من خلال التحليل الكلاسيكي التقليدي، وهو أن التجارة تؤدي إلى زيادة النمو الاقتصادي، الذي يؤدي إلى تقليل الفقر. وعلى الرغم من صحة هذا التحليل من الناحية النظرية، إلا أن الدلائل على أرض الواقع في كثير من الأقطار النامية لا تؤيد صحته. فاستنادا إلى تقرير التنمية البشرية، الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في سنة 1999 ، فإنّ نسبة أفقر 20٪ من سكان العالم من الناتج العالمي قد انخفضت من 3,2٪ في سنة 1960 إلى 7,1٪ في سنة 1980 وإلى 1٪ في سنة 1980 ، في حين ارتفعت نسبة أغنى 20٪ من سكان العالم من الناتج العالمي من 2,70٪ في سنة 1960 ، إلى 3,76٪ في سنة 1980 ، وإلى 86٪ في سنة 1999. أي أن الفجوة بين الأقطار الغنية، والأقطار الفقيرة آخذة في الاتسّاع. كما تبلغ ثروة أغنى 225 شخصًا في العالم أكثر من ألف مليار دولار، أي ما يعادل الدخل السنوي لأفقر 57٪ من سكان العالم، البالغ عددهم أكثر من (2500) مليون نسمة؛ وتزيد ثروة أغنى

والتسلية، التي قد لا يراها البعض تنم عن الذوق الرفيع، فيبدو أن المؤلف يدرك هذه المخاوف، إلا أنّه يعتقد أنّ الولايات المتحدة تدافع اليوم عن حقوق الإنسان، وبخاصة حقوق المرأة، وغير ذلك من الأمور، التي تعدّها الأنظمة التقليدية مهددة لقيمها الاجتماعية، والثقافية.

كذلك، يشير المؤلف إلى أنّ زيادة الأجور قد أدت إلى تحسين مستوى المعيشة في كثير من الأقطار، التي انفتحت على الاقتصاد العالمي، مقارنة بالأقطار التي مازالت تفرض القيود الصارمة على حركة اقتصاداتها. ويشيد بدور الشركات المتعددة الجنسية في نقل التقنيات، وأساليب الإدارة الحديثة إلى الأقطار النامية. ويعتقد أنّ هذا هو الطريق الأمثل للخروج من مشكلة الفقر. ويحاول جاهداً إقناع القارئ بوجهة نظره المتمثلة في أنّ العولمة ليست مفيدة فحسب، بل تتمتع بوجه إنساني أيضا. ويعتقد أنّ الحكم النهائي فيما إذا كانت العولمة مفيدة أو ضارة، نعمة أو نقمة، يعتمد على كيفية التعامل معها. ويبدو هنا أن المؤلف يتفق، بصورة غير مباشرة، مع بعض الانتقادات الحادة، التي وجهها جوزيف ستكلتز، في كتابه الذي أشرنا إليه، لسياسة الإصلاحات الاقتصادية السريعة، التي قامت بها روسيا في مطلع عقد التسعينات من القرن الماضي والتي أدت إلى حدوث نتائج سلبية كبيرة، تمثلت في زيادة نسبة البطالة، والتضخم، وانتشار الجريمة، والفساد الإداري.

أما فيما يتعلق بسياسة التمييز ضد المرأة في الأجور، فيعتقد المؤلف أنّ المنافسة ، وفتح الأسواق أمام التجارة العالمية، من شأنه تحسين ظروف العمل بالنسبة للمرأة. ويشير إلى أن عمل المرأة في الاقطار الديموقراطية قد حسن كثيراً من وضعها ، مقارنة بظروف مع ظروف العمل في الأقطار غير الديموقراطية، حيث انتشار الدعارة هي البديل المتاح. ويعتقد أنّ الانتقادات الموجهة إلى الشركات المتعددة الجنسية، بعدم مراعاة معايير العمل المعمول بها في الولايات المتحدة ليست منطقية، وذلك بسبب اختلاف ظروف المعيشة في الأقطار الفقيرة.

بصفتها غاية بحد ذاتها، وإنما بصفتها وسيلة فاعلة، يمكن استخدامها في السياسات الرامية لمحاربة الفقر. كذلك، فإنّه يقر بفشل حرية التجارة في حالات معينة، مثل حماية الملكية الفكرية، كما يتم تطبيقها في الوقت الحاضر، ويحذر من مغبة الاندفاع السريع في دمج اقتصادات الأقطار النامية في النظام المالي العالمي، قبل اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية هذه الاقتصادات من هروب رؤوس الأموال إلى الخارج. ويؤكد بأنّ السياسات الواعية، هي تلك التي تستفيد من الفرص التي تتيحها العولمة، وفي الوقت نفسه تحمي المتضررين من التغيرات في قواعد اللعبة.

ومما يدعو إلى الاستغراب أنّه في الوقت الذي تمارس فيه منظمات العولمة - البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية - ضغوطها على الأقطار النامية لفتح أسواقها للتجارة الحرة، فإنّ الأقطار المتقدمة مازالت تنفق مئات المليارات من الدولارات سنوياً لدعم المزارعين في دولها، وتفرض الكثير من القيود على دخول منتجات الأقطار الفقيرة إلى أسواقها. وعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع في مفاوضات منظمة التجارة العالمية، إلا أن المؤلف لا يعره الاهتمام الكافي.

تقويم نقدي للكتاب

يعكس الكتاب دون أدنى شك، مقدرة متميزة للمؤلف في عرض أفكاره، إلا أنّه قد اعتمد، إلى حد كبير، على أسلوب السرد القصصي الأدبي، والاستعانة ببعض الاقتباسات من الشعراء، والكتاب المسرحيين، للتعبير عن آرائه على حساب الدلائل الإحصائية، مما قد يضفي بعض الشكوك على مدى صحة استنتاجاته على أرض الواقع. وربما كان ذلك متعمداً، على افتراض أن المؤلف أراد أن يصل كتابة إلى أكبر عدد من القراء العاديين؛ ليحظى بأكبر نسبة من المبيعات، حيث صنف فعلاً ضمن قائمة أكثر عشرة كتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

ويبدو أن موقف المؤلف من الدور الذي يجب أن تلعبه الحكومة غير واضح تماماً،

ثلاثة أشخاص في العالم على الناتج المحلي الإجمالي لجميع الأقطار الفقيرة البالغ عددها 48 قطراً، والبالغ عدد سكانها حوالي (600) مليون نسمة.

ويكرر المؤلف، مرات عديدة، مقولة إن النمو الاقتصادي يؤدي إلى انخفاض الفقر. وهذه مسألة قابلة للنقاش. صحيح أن معدل الفقر في العالم قد انخفض خلال عهد العولمة إلى حوالي النصف، خلال الفترة 1981 –2001,إلا أن النسبة الأكبر من هذا الانخفاض، تعزى إلى حد كبير إلى التقدم الاقتصادي الباهر، الذي حققته الصين، رغم أن توزيع الموارد الاقتصادية فيها يخضع إلى السيطرة المركزية، وأنّ تجارتها الخارجية مازالت تخضع، أيضا، إلى السيطرة الحكومية. فقد انخفضت نسبة الفقر من 28٪ إلى 9٪ خلال الفترة 1978–1998 في حين انخفضت نسبة الفقر في الهند من 51٪ إلى 26٪ خلال الفترة 1978–2000. ولكن صورة الفقر في المناطق الأخرى في العالم، خارج آسيا مازالت قاتمة. فعلى الرغم من انفتاح أقطار أمريكا اللاتينية، ومنطقة الكاريبي على التجارة الحرة، وارتفاع معدل النمو الاقتصادي فيها بنسبة 1,6٪ خلال عقد التسعينات من القرن الماضي، إلا أنّ نسبة الفقر في هذه الأقطار قد ارتفعت بنسبة 0,1٪. أما في أفريقيا، وجنوب الصحراء، فصورة الفقر أكثر مأساوية.

وفيما يتعلق بمسألة نمط توزيع الدخل، وهي من القضايا التي تستحق الاهتمام الكبير، فإنّ المؤلف اختزل هذا الموضوع في صفحتين فقط! إلا أنه أقرَّ بأنّ العولمة بحاجة إلى إدارة أفضل؛ لتقليل الأضرار التي قد تلحق بالفقراء، وكذلك اتساع الفجوة بين الأقطار الغنية، والأقطار الفقيرة، وذلك من خلال تبني سياسة محددة؛ لتحقيق ثلاثة أهداف رئيسة، هي: أولاً، التوصل إلى معايير عملٍ على المستوى الدولي. ثانياً، تحديد مفهوم نظام الحكم الجيد، من خلال دور المنظمات غير الحكومية بخاصة. وثالثاً، إدارة التحولات اللازمة نحو العولمة.

وعلى الرغم من قناعته الراسخة بأهمية حرية التجارة، إلا أنّه لا ينظر إليها

يبلغ مريضه بأنه قد يفارق الحياة قريبا، بسبب خطورة مرضه، فإنّ هذا لا يعني أنّه يتمنى الموت لمريضه. ترى هل كل من حذر من المساوئ المحتملة للعولمة يتمنى لها الموت؟ نترك تقرير ذلك لفطنة القارئ الكريم.

فتارة يشكك في جدوى التدخل الحكومي الواسع، وتارة يدعو إلى التدخل المباشر، وتنسيق السياسات، وهذا يقودنا إلى استنتاجين، الأول أن مناقشة المؤلف لبعض القضايا الساخنة لا تتسم بالوضوح التام، ويعزى ذلك إلى استخدامه الواسع للجمل الطويلة، التي تغرق القارئ بتعابير أدبية، تضيع عليه الوصول إلى نتيجة محددة. والثاني، أن معرفة المؤلف الواسعة بالأدب والفلسفة، جعلته يفضل هذا الأسلوب في المناقشة، بدلاً من المنطق المقنع، الذي يستند إلى الدلائل الإحصائية.

وعلى الرغم من دفاع المؤلف المستميت عن العولمة، حيث عدّها «كجزء من الحل، وليس كجزء من المشكلة، فإنه لا يدعو إلى قبولها دون أي شروط. حيث إنّه ينتقد بحدة زج موضوع حقوق الملكية الفكرية في الاتفاقيات التجارية، كما أنّه يشك في نزاهة الشركات الكبيرة، وتشجيعها للفساد الإداري، طالما كان ذلك يخدم مصالحها الذاتية.

وأخيراً، لا بد من الإشارة إلى أنّ هذا الكتاب، ربما قد لا يكون الأخير، كما أراد له المؤلف، في قائمة الكتب العديدة التي صدرت، لحد الآن، حول العولمة. إلا أن هذا الكتاب بلا شك جاء ردًا على كتاب ستكلتز «العولمة وإحباطاتها»، الذي صدر في عام 2002 وتصدر قائمة أكثر الكتب مبيعاً، وهو من منتقدي العولمة. وندعو القارئ المهتم لفهم خفايا النقاشات الحادة حول العولمة إلى قراءة «دفاع عن العولمة» أيضاً. ولكننا نود أن نختم هذه المراجعة بمقالة الاقتصادي الشهير جوزيف شومبيتر، الذي يعدّ من أشدّ المدافعين عن النظام الرأسمالي، في كتابة الموسوم «الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية» (1942) الذي تنبأ فيه بزوال النظام الرأسمالي، وحلول النظام الاشتراكي محله، لا بسبب فشل الماكنة الاقتصادية للنظام الرأسمالي، كما ادّعت الماركسية، وإنما بسبب النجاحات الباهرة التي حققها النظام الرأسمالي، والتي أدت إلى ظهور طبقة اجتماعية مناهضة للنظام، وهي النخبة المتعلمة (الانتلجنسيا). ويصور شومبيتر مشاعره حول الرأسمالية بحالة الطبيب، الذي

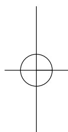
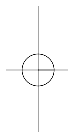
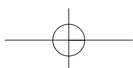
حياة الصورة وموتها:
ثقافة المرئي في بعدها «الوسائطي»

د. المعز بن مسعود *

يُعَدُّ حقل البحث في مجال الصورة من الحقول التي تكتسي أهمية بالغة خاصة في فترة ما بعد الحداثة التي ركزت على الصورة بوصفها أداة رئيسة للتواصل مع الآخر والتأثير فيه بعد أن اهتمت الحداثة بسحر الكلمة وفعاليتها. وقد تناول أهم الكتاب - بمن فيهم ريجيس دوبري- الصورة على أنها «ليست سابقة على الممارسة الإنسانية بل إنها في الممارسة وجزء منها، إنها مرتبطة بخطاب إنساني يجنح إلى منح الظواهر الطبيعية أبعادا دلالية تتجاوز الأبعاد المادية الوظيفية» [1]. وعلى الرغم من انفراد الصورة بمجموعة من الخصائص التي تجعلها تدخل طبيعيا ضمن حقول تطبيقية عدة، نرى أنها مثل الكلمات لم يكن في إمكانها تجنب الارتماء في لعبة المعنى أو في ألف حركة تأتي لتعالج الدلالة في قلب المجتمعات». [2]

ولعل ذلك من أهم ما تناوله كتاب حياة الصورة وموتها «Vie et Mort L'image» للمؤلف الفرنسي ريجيس دوبري. وإن اعتبر هذا المصنف امتدادا فكريا « لدروس في الوسائطية العامة» للمؤلف نفسه، إلا أن قيمته المضافة يستمدها بالأساس من أطروحات فلسفية وثراء نظري وتساؤلي يجعله - حسب رأينا- أقل تعقيدا من «دروس في الوسائطية العامة». كما أن المكتبة العربية تفتقر إلى مثل هذه المصنفات الفكرية و تهيمن عليها الدراسات التي تهتم بالمضمون اللغوي على حساب الصورة مما يجعل الاهتمام بدراسة مثل هذا الكتاب - على دسامته- أمرا في غاية الأهمية بالنسبة للمشتغلين والباحثين في مجال تحليل الصورة.

* *أستاذ مساعد في العلاقات العامة والإعلان بقسم الإعلام والسياحة والفنون بجامعة البحرين.*

الحياة الاجتماعية كلما غدت الصورة أقل حيوية، وكلما غدت معها حاجتنا إلى الصور أقل مصيرية» [4] . فالصورة هنا تحتاج إلى معنى وإلى مرجعية يبثان فيها الحياة.

وهي لذلك – وكما يصفها دوبري– «شيء يقبل التعرف، ولا يقبل الإنكار». فالنظر إلى الصور لا يعني التلقي الآلي، وإنما ترتيب المرئي وتنظيم التجربة من خلال الأنساق الإنسانية والثقافية لكل مجتمع: فلكل مجتمع «ثقافته البصرية»، وكل ثقافة بصرية «ليست معزولة عن الثورات التقنية التي تغير في كل عصر شكل ومضامين وكمية الصور التي يستحوذ عليها كل مجتمع» [5] .

لذلك يعتبر دوبري أن التطورات المشتركة في مجال التقنيات والمعتقدات قد أدت إلى التعرف على ثلاث حقبات في تاريخ المرئي: النظرة السحرية، النظرة الجمالية، والنظرة الاقتصادية. إن هذه الحقبات التي يؤكدها المؤلف في كتابه هي عبارة عن تنظيم للعالم، مهد للصورة تواترها الرمزي - بالرغم من عدم امتلاكها للخصائص الدلالية للغة – ومنحها قدرة فائقة على الإيصال. «فالصورة ذات فضل لأنها أداة ربط، لكن بدون مجموعة بشرية متماسكة، تنتفي الحيوية الرمزية». [6]

وانطلاقا من هذه الحيوية الرمزية استمدت الصورة قوتها وفعاليتها، وأصبحت في الآن نفسه مصدرا لخلاف بين أولئك الذين يرغبون في زحزحة وصاية الفكرة على الصورة وسلطة المثقفين على الفنانين، الشيء الذي قد يؤدي إلى الخلط بين الوظيفة التوسطية (fonction médiumnique) والاستعمال الوسائطي السمعي المرئي usage médiatique، فيبقى هؤلاء - كما يقول دوبري– أسرى النموذج الباهت للتواصل.

وامتدادا لهذا الطرح يعتبر المؤلف أن «مصائب إبداع الفن المعاصر ليست بالتأكيد راجعة للفنانين أنفسهم، فالكل يتقاسم المسئولية، بل أن صورنا قد فقدت حيويتها ورمزيتها؛ لأن نظرتنا قد خضعت للخوصصة». [7]

ملتقى الفن والدين والتقنية

من خلال تصدير اختار له عنوان «في ملتقى تاريخ الفن والديانات والتقنيات» يضع ريجيس دوبري إطارا لحديثه عن الصورة بوصفها مجموعة من الدلالات «تمارس الفعل وتحث على رد الفعل» وبوصفها أيضا - من وجهة نظر وسائطية (approche médiologique-) تحمل كل غموض المنهج الواقع بين تقاطع معارف عديدة كتاريخ الفن وتاريخ الديانات وتاريخ التقنيات.

يبدأ ريجيس دوبري حديثه عن الصورة بحكاية طريفة، ولكنها معبرة عن أحد أباطرة الصين الذي طلب من كبير الرسامين في القصر أن يمحو الشلال الذي رسمه في لوحة جدارية؛ لأن خرير المياه كان يمنعه من النوم. هذه الحكاية فاتنة باعتبار أن اللوحة الجدارية؛ لا تعدو أن تكون صامتة ولكن المنطق الذي يحكمها قد نجد فيه احتقارا لقدراتنا الذهنية. في هذا السياق نفسه - وعلى نقيض الطرح الأول- يستشهد ريجيس دوبري بمقولة ليون باتيستا ألبرتي Leon Batista Alberti الذي كان ينصح المرضى من المصابين بحمى كبرى أن يتأملوا رسومات لمنابع وأنهار وشلالات، و يعتبر بأن لذلك فضلاً على صحتهم: «إذا ما أصاب الأرق أحدا منكم يوما فليتأمل ينابيع المياه ليجعل النوم يسرا عليه».[3]

إن لكلا المثالين -على تشابههما- تمثلات « représentations» متناقضة تتغير في أعيننا، وتختلف من المرئي إلى الرائي بحسب الفضاءات والطقوس والروابط. ويرتبط هذا التناقض في التمثلات بطبيعة الدلالة ذاتها. فالدلالة هنا يجب أن تفهم من خلال الأنساق المبنية التي تقوم باستعادة القيم الدلالية المحصل عليها من خلال الممارسة الإنسانية ذاتها.

وقد يحيلنا ذلك إلى «مرحلة تكوين الصورة»، وهي المرحلة التي يبني من خلالها ريجيس دوبري فكرته القائمة على علاقة «ولادة» الصورة الوطيدة بـ«الموت» ويعتبر أنه إذا «كانت الصورة تنبثق من القبور، فذلك رفض منها لك، كلما انمحى الموت من

لقد أدى هذا التطور على مستوى فلسفة تقبل الصورة في المجتمعات الغربية وما صاحب ذلك من تحولات إلى بروز رهان استراتيجي تمكنت من خلاله هذه المجتمعات إلى لعب دور أساسي في تحويل الهيمنة على باقي المجتمعات من «هيمنة مكتوبة» إلى «هيمنة مرئية»، وتغيير الوجهة الجغرافية لهذه الهيمنة من أوروبية إلى أمريكية.

فإذا كان عصر الكتابة الأوروبي قد أفضى إلى دمقرطة «الكتاب» وهي السيرورة التي استمرت لقرون عديدة حتى تحقق محو الأمية من عموم أوروبا، فإن عصر الشاشة الأمريكي قد أفضى إلى دمقرطة الصورة، حتى غدت الأرض مجالا مرئيا... فقد وصل الكتاب إلى كل الناس فقراء أو أغنياء، كما تصل الصورة الآن إليهم كلهم حاكمين أو محكومين. بيد أن مراقبة الصور الفعلية بالاستوديوهات والإدارات الدولية قد غير من خارطة الهيمنة وأعاد تشكيل مجالات التواصل.» [12]

وبما أن الانتقال من الثقافة الشفوية إلى الثقافة المكتوبة قد حقق قفزة بالتوحيد الوطني للمجالات المحلية عبر إبادة اللهجات الجهوية فإن الانتقال إلى الثقافة البصرية الجديدة قد حقق قفزة بالتوحيد العالمي للمنظورات عبر إبادة الصناعات الوطنية للمتخيل، [13] حتى إن الأمم أصبحت ترى العالم اليوم بعيون أمريكية.

ولعل ذلك ما يجعلنا نطرح تساؤلات حول ممارسات الصورة اليوم. هذه التساؤلات تتراوح بين التقني والرمزي والسياسي.

فتقنيا تطرح أسئلة من قبيل «كيف تتم صناعة الصورة؟ وما المواد والمسافات والأرضيات التي تستعملها؟ وأي مكان للعرض، وأي تعليم تستلزم؟ أما رمزيا فيطرح سؤال حول المعنى الذي تطلقه الصورة والأطراف التي توجد بينها. وأخيرا سياسيا، يطرح سؤال حول سلطة الصورة ومن يراقبها ومن يحدد وجهتها.

هذه الأسئلة حاول دوبري إيجاد أجوبة لها، أو بالأحرى بدايات أجوبة من خلال استشرافه «لمادية دينية» تكون أساسا لتمرير مقاربته «الوسائطية» approche

امتلاك الغرب لعبقرية الصورة

لقد سعى الغرب ومنذ زمن بعيد إلى امتلاك «سحر» الصورة كمحور يحيل إلى الهيمنة. وقد وظفت الصورة في المجال السياسي في البلدان الغربية منذ القدم كبناء تركيبي معقد يحمل دلالات عديدة، استخدمه السياسيون عندما كانوا يستمدون شرعيتهم من الكنيسة، أي السلطة الدينية التي لم يتسن لها أن تتخذ موقفا واضحا من الصورة واستخداماتها.

فتاريخيا، ونظرا لأن «المسيحية لها تجربتها التبشيرية الخاصة وتشبعها بالاعتقاد في الطبيعة المزدوجة للمسيح، فقد كانت وحدها القادرة على فهم التباس الصورة بوصفها قوة إضافية وكشفا للروح في الآن نفسه. ومن ثمة يأتي موقفها الغامض من الأيقونة والرسم كما موقفها اليوم من السمعي المرئي». [8]

بالاعتماد إذًا على هذه المقاربة التاريخية الدينية سعى دوبري إلى رسم صورة للتمشي الذي تبناه الغرب في امتلاكه لناصية سبل التفوق في مجال الصورة. فتدرج بنا دوبري من مفهوم الكتاب المقدس وتحريم الصورة إلى ديانة التوحيد المنشقة وحسم مشروعية الصور في المسيحية من خلال ما اصطلح على تسميته -عند دوبري- بفتنة السلطة، حيث شهدت هذه الفترة الزمنية مصالحة الكنيسة مع الصورة، أو بالأحرى انصياعها للصورة والإمبراطورية معا «وكأنها بذلك لم تتمكن من الاستغناء عنها لتجذير تعاليمها وجذب الناس لصفها» [9]. ومع ثورة العقيدة أصبحت «الصورة أكثر عدوى وأكثر وباء من الكتابة. لكن فيما وراء فضائلها المعروفة التي لا تجعل منها في حدود معينة سوى وسيلة إعادة الخلق التدويني التعليمي، فهي تملك موهبة رئيسة في صنع لحمة المجموعة المؤمنة» [10]. وقد تطلب ذلك من الغرب وقتا طويلا لمقاومة التطرفات الروحانية حتى تصبح الصورة «بمثابة مصدر للعلمانية وضمانًا ضد التعصب المفرط...، بوصفها تمثل فاصلا بين القانون والعقيدة» [11] .

وذلك منذ مهده التاريخي وحتى عهد قريب.» [19]

ويبرهن دوبري على ذلك من خلال تحديد «جغرافي» للفن، ومن خلال دراسة علاقة الإنسان بالفن والطبيعة. فمادام الإنسان يحدق في السماء- كما يقول دوبري- فإنه يعمى عن رؤية الأرض والناس الآخرين. لقد ظهرت المشاهد الطبيعية والوجود الإنساني في الفن التشكيلي الغربي في الفترة نفسها تقريبا، ذلك أن الإنسان لا يحب ما يرى، وإنما يرى ما يحب. فالطبيعة والفن بوصفهما قيمتين قد كانا في أصل بعضهما. فهل سيخلد أحدهما الآخر؟» [20]

السؤال لم يطرح لإيجاد إجابة عنه، بل لإيجاد امتداد عبر «عصور ثلاثة للبصر» بدأت منذ نهضة الفنون إلى يومنا هذا. هذه العصور الثلاثة ما هي إلا تعبير عن قطائع وسائطية ثلاث «الكتابة والطباعة والسمعي المرئي». هذا التقسيم هو نفسه الذي اعتمده ريجيس دوبري في كتابه «دروس في الوسائطية العامة» وذلك بالتمييز المفصل للعصور الوسائطية الثلاث التي تتلخص في: عصر الخطاب logosphère ويعني به المؤلف عصر «الأصنام» بالمعنى العام للكلمة (كما تعبر عنها الكلمة الإغريقية eidolon صورة) وهو يمتد من اختراع الكتابة إلى اختراع المطبعة. ويطابق عصر الكتابة Graphosphère عصر الفن، الذي يمتد من المطبعة إلى التلفزيون بالألوان، أما عصر الشاشة videosphère فهو يقابل عصر البصري (بحسب المصطلح المقترح من قبل سارج داني) وهو ما نعيشه اليوم بالفعل.

وكل عصر من هذه العصور يرسم وسطا حياتيا وفكريا - له ترابطاته الداخلية الضيقة - ونظاما بيئيا للرؤية.

ويتبع الكاتب تفكيرا نسقيا في طرحه هذا مستخدما معايير «الوسائطي» التي تختلف عن معايير المؤرخ، معتبرا أن إدارة شئون العصور «الوسائطية» الثلاث عموما، «تعود في كل عصر للمجموعة التوسطية المركزية، أي الفئة الاجتماعية التي تمنح للحظة معينة من تاريخ الغرب روحها وأسلوبها». [21]

(médiologique) وهي المبحث الذي يتكفل بالكشف عن نقاط لقاء وتوحيد التقنية والسياسة والدين. «فبعيدا عن لوازم البصر التقنية، يمكن لهذا المبحث الجامع (interdisciplinaire) أن يتناول تكنولوجيات المقدس». [14]

ولكن أمام صدام الأزمنة نجد أن حركية الصورة والكلمة ليست من الطبيعة نفسها ووجهتهما ليست هي نفسها أمام مقصد المعنى. فيمكن أن يتم أحيانا تجاوز ظاهر المعاني والدلالات، سواء في الكلمات مكتوبة كانت أو منطوقة أو في الصور مرسومة كانت أو منحوتة، ونجعل من سلطة الصور تعبيرا يستلزم فهمه في معناه المادي، أي في معنى إنتاج الآثار وتغيير السلوك.

الفن، العصر البصري والمال: من يخلد من؟

قد لا يجد القارئ المفكر فيما كتب ريجيس دوبري في مؤلفه «حياة الصورة وموتها» خيطا رفيعا يمهد انتقاله من أطروحة إلى أخرى، ولعل في ذلك عبقرية هذا الكاتب في طرحه «للفن لا بوصفه ثابتا من ثوابت الوجود الإنساني بل بوصفه» مفهوماً متأخراً وخاصاً بالغرب الحديث، ولا شيء يضمن استمراريته». [15] ولعل في هذا الطرح تجريداً أسطورياً يستمد مشروعيته من «تاريخ الفن ليس بأقل أسطورية بوصفه الملجأ الأخير لخط الزمن الطوباوي» [16].

«فالفن – كما هو حال العقل والإنسانية وكما يبين دوبري ذلك في كتابه – لا يتقدم إلا بالتراجع باتجاه حوافز تقدمه والموجودة في مراحل سابقة. «هذا التجديد عبر التراجع أو العودة يقيم فرقا بين ردة الفعل الحي والتراجع القاتل وبين النهضة» [17]، وما ذلك إلا تعبير عن اللولبية اللانهائية للتاريخ. حتى لما أراد تشريح شبح الفن القديم انتهى المؤلف إلى أن الفن فيما قبل وولادة الفن - بوصفه وسطا لنظام العالم وانعكاسا خالصا في المرآة– هو الشبح المتلاشي لما هو في ذاته، الذي لا تهمه سوى الحقيقة والطابع الكوني». [18] ولم يكن الفن ضائعا، وإنما ظل فقط غير مفكر فيه،

الانطباع بالألفة الذي يتركه كل ما لم نره أبدا يأتي من كون كل درجة مما «بعد الحداثة» تعيد تشغيل شيء عتيق ينبثق من أمامنا وقد ضنناه وراءنا قد تبخر مع «ما قبل الحداثة». وكما أن العولمة الاقتصادية تؤدي في الشمال إلى عودة الحاجة إلى التجذر الوطني والمثاقفة العلمية فإن كلية الحضور الإلكتروني تخدم البصري عبر إلغاء المسافات والآجال». [26]

هذا الإلغاء للحدود والمسافات أدى إلى وجود تواصل تلفزيوني وتوحد سينمائي. ويتم هذا التواصل حين يتطابق العرض مع الطلب، كما في الفن «حين تتوافر إمكانية تصور عرض الصور بمعزل عن الطلب. فالتواصل يتم قياسه على البث وهذا الأخير ليس سببا مباشرا في وجود الإبداع. كما أنه عندما ننتظر من آلة بث الصورة كالتلفزيون ما ننتظره أصلا من آلة لإنتاج الصور كالسينما فإن صناعتي المتخيل هاتين لا تتعارضان كما لا يمكن الخلط بينهما». [27]

فإذا كانت السينما تحمل لباس صناعة فنية تنتج سلسلة من الأنماط فإن التلفزيون كتلة مكونة من «إنتاج وبث وتوزيع وصناعة آلية». فلكل عصر ثقافي ولكل وسط إرسال معايير ذكائه. وقد ميز أندري مالرو بين ثلاثة أنواع من المعايير، فَعَدَّ أن «الذكاء هو تدمير الكوميديا إضافة إلى الحكم ثم الذهنية الافتراضيـــة». [28]

«إن ما نرى به العالم هو ما يبني بشكل متزامن العالم والذات التي تدركه. وما تبنيه آلة التمثيل والتصوير، في النهاية هو توافق الاثنين، وهو تناغم لاواع وصامت، ولذلك فهو فعال. فالذات توجد لأجل الموضوع، والموضوع لأجل الذات، والاثنان معا ينتظمان في نسق: فلا مجال للدهشة حين تتطابق الأشياء بشكل كامل. إن نظاما جديدا للصورة يعتمد نظامه الخاص للحقيقة، بالشكل الذي لا يكون معه قابلا للنقد بل قابلا للملاحظة والرصد من الداخل. بالمقابل هو نظام يغدو قابلا لأن يتخذ شكلا موضوعيا بسهولة.

فالصورة التلفزيونية هي شكل من أشكال رؤية الصورة التلفزيونية، التي تستبعد

وهنا يطرح موضوع علاقة المال «بالقطعة الوسائطية المميزة للعصر». فإذا ما أخذنا الفن بوصفه «القارة المميزة لإحدى الوسائط الثلاث»- كما أوردها ريجيس دوبري في كتابه-، نجد أن علاقته (أي الفن) بالمال وطيدة باعتبار أن المال يساهم في تداول الفن الذي يساهم بدوره في تداول المال. وكأن المؤلف هنا يجعل من مقولة هيجل «المال هو حياة ما مات وهو يتحرك في ذاته» منطلقا لإيجاد علاقة بين المال والفن. بل يذهب دوبري إلى القول بأن «المال يحقق قيم الفن الذي بدوره يحول المال إلى شيء غير واقعي، ويجعل منه علامة خالصة». [22]

أما العصر البصري فَيُعَدُّ شاهدا على ما اصطلح على تسميته برأس المال المرح الذي وافق مرحلة تفوق رأس المال المالي (المال مقابل النقد) على رأس المال الصناعي (المال مقابل الصناعة)..

مثل هذا الطرح يُعَدُّ منطلقا لوضع إطار عام للحديث عن قضية المعرفة والمعنى أو قضية «ما بعد الفرجة» حسب المصطلح المستخدم من قبل دوبري. فقد استطاع المؤلف أن يعيد تنظيم الفنون البصرية تماما مثلما تمكنت الفوتوغرافيا والسينما والتلفزيون والحاسوب من ذلك بعد أن احتوت الصورة القديمة التي صنعها الإنسان بيديه على إثر انتقال «آلات البصر» [23] من الكيميائي إلى الرقمي. «وفي هذه المرحلة دخل الإنسان عصر الشاشة» بوصفه ثورة تقنية وأخلاقية لا تشكل ذروة «مجتمع الفرجة» وإنما تعلن عن نهايته. [24]

هذه النهاية سبقتها حقبات عدة ميزت العصور الإنسانية من الصدمة الأولى للصورة الفوتوغرافية التي «زعزعت نظام رؤيتنا» [25] إلى سيدة الفنون - كما يحلو لدوبري تسميتها- ، وفي ذلك إشارة إلى السينما، إلى التلفزيون بالألوان الذي غير نمط إدراك الفضاء والزمن بكامله والذي يُعَدُّ «الباث الطبيعي» للفيديو.

و يبدأ البصري- حسب دوبري- حيث تنتهي السينما. وفي هذا الإطار يطرح المؤلف مفارقات عصر الشاشة بما يحمله من «عتاقة» ما بعد الحداثة، إذ «إن

بذلك تفتت الروابط الاجتماعية، الذي بدأ مع الثورة الصناعية أي قبل اختراعه.

بيد أن الأطروحة النقيض لا تقل متانة عن الأطروحة. «فالأمر يبدو كما لو أن فضاءنا العمومي الزائف قد كان ناجحا، وأن علينا من هنا فصاعدا - على الأقل في البلدان المتقدمة - أن نقرن بين التقدم في الوسائط السمعية المرئية والتراجع الديمقراطي في الوقت نفسه وبالإيقاع ذاته». [32] فالتلفزيون يفرغ السياسة من طابعها السياسي ويفرغ الناخبين من كل حافز والمسئولين من كل مسئولية ويعزز شخصنة السلطة.

وقد تكون الصورة التلفزيونية عاملا إضافيا للامساواة أيضا، باعتبار الظهور المفاجئ للمال في مجال الصورة، وللصورة في مجال الإقناع الجماهيري، مما يساهم في تحلل الفضاء المدني داخل الفضاء الاقتصادي، ويربط أكثر المساواة في الحقوق باللامساواة الفعلية، ويخصص الوظائف القيادية لمن هم أكثر غنى.

الثنائية الثانية تتعلق بالفضاء وذلك من خلال الطرح الآتي: «التلفزيون يفتح العالم»، «التلفزيون يوازي العالم». فقد يتباهى البعض عن حق بأن التلفزيون غدا عاملا لا سابق له للانفتاح على الآخرين ولنهاية الحدود وولادة المواطن العالمي ومعه مرحلة ما بعد الوطنية. لكن التلفزيون أيضا قد فتح الأعين والقلوب على الآلام والاضطهادات، وأصبحت كل صورة مبثوثة هي في حد ذاتها علاقة اجتماعية تتحول إلى عاطفة فردية. تماما مثلما أصبحت الصورة الصناعية أداة تحسيس للاتكافؤ العالمي بين بلدان الشمال والجنوب.

الثنائية الثالثة تتعلق بعلاقة التلفزيون بالزمن على اعتبار أن «التلفزيون ذاكرة هائلة»، وكذلك «مصفاة قاتلة». ويؤيد التقنيون الأطروحة فيما يعارضها مؤيدو الاستعمال الاجتماعي. فمن الناحية التقنية يُعَدُّ التلفزيون جهاز تخليد الحياة. أما من ناحية الاستعمال الاجتماعي فإن التلفزيون قد يفرغ الذاكرة من محتواها وقد يقنع بالذكاء و بقدسية اللحظة وينزع عن التاريخ طابعه التاريخي. «التلفزيون قناة

رؤية الرؤية إلا إذا نحن أدرنا الزر طبعا»، [29] وهو ما قد يطرح قضية جدلية التلفزيون أو متناقضات السمعي المرئي.

في علاقة السمعي المرئي بالعقل الخالص

لعل أهم وسيلة يمكن أن تبرز من خلالها اليوم هيمنة الصورة في كل تداعياتها هي التلفزيون. فالصورة التلفزيونية تطرح عدة مفارقات قد تقوم على المداعبة: مداعبة رجل السياسة للتلفزيون ومداعبة التلفزيون لرجل السياسة. وقد عبر ريجيس دوبري عن ذلك - ولو ضمنيا في كتابه حياة الصورة وموتها- من خلال طرحه لمجموعة من المتناقضات يقوم عليها مجال السمعي المرئي وفي ذلك إشارة إلى التلفزيون بدرجة أولى. فقد ركز المؤلف - فيما اصطلح على تسميته بجدلية التلفزيون الخالص – على التلفزيون في علاقته بالأطروحة والأطروحة النقيض من خلال دراسة مجموعة من الثنائيات المتناقضة. ولا يدخر ريجيس دوبري جهدا في بيان لوحة متناقضات السمعي المرئي التي تشبه إلى حد بعيد لوحة العقل الخالص. «فكل أطروحة لها نقيضها، ولا تستطيع أية واحدة منهما نفي الآخر بحيث إن معادي الصورة والمعتقد فيها محكوم عليها بالعيش معا وربما في نفس الذات الإنسانية». [30]

أولى الثنائيات المتناقضة التي ينطلق منها دوبري هي: «التلفزة في خدمة الديموقراطية» أو «التلفزة تفسد الديمقراطية». يعلن حرفيو الصورة الذين يعيشون منها أنهم مع الأطروحة، أما حرفيو الأفكار الذين يشعرون بالخسارة في ظلها فهم مع الأطروحة النقيض. وكل واحد منهما على علم بأن التلفزيون هو الشيء الذي يعشق المثقفون كرهه، ويكون رجال السياسة مضطرين إلى حبه. فكيف الخروج من أحادية وجهات النظر هذه؟

تقول الأطروحة بأن التلفزيون ديمقراطي؛ «لأن كل الناس يشاهدونه، وكل الناس يتحدثون عنه. فالمساواة ضرورية لممارسة الديمقراطية». [31] إن التلفزيون يتدارك

وقياس وصياغة معادلاتها صياغة جيدة (خطاب المنهج). أما جواب عصر الشاشة فهو عدم الثقة أبدا في الأفكار، المهم هو أن تكون الصورة جيدة. إن صورة ما تكون أكثر قابلية للتصديق من وجه معين، وشريط فيديو جيد أكثر من خطاب بليغ. فلكل واحد رأيه في الأذواق والمناهج والأفكار. وفي اللغة عوضت كلمة البصر كلمة التفكير والفهم فأمس كان يقال: «إنه الحقيقة فقد قرأته في الصحف أما اليوم فيقال : «صدقت الأمر لأني شاهدته في التلفزيون. ولم يعد أحد الآن يعارض بين الخطاب والصورة. فالمرئي لا يمكن تفنيده بالحجج، وإنما يتم تعويضه بمرئي آخر.

لقد أضحى نظام البصري نظاماً يمارس قيادة صارمة للعقول إلى درجة لا يتم التفكير فيه بوصفه كذلك. إنه «نظام سلطة يقوم نفسه على أنه بديهي». «فما يرينا العالم هو أيضا ما يعمينا عن النظر إليه: إنه - كما يقول دوبري-إيديولوجيتنا». [34]

الأطروحة الثانية تبحث في ماهية الصورة نفسها، فالصور وعلى عكس الكلمات في متناول الجميع بجميع اللغات وبدون حاجة إلى أي تعليم. «فالبرمجة المعلوماتية توحد طبقات برج بابل بكاملها من بيكين إلى نيويورك مرورا برأس الرجاء الصالح. لكن بمجرد ما تطفأ الشاشة يتبقى الوصول إلى البصائر التي تنظم كل عالم مرئي»[35]. فالواقع غدا مقولة تقنية ثقافية، وهذه التقنية أصبحت عالمية.

«فما الذي سنتحدث عنه بيننا إذا كان الواقع هو نفسه لدى الكل؟ وإذا ما غدت اللغة وحيدة فهل ستبقى لنا الرغبة في الحديث من طرف الأرض إلى الطرف الآخر؟» كما يقول دوبري في أطروحته الثالثة.

الإجابة عن هذا السؤال أتت بها الأطروحة الرابعة التي تعدُّ أن المعاهدة المتعالية للنظرات التي تحدد الثقافة الضمنية لمجتمع ما، لا تنتج عن عقد اجتماعي، ثم مناقشته بحرية بين ذوات بلا موضوع ولا ماض. «إننا ورثة مجددون مثقلون بالأساطير. والذات المؤمنة مثلها في ذلك مثل الذات المدركة هي ذات تقنية؛ لأنها قبل كل شيء إنسان متخيل». [36]

للحقيقة»، «التلفزيون مصنع للخدع»، هي الثنائية الرابعة التي يقدمها ريجيس دوبري في حديثه عن قيمة الواقع وعن الإيهام بالواقع. فالصورة التلفزيونية بصفتها وثباتها تعبر عن القوة الخاصة للتقريري المتمثلة في: «هذا ما حدث»، وتقدم بذلك الحجة التي تلغي كل خطاب أو سلطة. لكن الإيهام بالواقع الذي يكون كبيرا على شاشة التلفزيون، خادع باعتبار أن لا مبرر له. فأمام الصور المباشرة في الزمن، نعيش نحن المشاهدين في الجهة الأخرى من الشاشة أي في الواقع المسجل وهكذا تندثر الصورة بوصفها صورة مصنوعة، وينفي الحضور الزائف عن نفسه صفة التشخيص والتمثيل وهنا تكمن الخدعة.

إن التلفزيون – وهو يقوم بتخيل الواقع وإضفاء طابع مادي على تخيلاتنا – يسعى إلى الخلط بين الدراما والدراما الوثائقية وبين الحدث الواقعي والواقع الاستعراضي الذي يتأرجح بنا من الأطروحة إلى الأطروحة النقيض. [33]

دراسة الواقع واستشراف المستقبل: رؤية استراتيجية

لو أن الإنسان لم يكن يغلق عينيه غاية الإغلاق – كما يقول روني شار– فإنه كان سينتهي إلى عدم رؤية ما يستحق النظر. وكأننا بريجيس دوبري في نهاية مؤلفه هذا أراد أن يتعض بمقولة روني شار من خلال اختزاله لمقاربات عدة طرحتها صفحات كتابه في اثنتي عشرة أطروحة أنهاها بسؤال أخير.

ففي أطروحة أولى يعتبر دوبري أن كل ثقافة تتميز بما تتواضع على اعتباره واقعا. وكل مجال وسائطي ينتج معايير الاعتقاد في الواقع ومن ثمة نزع الثقة فيما هو ليس واقعا. إن مسألة الثقة مسألة دائمة: فيمن نثق؟ وتختلف الأجوبة حسب حالة المعارف والآليات. فقد كان جواب أفلاطون في عصر الخطاب: «علينا الثقة فقط في الأفكار المعقولة، وأبدا فيما يسقط تحت المعنى(أسطورة الكهف). أما جواب ديكارت الذي يخص عصر الأشكال فكان: «علينا الثقة في الأشياء المرئية، لكن عبر بنائها بنظام

والرقمي غدا إلى الخلط التعسفي بين الحقيقي والجميل والخير، وهو الخلط الذي ارتبط كثيرا باستيهامات الأنظمة الكليانية في زمن ليس بالبعيد.إن مجتمعا تحكمه قاعدة «ما تراه هو ما تملك ليس مجتمعا منفتحا. ولأن عصر الشاشة يربط المستقبل بالحاضر القابل للرؤية ولعبة الممكنات بالحدث المسيطر المتلخص فيما يلي: «أنت على خطأ لأن ليس لك ما تقترحه للرؤية»، فإنه سيكون العصر الأقل جدلية مما يمكن أن تعرفه الإنسانية إذا ما نحن منحناه جميع السلطات». [42]

وقد يحملنا هذا إلى تبني التساؤل المطروح في الأطروحة العاشرة:هل ستكون اللاماديات الوحيدة المباحة لنا ذات طابع تقني؟ إن شخصيتنا المعنوية بكاملها في حالة أزمة. فقد غدا كل شيء مرئيا وحين يغدو كل شيء مرئيا فلا شيء يغدو ذا قيمة - كما يشير إلى ذلك ريجيس دوبري في كتابه في الأطروحة الحادية عشرة.

فتجاهل الاختلافات يقوى مع اختزال الصالح في المرئي. «ولكن غريزة البقاء لدى الجنس البشري مثلها مثل الرغبة البسيطة في تقصي اللذة لدى الفرد والأمم سوف تضطر عاجلا أو آجلا إلى الحد من الامتيازات التي تحظى بها الصورة. ولكي يتم إيقاف الاختناق واليأس ، سوف يتم إيلاء الأهمية للفضاءات الباطنية اللامرئية وذلك عبر الشعر والمخاطرة والقراءة والكتابة والافتراض والحلم». [43]

لكن إلى أن يتم بلوغ تلك الحقبة تبقى الصورة الرقمية الجديدة هي القائمة بإنتاج المعرفة وممارسة سلطة لا حد لإغرائها، كما يؤكد ذلك دوبري في أطروحته الثانية عشرة والأخيرة. «فبعد المسبار والميكروسكوب والتصوير بالأشعة جاءت المعالجات المعلوماتية لتوسع بشكل هائل من تحكمنا في المسافات وفي الأعضاء وأمراضها ومن أبنيتنا عبر التصاميم والرسوم، ومن فرضياتنا الفكرية نفسها ، وذلك بتمكيننا من الترجمة البصرية للنماذج النظرية المجردة». [44]

ولعله لا شيء يضاهي استشراف ريجيس دوبري للمستقبل من خلال طرحه لسؤال أخير يمثل في حد ذاته إشكالية كبرى في الألفية الحالية. هذا السؤال الذي

هذه الذات وجدت في الأطروحة الخامسة مرتعها وفي الوسائطية ما يحقق مقصدها. هذه الوسائطية ستبلغ أهدافها حين لا يخشى الناس أمام أي نقاش أساسي و خصومة جدية. «إن هامش حريتنا يضيق مع تزايد التدخل الوسائطي وتزايد الشبكات وتعقد المسارات. وكل عملية تقنية في أشد تفاصيلها تقود إلى سلوك يشكل نمطا معينا ودائرة عامة محكمة». [37]

هذه المعادلة ساهمت - حسب الأطروحتين الخامسة والسادسة- في تأكيد أن ما يتوجه نحو الخارج ويتنامي يكمن في تأليه الصورة، وهذا ليس وعي الذات بقدر ما هو آلية «سوسيوتقنية».

هذه الآلية «السوسيوتقنية» أعطت للعصر البصري- حسب الأطروحة الثامنة - بعدا جديدا لمعادلة هي: المرئي- والواقعي- والحقيقي. «إنها انطولوجيا استيهامية محكومة بالرغبة اللاشعورية. لكنها من جهة أخرى رغبة غدت من القوة والاكتمال بحيث تنظم أعراضها في نظام كامل الجدة». [38]

وبما أن السوق أصبح يحدد أكثر فأكثر طبيعة التمثيلات المحسوسة، وحدودها باعتبار أنها تخلق بواسطة الصناعات، تحولت المعادلة المذكورة إلى: «ما لا يباع اللاواقع والمزيف وغير الصالح» [39]. فما يقبل الاندماج والذوبان وحده له قيمة ولا قيمة إلا لمن يملك الزبائن. «والمطابقة بين قيم الحقيقة وقيم الإعلام يوجه الأولى إلى مجال العرض والطلب، وبهذا فإن من يملك سوقا هو من سيعرف بأنه الحقيقي». [40]

ومما لا شك فيه بأن ذلك سيقود إلى نوع من الانحراف يطلق عليه ريجيس دوبري-في أطروحته التاسعة- ما اصطلح على تسميته بالانحراف نحو التجارة الكاسحة. وسواء تأكد هذا الانحراف أم لا «فإن الرغبة تتزايد في الخلط بين «الهواء» وطابع الوقت والمطابقة بين وجوب الوجود والوجود الحاضر، و الطويل والقصير». [41] ألا يؤدي التعاقد بين الصورة ومرجعها في العالم الإلكتروني اليوم

17- المصدر السابق ص 204

18- المصدر السابق ص 204

19- المصدر السابق ص 259-260

20- المصدر السابق ص 260

21- المصدر السابق ص 328

22- المصدر السابق ص 328

23- المصدر السابق ص 334-335

24- المصطلح كما استخدم من قبل ريجيس دوبري في كتابه ص 362

25- دوبري(ريجيس): مصدر سابق ص 2 36.

26- المصدر السابق ص 363.

27- المصدر السابق ص 412-413.

28- المصدر السابق ص 421-422.

29- المصدر السابق ص 451.

30- المصدر السابق ص 451.

31- المصدر السابق ص 454.

32- Dominique wolton: La Television, instrument de la democratie de masse: Paris Le Monde 1er Fevrier 1992

Gilles Lipovetsky: L'etre du vide: Paris ; Gallimard 1983.33

34 دوبري(ريجيس): مصدر سابق ص 488.

35- المصدر السابق ص 492-493.

36- المصدر السابق ص 493.

37- المصدر السابق ص 495.

38- المصدر السابق ص 496.

39- المصدر السابق ص 497- 498.

40- المصدر السابق ص 499.

41- المصدر السابق ص 499- 500.

42- المصدر السابق ص 500.

43- المصدر السابق ص 501.

44- المصدر السابق ص 503.

45- المصدر السابق ص 504.

46- المصدر السابق ص 506.

نقتبسه كما هو في ترجمته الوفية دون زيادة أو نقصان هو الآتي: كيف ستنظرون جيدا من حولكم من دون أن تقبلوا بوجود أشياء لا مرئية فوقكم أو تحتكم أو بجانبكم؟ وأنا لا أعني هنا فقط الملائكة أو الأجسام الكوكبية وإنما الوقائع المثالية والأساطير والمفاهيم أو العموميات والكليات والروحانيات أو الرموز التي لن تكون لها من ترجمات ممكنة سواء كانت افتراضية أو في فضاء تحكيمي. كيف يمكن وجود الهنا من غير الهناك والآن من غير الأمس وغدا وأبدا من غير أبدا...؟ [45]

الهوامش:

1- بن كراد (سعيد): السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها: دار الحوار سوريا 2005, ص 152

2- غرافي (محمد): قراءة في السيميولوجيا البصرية، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب المجلد 31, الكويت، يوليو- سبتمبر 2002

3- ريجيس دوبري مفكر فرنسي، عاش في شبابه تجربة الكفاح في بوليفيا مع تشي غيفارا. شغل منصب مستشار لفرانسوا ميتران في الثمانينات. له مؤلفات عديدة في الفكر والثقافة والوسائطية. وهو يرأس دفاتر الوسائطية الرائدة في مجال تحليل الوسائط وآلياتها الثقافية.

4- دوبري (ريجيس): حياة الصورة وموتها، ڤاليمار للنشر، باريس 1992, ص 23 . وترجم الكتاب سنة 2002 من قبل الكاتب والمفكر المغربي فريد الزاهي. وصدر عن دار إفريقيا للشرق.

5- المصدر السابق ص 32

6- المصدر السابق ص 57

7- المصدر السابق ص 58

8- المصدر السابق ص 98

9- المصدر السابق ص 100

10- المصدر السابق ص 100

11- المصدر السابق ص 100

12- المصدر السابق ص 100

13- المصدر السابق ص 141

14- المصدر السابق ص 141

15- المصدر السابق ص 148

16- المصدر السابق ص 204

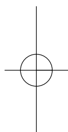
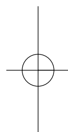
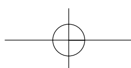
الإسكندرية في رحلات المغاربة في أثناء العهد العثماني

د. ناصر الدين سعيدوني *

تعدّ الإسكندرية باب المشرق بالنسبة للجزائريين وباقي المغاربة، كما تعرف لدى العامة بأنها محطة المغرب الأولى، لكونها الميناء الرئيس لوادي النيل الذي تبدأ منه وتنتهي إليه الطرق البرية والمسالك البحرية التي تربط مصر ببلاد المغرب الأوسط (الجزائر)، وهذا ما جعلها، منذ انتشار الإسلام في شمال إفريقيا وتوطد علاقات سكانه بالأقطار الإسلامية في المشرق، مقصد المتوجهين من البلاد الجزائرية نحو مصر وما وراءها من الأقاليم لأداء فريضة الحج أو لطلب العلم والدراسة أو بغرض السفر وممارسة التجارة.

لقد كان الانتقال من الجزائر نحو الإسكندرية يتم بالسفر برا مع القوافل المتوجهة نحو مصر، عبر الجنوب التونسي وإقليمي طرابلس الغرب وبرقة. فقد كان الحجاج المغاربة يدخلون الإسكندرية من باب السدرة، وغالبا ما يحطون رحالهم بزاوية أبي محمد صالح وما جاورها، ليقضوا بالإسكندرية أسبوعا في الذهاب وآخر في الإياب [1]، يستريحون في أثنائه من عناء السفر ويتعرفون على المدينة ويزورون مشاهدها ويترددون على حلقات الدرس في مساجدها ويحرصون على إقامة علاقات مع علمائها وشيوخها وأعيانها، قبل أن يسلكوا طريق القاهرة عبر دمنهور وفوة وأبيار والمحلة الكبرى وفارسكور وأشمون الرمان، وقد يركب بعضهم القوارب فيصل عن طريق النيل إلى أمبابة ومنها إلى القاهرة، فيلتحق بمحفل الحج المصري الذي كان يتولى أمره من قبل حاكم مصر رجل يعرف بـ «أمين الصرة» ويطلق عليه لقب ياميني المكلف بإمارة الحج والمخول بالسهر على الأعطيات العينية والنقدية الموجهة إلى علماء وأشراف الحرمين الشريفين[2].

* *أستاذ مشارك، قسم الاجتماع، جامعة الكويت.*

فضل علم التاريخ والأخبار»[6]، ورحلة عبدالرزاق بن حمادوش الجزائري «لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال»[7]، ورحلة محمد بن عمار الجزائري «نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب»[8]، وتقييد محمد بن أبي راس الناصري المعسكري «عجائب الأسفار ولطائف الأخبار»[9] و«فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته»[10]، والأمير عبدالقادر الجزائري في سيرته الذاتية وغيرها[11].

ولم يقتصر الأمر على الجزائريين، فقد كان لرحلات وتقاييد المغاربة الآخرين أهمية خاصة لما تضمنته من معلومات مهمة عن مدينة الإسكندرية بوصفها المحطة الرئيسة في طريق الحج، نذكر منها، على سبيل المثال، ما كتبه سفير ملك غرناطة للسلطان المملوكي جقمق[12]، وما سجله الحسن بن محمد الوزان المعروف بالأسد الإفريقي[13]، وما ورد في رحلات أبي سالم عبدالله العياشي (1090هـ1697م)، واليوسي (ت. 1102هـ/1691م)، وأحمد الجزولي الهشكولي (ت. 1127هـ/1715م)، وأبي العباس أحمد بن ناصر الدرعي (ت. 1129هـ/1717م)، وأحمد بن عبدالقادر الفاسي القادري (ت. 1133هـ/1721م)، ومحمد بن عبدالسلام البناني (ت. 1163 هـ/1750م)، وعبدالمجيد بن محمد المنالي الزبادي (ت. 1163هـ/1750م)، وأبي عبدالله محمد بن الطيب الفاسي (ت. 1170هـ/1757م)، ومحمد بن أحمد الحضيكي (ت. 1189هـ/1775م)، وأبي العباس أحمد بن محمد الفاسي (ت. 1214هـ/1799م)، ومحمد مقديش الصفاقسي (ت. 1217هـ/1813م)، ومحمد بن عبدالسلام الناصري (ت. 1239هـ/1823م)، وأبي القاسم بن أحمد الزياني (ت. 1249هـ/1833م) وغيرهم.

إن هذه الرحلات بما اشتملت عليه من أوصاف وسجلته من أحداث، توفر للباحث مصدراً رئيساً للتعرف إلى عمران مدينة الإسكندرية ورصد واقع الحياة فيها، على أنه نظراً لتشابه مضمون الكثير من هذه الرحلات ورجوعها في الغالب إلى مصادر

وتقدم كتب الرحلات وتقييد المسافرين وصفا دقيقا لرحلة الحج هذه، فهي تصف محطات الطريق ومراحلها من بلاد المغرب إلى أقطار المشرق، وقد حظيت مدينة الإسكندرية، بوصفها «مقصد المغاربة والمشارقة» حسب وصف الأمير عبدالقادر لها في سيرته [3]، والمحطة الرئيسة للحجاج والمسافرين، بأوصاف دقيقة وتعاليق مهمة تتصل بالمعالم العمرانية وبالحياة الاجتماعية والاقتصادية وتمس الواقع الثقافي والميول الروحية.

ففي الفترة الإسلامية نجد صورة الإسكندرية ماثلة بملامحها وتفاصيلها في العديد من نصوص الجغرافيين والرحالة المغاربة مثل أبي عبيد الله البكري (ت. بعد 487هـ/ 1094م) في «المسالك والممالك»، ومحمد بن عبدالله الشريف الإدريسي (ت. حوالي 558هـ/1163م) في «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، مروراً بصاحب «الاستبصار في عجائب الأمصار» الذي يعود إلى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وأبي الحسن محمد بن جبير (ت. بعد 614هـ/1217م) في «تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار»، وأبي البقاء خالد البلوي (ت. قبل 680هـ/1281م) في «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»، وأبي الحسن علي بن سعيد الغرناطي (ت. حوالي 685هـ/1286م) في «بسط الأرض»، وأبي عبدالله محمد الحاحي العبدري البلنسي (ت. بعد 688هـ/1289م) في «ما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق»، وأبي عبدالله محمد بن رشيد السبتي (ت. 721هـ/1321م) في «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة»، وأبي عبدالله محمد الطنجي المعرف بابن بطوطة (ت. 779هـ/ 1377م) في «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»[4].

وإذا تجاوزنا الفترة الإسلامية إلى العهد العثماني، نجد العديد من رحلات وتقاييد الجزائريين تصف مدينة الإسكندرية، فمن هذه الرحلات والتقاييد التي وضعها الجزائريون، نذكر رحلة الشيخ عبدالله القادر المجاجي (ت. حوالي 1063هـ/1652م) التي ضمنها قصيدة طويلة استعرض فيها رحلته من الجزائر إلى مكة المكرمة[5]، ورحلة الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورتلاني «نزهة الأنظار في

1 - **معالم الإسكندرية العمرانية**

تحرص نصوص الرحلات والتقاييد التي وقع اختيارنا عليها في عرضنا هذا، على تبيين ما اشتهرت به الإسكندرية قديماً من معالم عمرانية، وما عرفت به على عهدهم من نشاط مميز ومكانة خاصة، فهي حسب أبي سالم العياشي: «عقيلة البلاد الحائزة للطريف من المحاسن والتلاد - عقيلة أبلى الدهر أسبابها ومزق جلبابها.. فهي من أمهات المدن المذكورة.. وناهيك بفخامة بانيها الإسكندر وشهرته واستيلائه على الممالك»[19]. وهي عند الورتلاني: «من أمهات المدائن الكبرى في الدنيا، فهي دار مملكة الديار المصرية قبل الإسلام وبها كان المقوقس..»[20]، وقد رأى أبو القاسم الزياني، اعتماداً على من وصفها في القديم، أنه: «لا توجد مدينة أحسن منها، ولا أبدع منها صنعا، وأجمل رونقا، ولا أوسع مسالك، وأعلى مباني، ولا أجمل مراسم، ولا أوضح معالم، ولا أملح أزقة، ولا أعجب رونقا ورقة، ولا أحسن تفصيلا وجملة.. فكأن محاسن الدنيا فيها مفروشة، وصور الجنة فيها منقوشة»[21].

على أن صورة الإسكندرية القديمة هذه التي ضخمها الخيال وأبعدتها المبالغة عن الواقع لا تلبث أن تختفي في نصوص الرحلات وتحل مكانها صورة لواقع الإسكندرية في العهد العثماني، وقد تقلص عمرانها وتهدمت معالمها ودرست أطلالها، ولم يبق من تلك المساحة الشاسعة التي كانت الإسكندرية القديمة تحتلها «سوى عمارة قليلة داخل سور المدينة» حسب العياشي[22]، فاكتمل بذلك خرابها منذ حكم العبيديين (الفاطميين)، ولم يبق ماثلا من معالمها سوى مسجدها الأعظم وبعض حماماتها حسبما أورد الزياني في الترجمانة الكبرى[23].

ومع أن رواية أبي القاسم الزياني هذه تتطلب نقدا ودراسة للتعرف على الوضعية التي آلت إليها الإسكندرية على عهد الفاطميين، إلا أن وضع الإسكندرية عند استيلاء السلطان سليم الأول العثماني عليها (922هـ/1517م) يؤكد لنا حالة التراجع والانكماش التي آلت إليها الإسكندرية، فقد أورد أبو سالم العياشي نقلا عن

معروفة [14] وتكرر اقتباس بعضها من بعض، ارتأينا الاقتصار على نصوص بعض الرحلات التي تعود إلى العهد العثماني، لتحليل مضمونها وتكوين صورة متكاملة عن معالم مدينة الإسكندرية وواقع الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فيها.

وقد وقع اختيارنا في ذلك على النصوص الآتية:

- مشاهدات سفير ملك غرناطة للسلطان المملوكي عند نزوله الإسكندرية سنة 844هـ.
- تعريف الحسن بن محمد الوزان المعروف بالأسد الإفريقي بتاريخ الإسكندرية. ومعالمها وعمرانها.
- رواية أبي سالم عبدالله العياشي عن توقفه بالإسكندرية وزيارته مشاهدها.
- انطباعات الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورتلاني عن الإسكندرية.
- تقاييد عبدالرزاق بن حمادوش الجزائري عن إقامته بالإسكندرية، ودراسته فيها.
- عرض أبي القاسم بن أحمد الزياني لمعالم الإسكندرية ومشاهدها.
- تعليق الأمير عبدالقادر على توقفه بالإسكندرية مع أبيه في طريقه إلى الحج.

هذا دون أن نهمل العديد من التقارير الخاصة والتقاييد المتعلقة برحلة الحج من قبيل ما أثبته المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي في مدونته «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»[15]، أو ما أشار إليه الحاج أحمد الشريف الزهار في مذكراته[16]، أو ما سجله العالم الفرنسي جيرار (Girard) في مدونة «وصف مصر» (Description de l`Egypte) [17]، أو ما تضمنته المراسلات القنصلية الفرنسية (Correspondances consulaires). [18] وذلك حتى نتمكن من استكمال الصورة التي ترسمها نصوص الرحلات الحجية للإسكندرية ومجتمعها، هذه الصورة التي سنعرض خطوطها الرئيسة في النقاط الآتية:

منه حركة السفن القادمة إلى الإسكندرية حتى يمكن استخلاص الرسوم منها وفرض الغرامات على من لا يتمثل لموظفي الجمارك، وغير بعيد من هذا الحصن تنتشر منازل المدينة وهي في أغلبها مزودة بأحواض ماء ذات قباب محمولة على أعمدة وأقواس، يصلها ماء النيل عند فيضانه عن طريق قناة حفرت في السهل الممتد بين مجرى نهر النيل وأسوار الإسكندرية[28].

أما أهم معالم الإسكندرية القديمة التي حرصت كتب الرحالة على ذكرها والإشادة بها، فهي:

1 - **منارة الإسكندرية:** عدّتها كتب الرحالة إحدى عجائب الدنيا السبع وحرصت على ذكرها رغم زوال أثرها، فنعتها أبو القاسم الزياني بالمئذنة الكبرى وأورد وصفها اعتمادا على ما نقله كل المسعودي وابن فضل الله العمري، فذكر أن ارتفاعها يصل إلى 230 ذراعا وقد يصل إلى 400 ذراعٍ، وأنّ في أعلاها مرآة مطلسمة تستعمل لحرق السفن المعادية، وقد تعرّضت المنارة للتخريب في العهد البيزنطي وزال أثرها نهائياً في أيام الفاطميين، وأرجع ذلك إلى سعاية رجل رومي أوهم حاكمها الفاطمي بأن تحتها كنزًا، فانطلت المكيدة عليه وتسبب البحث عن الكنز المزعوم في خراب المنارة[29].

2 - **عمود الصوراي أو عمود الأعيان:** وهو العمود المعروف في المصادر الغربية بعمود بومبي، يقع خارج المدينة العثمانية ناحية الغرب على بعد ستة أميال، ويعود بناؤه، حسب الحسن الوزان: «إلى بطوليمي الذي جعل منه نقطة مراقبة ووسيلة لحماية السفن وجهزه لهذا الغرض بمرآة عاكسة من الحديد الصلب تسلط أشعتها المحرقة على السفن المعادية» [30]، ووصفة العياشي بأنه: «عمود واحد من حجر مائل في الهواء من فوقه حجر مربع مثل الكرسي دوره نحو الثلاثين ذراعاً[31]، وعلق عليه الورتلاني نقلا عن بعض الروايات التي استقاها من سكان الإسكندرية بأنه (أي

ما رواه له الشيخ باكر بأن السلطان سليم العثماني عندما فتح الإسكندرية لم يستجب لطلب سكانها لإعادة تعمير المدينة القديمة المهدمة، فكان ذلك عين الصواب، حسب رأيه، لأن ما خربه الله - حسب قوله - لا يصلحه الإنسان(24).

وبذلك ظلت الإسكندرية في العهد العثماني تحتل مكاناً محصوراً بالبحر من جهتين ومحمياً بالسور من جانب المدينة القديمة ومنفتحاً على الفضاء من الجهة الأخرى(25)، وهو الجزء الشمالي الغربي من مدينة الإسكندرية القديمة الذي قام بإعماره في العهد الأيوبي الملك الناصر بن أيوب، في حين ظلّ الجزءان الآخران مهجورين، أما أولهما فتنتشر فيه به بقايا أطلال الإسكندرية القديمة حيث توجد المنارة، وأما الموضع الآخر ففصاء فسيح يعرف بالهبطة أو القبطة حسبما أورده الورتلاني(26).

وقد وصف الحسن الوزان الإسكندرية في مطلع العهد العثماني، فذكر أنها تحتل مساحة مربعة تنفتح على أربعة أبواب: أحدها في الشرق ناحية النيل، والآخر في الجنوب في اتجاه البحيرة، والثالث في الغرب يؤدي إلى صحراء برقة، والرابع متجه نحو البحر حيث مرسى السفن ومقر الحرس ورجال الجمارك القائمين على تفتيش القادمين إلى الإسكندرية عن طريق البحر. وداخل السور يوجد بابان متصلان بشارع، ومحميان بقلعة الإسكندرية الحصينة الواقعة عند مدخل الميناء القريبة من برج الإسكندرية والمشرفة على المكان المخصص لرسو السفن القادمة من الموانئ الأوربية(27).

أما داخل المدينة - حسب وصف الحسن الوزان - فتتوسطه هضبة تشكلت من أكوام التراب التي تعود إلى عهد إنشاء الإسكندرية، وقد تناثرت فيها بقايا بنايات مهدمة، منها بيت صغير على شكل كنيسة صغيرة وفيه قبر يعظمه المسلمون؛ لاعتقادهم بأنه قبر الإسكندر ذي القرنين الذي ورد ذكره في القرآن، إذ يقومون بزيارته وإشعال الشموع فيه ويتركون الصدقات فيه، كما يوجد إلى أحد التلال حصن صغير تراقب

2 - **مشاهد الإسكندرية ومزاراتها**

اهتمت كتب رحلات المغاربة وتقاييد الحجاج الجزائريين التي تعرضت لوصف الإسكندرية، بذكر مشاهد الأولياء ومقامات الصالحين وقبور العلماء، إذ كانت مقاصد زيارة الحجاج الذين كانوا يحرصون على الوقوف عليها تبركا بها وإجلالاً لمكانتها وتعظيما لمنزلة أصحابها، حتى غدت من دوافع زيارة مدينة الإسكندرية ومن أهم مآثرها ومعالمها التاريخية. وهي في مجملها تصنف، حسب وصف الرحلات، إلى مشاهد الأولياء ومقامات العلماء. فمن مشاهد الأولياء الصالحين التي ورد ذكرها في كتب الرحلات:

- مشهد الولي القطب سيدي أبي العباس أحمد المرسي الأندلسي (ت. 686هـ/1287م) الذي تولى مشيخة الشاذلية وعرف بصلاحه وزهده واشتهر لدى العامة بكراماته.

- قبر سيدي عبدالرزاق أحد تلامذة الغوث أبي مدين شعيب (دفين العباد بتلمسان، ت. 594هـ/1198م)، ويعدّ من «أجلّ من نشر طريقة أبي مدين بعده وأخذها الناس عنه»، حسب رواية العياشي[38].

- قبر سيدي علي البدوي.

- قبر سيدي ياقوت العرشي الملقب بالحبشي، تلميذ أبي العباس أحمد المرسي.

- قبر سيدي أحمد الذي لقب بالمناري لما شاع عنه أنه صعد منارة الإسكندرية بحماره، فاعتبره العياشي «صاحب بركة»[39]، وحرص الورتلاني على الوقوف على قبره الموجود في أحد بيوت زاوية أبي الحسن الشاذلي[40]، هذه الزاوية التي تعد أحد مشاهد الإسكندرية، فكانت بدورها مقصد الحجاج، وهي حسب وصف العياشي «قلعة كبيرة في سور البلد التركي، بها بيوت متعددة، يأتيها الشاذلية في ليلة معلومة من السنة يجتمعون على الطعام بها، ويقضون الليل بها في العبادة وقراءة الأذكار[41]. ومن مشاهد الإسكندرية التي ذكرتها الرحلات، مقام النبي دانيال الذي كان، حسب

العمود): «في الأصل أربعة أعمدة.. في أعلاها قبة كان يجلس عليها أرسطو صاحب الرحلة»[32]، ويبدو أن الأمر قد التبس على الورتلاني، فخلط بين منارة الإسكندرية والعمود الذي ظل قائماً بين أنقاضها حتى عد الأثر الوحيد الباقي من الإسكندرية البطلمية - الرومانية.

3 - بركة الماء: وهي حفير كبير يعود إنشاؤه إلى عهد الإسكندر المقدوني مؤسس المدينة، على شكل بركة تتميز بسعتها وجودة بنائها المدعم بألواح الرخام وبالحجر الصلد، حتى يحول دون تسرب الماء الذي يصل إليها من إحدى قنوات النيل، ليوزع منها على حمامات المدينة وخاناتها وكنائسها ومنازلها المزودة بأحواض خاصة تعرف بـ «السفيطة» سعة كل واحد منها على قدر ساكنها[33]. وقد اكتسبت بركة الماء هذه أهمية خاصة لارتباطها بحياة السكان ولكونها ظلت مستعملة طيلة العهد العثماني إذ وقف عليها الزياني عند زيارته للإسكندرية في مستهل القرن التاسع عشر[34].

4 - الملعب والمسلّتان والحمام الكبير والمدافن: وهي معالم عمرانية مهمة في الإسكندرية القديمة، وقد زالت آثارها وإن حرصت كتب الرحلات على ذكرها اعتمادا على الروايات المتواترة والأوصاف المنقولة من كتب التاريخ والجغرافية. فالملعب، حسب أوصاف هذه الروايات، كان بناء فخما يحتل فضاء مخصصا لاجتماع السكان في الأعياد السنوية. والمسلّتان أو الساريتان اللتان تزينان المدينة كانتا عبارة عن نصبين ضخمين من الحجارة المنحوتة المنقوشة، فهما حسب وصف الورتلاني: «جبلان قائمان على سرطانات من نحاس»[35]. أما الكبير الذي لم تبق منه سوى أساساته فقد ذكر العياشي بأنه «أحسن حمامات الدنيا، إذ أثنى عليه الأطباء، وتفرد في سعته وحسن شكله وفخامة بنائه»[36]. في حين تشكّل مدافن الإسكندرية المحفورة تحت الأرض - حسبما أورده العياشي والورتلاني - من حيث كثرتها وسعة المساحة التي تحتلها، مدينة سفلى تضاهي المدينة التي فوق الأرض[37].

3 - الحياة الثقافية والاجتماعية بالإسكندرية

حرصت كتب الرحلات في تعرضها للإسكندرية على ذكر ما كان يقوم به أهلها من نشاط ثقافي، وبخاصة ما يتصل بحضور حلقات الدرس والاتصال بالعلماء وربط صداقات معهم، وهذا ما يجعل الإسكندرية بحق بيئة ثقافية وموطن علم للحجاج المغاربة، لا تتفوق عليها إلا مدينة القاهرة التي تحتضن أهم المؤسسات العلمية والدينية وفي مقدمتها الأزهر الشريف، وتستقبل كل من اشتهر من علماء مصر وبلاد المشرق حتى غدت، حسب وصف أبي راس الناصري لها: «البلد الذي ليس لعمرو ولا زيد، والفرا الذي في جوفه كل الصيد»[46].

على أن ميزة الإسكندرية بالنسبة للحجاج الجزائريين وغيرهم من المغاربة، أنها أول بيئة ثقافية يتأثرون بها وأول مركز علمي يرتبطون به ويحتكون بوسطه، ولعل هذا ما جعل بعضهم يفضّلها على غيرها من حواضر العلم ومراكزه. فقد اشتهر من العلماء الجزائريين الذين استقروا بالإسكندرية لتلقي العلم على شيوخها أو التدريس في حلقات مساجدها في الفترة الإسلامية: أبو عبدالله محمد بن قاسم البجائي الإسكندري (القرن 7هـ/13م) الذي روى بالإجازة عن عالم الإسكندرية الحافظ السلفي (ت. 643هـ/1245م)، والشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن معطى الجزائري (القرن 7هـ/13م) الذي ارتبط بعلماء الإسكندرية وأخذ عنهم، والشيخ سالم بن عبدالله بن طاجين القسنطيني الذي لزم بالإسكندرية القاضي برهان الدين بن جماعة حتى توفي بها (820هـ/1417م)، والشيخ بديع الدين أبو محمد عبدالله بن محمد القسنطيني (دفين غزة 760هـ1358م) الذي استوطن الإسكندرية والإمام ابن الشمطي القسنطيني الإسكندري وابنه كمال الدين (ت. 878هـ/1473م)[47].

هذا وتقدم لنا الرحلات عرضا حيا عن واقع الحياة الاجتماعية في الإسكندرية، كما توفر لنا تقاييد الحجاج والقنصليات ووثائق المحاكم معلومات في غاية الأهمية

تلك الرحلات، مكان زيارة وموقع تكريم[42].

أما مقامات العلماء التي ورد ذكرها في الرحلات فهي:

- قبر أبي الحسن البوصيري (ت. 695هـ/1295م) صاحب الأمداح النبوية ومنها منظومته المشهورة بـ «البردة» التي كانت تنشد عادة في المولد النبوي الشريف في أغلب بلاد المغرب.

- قبر أبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت. حوالي 520هـ/1126م) صاحب «سراج الملوك»، الذي نزح عن بلده طرطوشة بالأندلس ليستوطن الإسكندرية وليصبح له مكان بين أهلها بعلمه وورعه وصلاحه، فعده العياشي في رحلته «الإمام الجامع بين العلمين»[43].

- مقامات الأئمة الفقهاء: الفاكهاني والخزرجي وتاج الدين بن عطا.

لقد حرصت هذه الرحلات في ذكرها مشاهد ومزارات الإسكندرية على الإشادة بمناقب الصلحاء والعلماء وكرامات الأولياء، والتأكيد على التبرك بها، فهي بذلك تعبر عن الميول الروحية السائدة في مجتمع الإسكندرية العثماني من خلال سلوك الحجاج الذي يعدّ مظهرا معبرا عن روح التقوى والاعتقاد في أبسط مظاهره. وهذا ما لم يغفل عنه العياشي في ملاحظاته عندما ذكر أن الحجاج الوافدين معه إلى الإسكندرية «قد استفاضت ألسنتهم كثيراً من المكاشفات من (الست نعيمة) من أهل الصلاح والزهد، وإن لم ير شيئاً من ذلك عندما زارها مرتين، وإن اعتبرها من أهل الأحوال»(44)، ولم يؤاخذ العياشي الحُجّاج على ما كانوا يتبركون به، وإن لم يجارهم فيه، مثل تبركهم بالسلاح المعلق في زاوية أبي محمد صالح التي ينزل بها المغاربة، باعتباره سلاح الصحابة الذين فتحوا المدينة، وكذلك المصحف الكبير الموجود بالجامع الأعظم بالإسكندرية باعتباره أحد المصاحف التي بعثها الخليفة عثمان (ض) إلى الآفاق[45].

والتسامح والمساواة، فأصبح المغاربة أحد ا لمكونات الأساسية في مجتمع الإسكندرية المتعدّد الطوائف والجاليات.

أما من حيث مظاهر الحياة الاجتماعية في الإسكندرية سواء كانت معاملة أم عادات أم مأكل ومشرب ومسكن وحالة صحية، فإن الرحلات وتقاييد المسافرين وتقارير القناصل تتوافر على معلومات قيمة. فقد ذكر العياشي ما يؤكد روابط الصداقة بين الحجاج المغاربة وسكان الإسكندرية، عندما أشار إلى توطد علاقته بوكيل أبي العباس المرسي رغم غيابه عن الإسكندرية عشرين سنة[52]. كما ورد في وصف سفير ملك غرناطة لنزوله الإسكندرية واستقباله من طرف حاكمها صنغا الطيار التركي الملقب بملك الأمراء ما يعرفنا على مراسم الاستقبال، فقد جاء وصف ذلك بهذه الفقرات المعبرة: «فوجه إلينا (أي حاكم الإسكندرية) عند نزولنا البحر للركوب جملة من عتاق الخيل التي لم يعهد مثلها قدودا وحسن هيئة وكمال زي. وذلك لأنهم يصنعون بتلك البلاد قرابيس سروجهم من خالص الفضة ويموهونها بالذهب على إحكام صنعه وحسن وشي، ويضعون مواضع الركوب بها مجالس من الديباج الملون، ويجللون أكفال الخيل بستائر من الحرير المذهب مما يروق الطرف»[53]. هذا ولم يفت سفير غرناطة الإشارة كذلك إلى نوعية الشراب والأكواب التي قدم فيها، فقد جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله: «فجيء بأواني زجاج رائق، فيها من مذاب السكر الممزوج بماء الورد مما يحيي النفوس وينعش القلوب»[54].

وتندرج ضمن الحياة الاجتماعية الحالة الصحية التي كانت موضع اهتمام الرحلات وتقاييد المسافرين وتقارير القناصل، لما كانت تمثله من تهديد للحجاج في أثناء سفرهم أو عند بلوغهم الإسكندرية أو عودتهم إلى الجزائر، فظهور الوباء (الطاعون) وانتشاره كان سببا في قطع المواصلات وتوقف السفر، فينقطع الحج وتضطرب أمور الحجاج، فقد ذكر أبو القاسم الزياني في رحلته أنه لما نزل الإسكندرية، اضطر أن يقيم بها شهرين لقلة المراكب المتوجهة نحو المغرب بسبب

عن نوعية العلاقات الاجتماعية ومكانة الجالية المغاربية ومنها جماعة الجزائريين في مدينة الإسكندرية في العهد العثماني، فمن خلال الدلالات الاجتماعية المستخلصة من هذه الرحلات أو التي تتضمنها تلك الوثائق ترتسم صورة مجتمع الإسكندرية، الذي يتعايش فيه المسلمون والنصارى ويختلط فيه المصريون بغيرهم من القادمين من مدن البحر المتوسط.

فمجتمع الإسكندرية المنفتح على عالم البحر المتوسط والمتصل مباشرة ببلاد المغرب كان يتميز بطوائفه الدينية وبخاصة المسيحيون (اليعاقبة) الذين كانوا يشتغلون بالتجارة على وجه الخصوص حسبما أورده الحسن الوزان[48]، كما يعرف مجتمع الإسكندرية بجالياته الأوربية والشامية و المغاربية وغيرها. وقد اكتسبت الجالية المغاربية من خلال رحلة الحج أهمية كبيرة وأصبحت لها مكانة مميزة في المجتمع الإسكندري أواخر العهد العثماني بفعل تماسك أفرادها وترابط أسرها وتضامن تجارها، فرغم تعدد مواطن هذه الجالية ببلاد المغرب، إلا أنها فضلت التجمع في حي خاص بها عرف بحارة المغاربة، واستأثر تجارها بسوق جعلوه مركزا لنشاطهم التجاري أشارت إليه الوثائق بعطفية المغاربة أو شارع المغاربة أو سوق المغاربة[49].

أصبحت الجالية المغاربية بالإسكندرية تشكل طائفة اجتماعية لها مكانتها بفعل تضامنها ووضعها المميز، الأمر الذي ساعد أفرادها على الحصول على حقوقهم ومكنهم من رد المظالم عن أنفسهم، وهذا ما تؤكده المعلومات المتعلقة بالمغاربة التي تضمنها كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» لعبد الرحمن الجبرتي[50]، وأثبتته العديد من وثائق محكمة الإسكندرية[51].

هذا ولم يحل الوضع الخاص والمميز للجالية المغاربية دون اندماجها في الوسط الإسكندري، وقد ساعدها على هذا الاندماج الوضع الاجتماعي والنشاط الاقتصادي في الإسكندرية، المتميز بالانفتاح وتقبل الغرباء والمتصف بالحيوية

الهوامش:

1 - أبو سالم عبدالله العياشي (ت. 1090هـ/1681م)، ماء الموائد أو الرحلة العياشية، نشر محمد حجي، الرباط، 1977.

2 - يتولى شئون الحجاج الجزائريين مبعوث حاكم الجزائر (الداي) المعروف بأمين بيت المال (بيت المالجي) المكلف بحمل الصرة وهدايا الحرمين، انظر:
الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر (ت. 1289هـ/1872م)، مذكرات: 1754–1830, نشر وتحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974, ص.144.
– N. Saidouni,
- G. Busson de Jensens, Contributiona a l`Etude des Habous Publics Algeriens, Alger, 1950, dactylo., p.29.

3 - الأمير عبدالقادر الجزائري (ت. 1300هـ/1883)، السيرة الذاتية، تحقيق ونشر يحيى بوعزيز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995, ص ص. 50–51. كما يوجد تحقيق آخر للسيرة نشره كل من محمد الصغير بناني ومحفوظ السماتي ومحمد الصالح الجون، الجزائر، دار الأمة، 1998, ص. 98. من الراجح أن الأمير أملى سيرته وهو في الأسر بفرنسا على صهره ومرافقه الحاج مصطفى بن التهامي.

4 - ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999 (راجع تراجم الرحالة الواردة أسماؤهم في الكتاب.

5 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998, ج. 2, ص. 382.

6 - الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورتلاني (ت. 1193هـ/1779م)، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، نشر محمد بن أبي شنب، ط. 2, بيروت، دار الكتاب العربي، 1974 (ط. 1, الجزائر، 1908).

7 - عبدالرزاق بن حمادوش الجزائري (ت. حوالي 1200هـ/ 1783م)، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق أبي القاسم سعد الله، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.

8 - أحمد بن عمار الجزائري (ت. بعد 1205هـ/1789م)، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب (الرحلة الحجازية)، الجزائر، 1902.

9 - محمد بن أحمد بن أبي راس الناصري المعسكري (ت. 1238هـ/1823م)، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بتاريخ 1262هـ تحت رقم 1633, المكتبة الوطنية الجزائرية.

10 - محمد بن أحمد بن أبي راس الناصري المعسكري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق محمد بن عبدالكريم، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990.

11 - الأمير عبدالقادر الجزائري، المصدر نفسه، ص ص. 50–51.

12 - السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، 1982, نص رحلة سفير ملك غرناطة إلى السلطان الظاهر جقمق سنة 844هـ/1440م، ص ص. 493–595.

13 - الحسن بن محمد الوزان (ت. 944هـ/1537م)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد

الوباء الذي انتشر في إفريقيا[55]، نظرا لفرض نظام الحجز الصحي (الكرانتينا) (Quarantaine) عند أبواب مدينة الإسكندرية وحول مينائها.

من خلال ما سبق يتضح لنا أن الرحلات وتقاييد العلماء وتقارير القناصل، تعتبر بحق مصدرا مهما ومرجعاً أساسياً للباحث في قضايا التاريخ ومسائل التراث، يتجاوز ما تقدمه كتب التاريخ العامة من معلومات، ويعدل ما يصدر عن الدراسات الغربية من أحكام، غالبا ما تعكس نظرة خارجية متأثرة بالظروف الأوربية، وهذا ما يسمح لنا بالقول بأنه لا يمكن تكوين صورة متكاملة وواضحة المعالم لمختلف أوجه الحياة في مدينة الإسكندرية دون الرجوع إلى الرحلات والاطّلاع على تقاييد العلماء وتقارير القناصل.

فالرحلات والتقارير ليست عرضا تاريخيا أو وصفا للأشياء حسبُ، وإنما هي حاصل تجربة شخصية وخلاصة لحياة يومية في تعاملها ومعاناتها ونظرتها إلى المجتمع وقضايا الثقافة والاقتصاد وأمر العبادة، ولا تستكمل الوثائق الأرشيفية ونتائج الحفريات الأثرية من دون الرجوع إليها والاستفادة منها.

وفي ختام هذا العرض، يجدر بنا أن نلاحظ أن الدافع لنا في محاولتنا رسم صورة للإسكندرية في العهد العثماني من خلال بعض الرحلات والتقارير، هو استكمال الجانب الآخر الذي تعكسه الرحلات والتقارير، والذي يبين الاحتكاك الثقافي والتعامل الاقتصادي والتواصل الاجتماعي. وقد أخذنا في الحسبان خصوصية الرحلات ومواصفات التقارير من تشابه وتماثل في بعض ما تنقله من مصادر سابقة، وميل واضح للمبالغة في وصف بعض معالم الإسكندرية، وإن كنا في بعض الأحيان نبقي على نصوص الرحلات كما هي، لأنها تعبر عن روح العصر وتظهر اعتقاد العامة في كرامات الأولياء والصالحين، وحتى نستكمل صورة للإسكندرية كما عرفها وتأثر بها الحجاج، وبذلك تتأكد لنا مكانتها بصفتها محطة رئيسة للحجاج المغاربة، ويتضح لنا دورها بوصفها وصل بين موانئ البحر المتوسط، وبيئة تواصل بشري وتفاعل حضاري بين أقطار المغرب العربي والديار المصرية.

ذكر أنه لم يشيد ذكرى لقيصر وإنما تمجيدا للإمبراطور الروماني سيفر، وأقامه سكان الإسكندرية: إلهام محمد علي ذهني، المصدر نفسه، ص. 222.

33 - الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص. 596. وكذلك: أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص. 199.

34 - أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص. 198.

35 - الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ص. 198.

36 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 67.

37 - المصدر السابق، ص. 362.

- الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ص. 569.

38 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 363.

39 - المصدر السابق، ص. 364.

40 - الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ص. 570.

41 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 364.

42 - الأمير عبدالقادر الجزائري، المصدر نفسه، ص. 98.

43 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 363.

44 - المصدر السابق، ص. 361.

45 - المصدر السابق، ص. 67.

46 - محمد بن أحمد بن أبي راس الناصري، فتح الإله...، المصدر نفسه.

47 - محمد زيتون، أعلام قسنطينة وعلاقتهم الثقافية بالقاهرة والإسكندرية، مجلة الثقافة، الجزائر، عدد 1973/18, ص ص. 55-62.

48 - الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص. 497.

49 - عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، المغاربة في مصر في العهد العثماني (1517-1798)، دراسة في تأثير الجالية من خلال وثائق المحاكمة الشرعية، تونس 1982, ص ص. 57-58.

50 - عبدالرحمن الجبرتي، المصدر نفسه، ج. 1: ص ص. 42, 208, ج. 2: ص ص. 132, 251, 378, ج. 3: ص ص. 43, 131, 187, 369, 370, ج. 4: ص ص. 84, 103, 141, 220, 229, 446, 464, 486.

51 - عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية إبان العهد العثماني (1517-1798)، من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، المجلة التاريخية المغربية، العدد 29-1983/30, ص ص. 395-417.

52 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 361.

- Mohamed Lakhdar, Etapes du pelerine de Sijilmassa a la Mecque, d`après El-Ayachi, in Actes du Congres de la Federation des Societes Savantes Nord-Africaines, Alger, T. II, 1939, p. 689.

53 - السيد عبدالعزيز سالم، المصدر نفسه، نص رحلة سفير غرناطة..، ص. 594.

54 - المصدر السابق، ص. 594.

55 - أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص. 195.

الأخضر، ط.2, بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983. اعتمادا على النسخة الفرنسية لإبولار، ارجع:
J. Leon l`Africain, Description de l`Afrique, Nouvelle edition, Trad. De l`italien par E. Epaulard, 2 Vols., Paris, Maisonneuve, 1956.

14 - من المصادر التي اعتمدتها في ذكر معالم الإسكندرية ومظاهرها العمرانية ومشاهدها، كتب التاريخ والرحلات في الفترة السابقة، لابن الحكم والهمذاني وابن فضل الله العمري والتنوخي والمسعودي وابن الفتح والسيوطي، انظر الورتلاني، المصد رنفسه، ص ص. 561–572.

15 - عبدالرحمن بن حسن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق، أ. د. عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1998.

16 - الحاج أحمد الشريف الزهار، المصدر نفسه.

17 - P. S Girard, op. cit., pp. 150-154.

18 - Archives Diplomatiques de Nantes, Serie A.,Carton 5-6.
- Archives de la Marine a Toulon et a Marseille.

19 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 362.

20 - الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ص. 571.

21 - أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص. 1950.

22 - أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص. 67.

23 - أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص. 198.

24 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 362.

25 - أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص. 198.

26 - المصدر السابق، ص. 193.

27 - الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص. 495.

28 - المصدر السابق، ص. 495.

29 - أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص. 198.

30 - الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص. 597.
الجدير بالذكر هنا أن عمود السواري أو عمود الأعيان يعرف لدى الكتاب الأوربيين بعمود بومبي الذي عده الرحالة الفرنسي لوكا (Lucas) أجمل آثار الإسكندرية، والذي طلب القنصل الفرنسي مابيه (Maillet) من الحكومة الفرنسية نقله من الإسكندرية إلى باريس، راجع:
إلهام محمد علي ذهني، مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992, ص. 222.

31 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 97.
قدر الرحالة الفرنسي سافاري (Savary) طول عمود الإسكندرية بـ 114 قدما، وحدده لوكا (Lucas) بـ 94 قدما فقط، أنظر:
إلهام محمد علي ذهني، المصدر نفسه، ص. 222.

32 - الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ص. 564.
حسب وصف سونيني (Sonnini) فإنه يتكون من ثلاث قطع: القاعدة، ثم العمود نفسه، ثم القمة. كما